مطبوعات كتابي
يصدرها حلمي مراد
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

الثأر للوطن

أروع ما كتب الروائي العالمي المعاصر

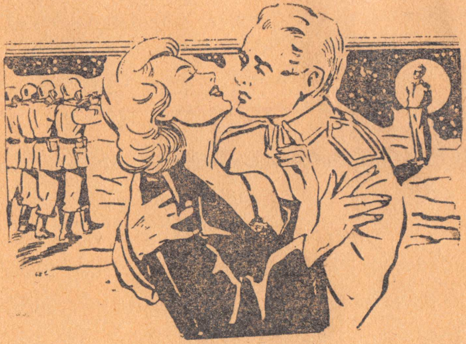
چون شتاينبيك

١٠ قروش



جون شتاينبك

الثأر للوطن



THE MOON IS DOWN

BY : JOHN STEINBECK

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار ((كتابى))

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب العشرون

الثأر للوطن

تاليف : جون شتاينبيك

ترجمة { محمد بدر الدين خليل
وديع سعيد

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة «كتابى»

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن سبعة وخمسون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواء الجديدة . أحدب نوتردام . جريمة حب . عشيقة نابليون . مذكرات كيوبيد . صنم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الارض . ليدى هاملتون . الارملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بتهوفن . حياة موسولينى . كوخ العم توم . الزوج والعشيق . البوهيمية . فتاة لها ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق . أميرة مصر . الامطار . أفروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . الاعداد من ٣٦ - ٥٧

. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والاعداد ٣ ، ٦ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

. الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضر موت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا «عن سنة» خالصة أجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

. ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء . وثمن كل من الاول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل)

لمـاذا اخترت لك هـذه القصـة

عزيزى القارىء :

عندما خطر ببالى ان أقدم لك فى هذا العدد من « مطبوعات كتابى » قصة « الثأر للوطن » ، التى تعتبر من أروع ما كتب عن حركات المقاومة للاحتلال الاجنبى ، وجدت فكرى يتجه من تلقاء نفسه الى الربط بين الظروف التى كتب فيها « جون شتاينبيك » هذه القصة ، والظروف التى تجتازها مصر منذ بدأ العدوان البريطانى الفرنسى الاسرائيلى الغادر عليها ، والذعر الذى نقلته البرقيات الى كافة ارجاء العالم .. ذعر الأنذال المعتدين ، من المقاومة النبيلة التى يصليهم شواظها أبطـال بور سعيد !

لقد كتب « شتاينبيك » هذه القصة عندما سولت الاطماع لألمانيا النازية ان تعتدى على حرية الدول ، فأشـعلت نار الحرب العالمية الثانية ، وأرسلت قواتها لاحتلال بلاد النرويج الآمنة،غير حافلة بحيادها الذى كانت تضمنه القوانين الدولية. ولن تتمالك نفسك من ان تتمثل بورسعيد الباسلة ، وانت تقرأ قصة البلدة النرويجية الصغيرة التى اتخذها «شتاينبيك» مسرحا لوقائع قصته .. البـلدة الآمنة التى احتلها جنود المظلات النازيون غدرا ، فاذا بشعبها المسالم يقض مضاجعهم ، واذا الشعب الأعزل يصبح مصدر فزع وذعر للغزاة المسلحين، واذا القوم المغلوبون يصبحون هم المنتصرين !

ومن سخريات القدر ان النرويج فى كفاحها النبيل ، كانت تتطلع الى انجلترا كملجأ للحرية .. بل ان ابطال حركة المقاومة النرويجية كانوا يتطلعون الى انجلترا كما لو كانت الزعيمة التى تحمل لواء الدفاع عن الحرية .. ولكن القدر شاء قبل ان تنقضى أربع عشرة سنة على كفاح النرويج ، ان يكشف حقيقة

انجلترا للعالم بأسره ، فاذا ((بطلة الحرية)) تنضو ثوب البطولة الزائف عنها ، وتتنكر لكل المبادىء التى أجادت أجهزة دعايتها تزييفها ، لتبدو على حقيقتها .. ذئبا كاسرا ، لا يعبأ بشرف ، ولا مبادىء ، ولا مثل عليا ، ولا قوانين دولية ، فى سبيل اشباع نهمه الاستعمارى البشع !

* * *

هذه المفارقة العجيبة ، أو هذا التناقض العجيب بين انجلترا فى ثوب البطولة الذى تنكرت فيه أيام الحرب العالمية الثانية لتثير العالم ضد النازية ـ حماية لأمنها وسلامتها ، وليس دفاعا عن الحرية ! ـ وبين انجلترا كما تجلت على حقيقتها للعالم فى العدوان الوحشى الآثم على بورسعيد .. هذا التناقض الصارخ كان من أهم العوامل التى شجعتنى على ان أقدم لك هذه القصة

وثمة عامل ثان ، هو اننى لم أتمالك نفسى من الاستسلام للزهو والفخر ، وأنا أقرأ قصص مقاومة الشعب النرويجى للغزاة المعتدين ـ وقد صورها شتاينبيك نقلا عن أكثر المصادر دراية بها ، كما ستقرأ فى المقدمة التى تلى هـذه السطور ـ فأجد صور هذه المقاومة ، على نبلها وبسالتها ، تبدو باهتة ازاء البطولة الفذة التى تجلت فى حركة المقاومة الشعبية فى بورسعيد الخالدة !

بقى عامل ثالث .. ذلك هو الاعجاب بشتاينبيك نفسه . فان شتاينبيك فى كفاحه من أجل النجاح ، ضرب أمثلة خليق بكل كاتب أن يتدبرها ، ليرى كيف تتغلب الأمانة للرسالة على كل بريق للمادة ! .. ولـكننى لن أزيد ، لاترك لك مجال الحكم بنفسك !

وتقبل تحياتى ..

حلمى مراد

جون شتاينبيك

الكاتب الذى كان يخشى الشهرة خشيته للموت !



« **لعل** الاقدار كانت تريد لجون شتاينبيك أن يصبح قصصيا ، منذ مولده فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢ . فقد ولد فى بلدة (سالييناس) بولاية كاليفورنيا فى أمريكا ، وهى بلدة صغيرة فى مقاطعة (مونتيرى) ، احدى المقاطعات الامريكية التى لاتزال تعيش فى فطرة البداوة الى حد بعيد .. فلاتزال نفوس أهلها صافية ، وقلوبهم عامرة بالطيبة ، وعقولهم ساذجة الى الحد الذى يجعلهم يعشقون رواية القصص أو الانصات اليها ، حول النار التى يسمرون حولها فى التلال ..

ولقد ولد « جون » لاب ألمانى الاصل ، وأم ايرلندية الاصل .. **فاذا علمت أنه كتب هذه الرواية « غروب القمر » ـ أو « الثأر للوطن » كما آثرنا أن نسميها ـ كمساهمة فى مقاومة العدوان النازى على شعوب أوربا ، وشعب النرويج بالذات ، خلال الحرب العالمية الثانية ، فلا تعجب لتنكره للاصل الذى انحدر منه ، اذ أن الحرية التى رضعها مع لبان أمه الايرلندية ـ سليلة الشعب الثائر المجاهد ـ كانت أقوى من النعرة العنصرية !**

ولقد كان والد شتاينبيك هو المسئول عن الشئون المالية

فى مقاطعة (مونتيرى) ، اذ كان مدير الادارة المالية فى حكومة المقاطعة .. أما أمه ، فكانت معلمة ، ولعلها صاحبة الفضل فى شغفه بالقراءة والكتابة . على انه لم يكتب بوحى من دروس أمه فحسب ، وانما استمد الهامه من دراسته للناس ونفوسهم ، ومن اختلاطه الحقيقى العملى ، بالحياة ذاتها وتفاعله معها . فقد اعتاد أثناء دراسته الثانوية ان يقوم ببعض الاعمال المؤقتة فى المزارع .. فعمل مساعدا لنجار ، وصبيا لنقاش ، وعاملا فى المصانع .. كما دفعه حبه للعلوم الى أن يعمل مساعدا فى بعض المعامل الكيميائية ..

الخفير الذى انصرف الى تأليف الروايات !

• ثم التحق بجامعة « ستانفورد » فى سنة ١٩١٩ ، ولكنه شغف أثناء دراسته الجامعية بالتجوال فى المراعى ومزارع تربية المواشى ، فكان لايحضر سوى الدروس التى تروق له ، ثم يهيم فى تلك المزارع ، ويقضى أوقاتا بين أهلها . ومالبث أن ترك الجامعة فى سنة ١٩٢٥ ، دون أن يظفر بدرجة جامعية . ومنذ ذلك الحين ، أصبح همه فى الحياة التجوال والكتابة .. فرحل الى الولايات الشرقية من أمريكا على احدى سفن البضائع ، حتى اذا بلغ (نيويورك) ، آثر الاستقرار فيها ..

وكان لابد له من مورد يتعيش منه فى (نيويورك) .. المدينة الكبيرة التى لم يكن له فيها معارف أو أصدقاء .. ومن ثم عمل كمخبر صحفى فترة ، ولكنه مالبث أن فقد عمله ، فلم يتورع أو يخجل من ممارسة بعض الاعمال التى تبدو تافهة فى نظر أى شخص حظى بقسط من الدراسات الجامعية ، حتى لقد مارس حرفة البناء ، واشتغل مع البنائين فترة من الزمن ! .. ومالبث بعد عامين أن عاد الى ولاية كاليفورنيا ، فاستؤجر لحراسة بيت فى منطقة (هاى سييراس) الجبلية !

والظاهر ان مركزه كخفير أتاح له فسحة من الوقت ، وجوا

من الاستقرار . ففي أثناء عمله فى الحراسة ، وضع أولى رواياته ، وهى التى نشرت فى سنة ١٩٢٩ ، تحت اسم «الكأس الذهبية» .. ومن عجب ، أن أحد الناشرين عرض عليه بعد سبع سنوات – وبعد أن ذاع اسمه – ان يعيد طبع هذه الرواية ، فكتب الى « ميكنتوش » و « أوتيس » اللذين صارا وكيلى أعماله ، يتصلان بالناشرين ويشرفان على مصالحه .. كتب اليهما يقول : « لست أشعر بفخر جم بهذه الرواية ، وقد كنت أوثر لو أنها لم تنشر قط .. أما وقد نشرت بالفعل ، فلا سبيل الى حجبها .. ولا بأس اذن من اعادة نشرها » !

ثمن القهوة .. من الجريمة !

• وهذه ناحية فى شخصية « شتاينبيك » قد لاتجدها لدى كثيرين من الادباء والمؤلفين .. وأعنى عزوفه عن نشر ما لايرتاح اليه من انتاجه ، مهما تكن حاجته الى المال ، ومهما يكن اغراء وكيليه والناشرين الذين يطمئنون الى اقبال القراء على أى كتاب يحمل اسمه !

ومن نوادره فى هذا الصدد ، انه وضع حوالى سنة ١٩٣٢ رواية بعنوان « اللحن الاخرس » . وبينما كان وكيلاه يعرضانها على الناشرين ، خطر له أن يعيد قراءتها ، فما ان فعل ، حتى كتب اليهما يرجوهما ان يرداها اليه ، قائلا : « اننى أشعر بخجل اذ كتبت شيئا كهذا ! » . وكان قد حاول فى تلك الاثناء أن يتمشى مع التيار الذى جرف دنيا القصة فى أمريكا منذ العقد الثالث من القرن الحالى ، فكتب قصة من قصص الجريمة ، ودفعها الى وكيليه .. **فلما سحب «اللحن الاخرس» كتب اليهما فى الخطاب ذاته يقول : « ان الجريمة قد تصلح لو انها اختصرت قليلا . ولو انها درت مبلغا ضئيلا من المال ، لكان هذا أفضل من حزمة الورق التى تضمنتها .. انه قد يساعد على دفع ثمن القهوة التى احتسيها ! » .. وفى**

الخطاب ذاته أيضا ، كتب يقول : « لقد اقترب موعد دفع أجرة المنزل ، وسنضطر الى مغادرته عاجلا .. الى حيث لا أدرى!»

عميل غير مربح لناشريه !

• **على انه** اذا اقتنع بوجاهة احدى الافكار التى يبنى عليها رواياته ، لاينثنى عنها حتى يجعل منها رواية ناجحة . وقد حدث — فى نفس الفترة التى ذكرناها — ان كتب رواية بعنوان « الاله المجهول » ، ودفع بها الى وكيليه ، وكانا فى بداية علاقاتهما به ، ولم يوفقا بعد فى بيع شىء من انتاجه للناشرين .. وعرض الوكيلان الرواية على عدد من دور النشر فأجمعت على رفضها ، ومن ثم كتبا الى « شتاينبيك » يعربان عن أسفهما ، فرد عليهما قائلا : **« ان ما ذكرتماه عن فشل الكتاب فى الظفر بناشر ليس بالنبأ البغيض أو المؤلم .. بل انني سأعيد كتابة الرواية من جديد ، وسنرى ما اذا كان اعتقادى فى روعة الوقائع والحوادث يتمشى مع آراء النقاد والناشرين .. على انني لن أبذل أى جهد للاتصال بالصحفيين للترويج للقصة .. فشكرا لنصيحتكما .. ولكنني عميل غير مربح »** !

ولكن الحظ متقلب مع الزمن .. فبعد ست سنوات ، وكان اسم شتاينبيك قد بدأ يشتهر ، كانت هذه الرواية — بعد أن أدخل عليها بعض التنقيحات والتعديلات التى ساعدت على نشرها تحت اسم « نحو اله غير معروف » — سببا فى علو صيته ، ورواج مؤلفاته ، وزيادة دخله .. كذلك !

تجديد .. فى فن الرواية

• **على أن** بداية المجد لشتاينبيك — ككاتب روائى — اقترنت برواية « مراعى السماء » ، التى حاول الكاتب أن يصور فيها الحياة فى واد كانت ترفرف عليه السعادة بأجلى آياتها ، وكان الوئام يسود الأسرات العشرين التى كانت تعمره .. **ذلك هو**

وادى « باستوراس ديل سبيلو » ، أى مراعى السماء .. نفس الاسم الذى أطلقه على الرواية ! وترجع قيمة هــذه الرواية بالنسبة لمجد « شتاينبيك » الى أنه اتبع فيها طريقة مبتكرة لم يألفها الروائيون .. **اذ جعل الكتاب عبارة عن مجموعة من القصص المستقلة ، تصلح كل منها لان تكون قصة قصيرة كاملة ، ولكنها ترتبط بعضها ببعض بوحــدة الشخصـيات ، والوسط الذى تدور فيه الحوادث .. وتتوالى فى ترتيب يجعل بعضها استئنافا لبعض ــ رغم استقلالها ــ حتى تصل أحداث الرواية الى أوجها !** .. ولعل الحافز الذى شجع شتاينبيك على الاتجاه الى هذه الطريقة ، هو انه لم يعتد أن يرسم مقدما فكرة معينة لقصته وهيكلا يتشبث بهما فى علاج الحوادث ، وفى التقيد بأسلوب معين أو بطريقة معينة للعرض ، كمــا تفعل الغالبية العظمى من الروائيين والقصصيين !

وما أن ظهرت « مراعى السماء » ــ فى سنة ١٩٣٢ ــ حتى قوبلت بحرارة وتشجيع من النقاد ، وان لم يكن رواجهــا عظيما .. والى هذا التشجيع وتلك الحرارة ، يرجع الفضل فى وصول شتاينبيك الى أولى درجات المجد ..

ينزعج من الشهرة .. الى درجة الموت !

• **ولكنه** لم يرق السلم درجة فدرجة ، اذ استطاع بروايته التالية « كورتيلا فلات » ــ أو هضبة تورتيلا ــ أن يطفر طفرة واسعة . وقد اتبع فيها عين الطريقة المبتكرة السابقة .. طريقة تكوين الرواية من عدة قصص قصيرة . ولعل هــذه الطريقة هى السر فى انك لا تجد لهذا الكاتب كثيرا من القصص القصيرة القائمة بذاتها ، فهو يشبع ميله الى القصص القصيرة بكتابتها على شكل حلقات فى رواية طويــلة ! .. وممــا زاد « تورتيلا فلات » روعة ، انه مزج فيها الفكاهة بالمأساة ، والجد بالهزل ، فى براعة نمت عن نبوغ !

والواقع أن النبوغ فى شتاينبيك غريزة فطرية كان يكشف عنها شيئا فشيئا فى اجتهاده ودأبه وممارسته للكتابة .. ومن ثم فقد كان انتاجه ـ لاتقريظ النقاد ـ هو الذى أظهرعبقريته ودعم مكانته فى عالم الادب الامريكى الحديث !

وعندما نشرت « تورتيلا فلات » ـ فى سنة ١٩٣٥ ـ استقبلت استقبالا مشجعا ، حتى ليمكن اعتبارها أول رواج فعلى لشتاينبيك ، أو بالاحرى أول انتاج أذاع اسمه لدى جمهور القراء عامة فى بلاده ، بعد أن كانت شهرته مقتصرة فى باكورتها على طبقة أو طبقات معينة من القراء

والعجيب فى الامر ، أن الكاتب نفسه لم يرض عن هذه الرواية رضاءه عما سبقها ، حتى لقد كان يعتبرها « انتاجا من الدرجة الثانية » ، وكتب لوكيليه يبدى عجبه من النجاح الذى لقيته ، قائلا : **« من العجيب أن هذا الكتاب الذى أعتبره من الدرجة الثانية ، والذى كتبته لمجرد الترويح عن النفس ، قد أثار كل هذه الضجة ! »**

والاعجب من هذا ، أن النجاح أخافه وأقلقه . فقد مضى يقول فى ذلك الخطاب : **« اننى منزعج ـ الى درجة الموت ـ من الشهرة .. فقد أفسدت على كل انسان عرفته ! »** .. وعندما طلبت اليه دار النشر ـ التى تولت نشر الكتاب ـ صورة له تستغلها فى الاعلان ، كتب يقول : « قط لم تلتقط لى صورة .. ولست أزعم أن هذا راجع الى طبع متأصل فى نفسى ،أوالى تعمد .. كل ماهنالك اننى لا أومن بالمزج بين الشخصية والعمل .. ولعل هذا المزج عادة مألوفة ، ولكننى أحب أن أخرج على هذه العادة .. فانى أخال ان الجمهور يضيق بالتفصيلات التى تنشر عن الكاتب ! »

يكره الاعلان عن شخصيته !

• وسواء أكان شتاينبيك مخطئا أو كان مصيبا فيما خاله

من ضيق القراء بما ينشر عن الكاتب ، الا أن هذا الظن اتخذ عنده شكل اليقين ، فظل أمينا له ، لا يخرج عنه . وعندما نال أول تكريم أدبى شبه رسمى ، حين اختار « نادى كتاب الشهر » — وهو من أكبر الهيئات الادبية فى أمريكا — كتابه « فئران ورجال » ، الذى نشر فى سنة ١٩٣٧ ، سئل أن يوافى النادى بشىء عن تاريخ حياته وشخصيته ، فكتب لوكيليه يقول: **« لعلكما تعرفان مدى بغضى للمادة التى تنشر عن شخصى ، فأرجو أن تنقلا عنى هذا .. والواقع اننى أوثر من المسئول عن النشر ان يقصر حديثه على الكتاب ذاته .. وجلية الامر ، اننى لا يمكن أن أفلح فى تأليف الكتب اذا فرض على أن أعتد بنفسى وأفكر فيها »**

وكانت الفكرة التى تشبث بها هى أنه لن يرضى عن نفسه، الا اذا استطاع أن يطمئن الى أن الجمهور عرفه من انتاجه ، وليس مما يكتب أو يذاع عنه ! .. والواقع أنه كان مصيبا فى رأيه هذا .. فان الكاتب الذى يصبح شخصية عامة ، يفقد الكثير من مسلكه العادى ، اذ أن الخوض فى سيرته وحياته لايلبث أن يوحى اليه بأنه على غير شاكلة الناس الذين يقرأون له . ومن ثم يتباعد شيئا فشيئا عن قرائه ، اعتدادا منه بأنه من « المؤلفين ! » .. وهذا ماحرص شتاينبيك — ولا يزال الى اليوم يحرص — على تفاديه !

ومع ذلك ، فان رواج مؤلفاته لم يلبث أن غير من معالم حياته بالفعل ، اذ تحسنت أحواله المادية ، حتى انه كتب لوكيليه — اللذين صارا أقرب الاصدقاء اليه — يقول : « لشد ما صارت الحياة جميلة منذ أن ابتعت مدفأة تشعل بالكيروسين لغرفة مكتبى .. لقد تغيرت نظرتى الى كل شىء تغيرا شاملا .. الا ما أبدع اليدين الدافئتين !»

آراء أبطاله ليست من تعاليم « الصالونات » !

• **على أن رواية « تورتيلا فلات » لم تكن أول رواج لانتاج**

شتاينبيك فى ميدان النشر فحسب ، بل انها كانت كذلك أول اتصال بينه وبين (هوليوود) وميدان السينما ، اذ ابتيع منه حق اخراجها على الستار الفضى .. وكانت هـذه من أكبر المفاجآت فى حياته .. فقد كان ، كما وصف نفسه ، لايذهب الى دار السينما سوى مرة فى العام عادة !

ولقد أثارت رواية « المعركة المشكوك فيها » ـ التى نشرت فى سنة ١٩٣٧ ـ كثيرا من المتاعب قبل أن تخرج الى واجهات المكتبات .. فقد كانت ـ كما وصفها شتاينبيك أثناء انهماكه فى تأليفها ـ **« كتابا قاسيا ، لانه خال من أية فكرة أو موعظة أخلاقية .. وقد يبدو الحوار بين العمال ـ فى سياقه ـ مما يخدش الآذان فى النوادى النسائية الراقية ، ولكن هذا ليس بالمهم ، اذ إن النساء لن يصدقن أن مثل هذا الحوار يجرى فى الواقع .. ولكننى خبير بهذا الاسلوب ، وقد مللت أن أجرد العمال من أسلوبهم الطبيعى لاجعلهم يتكلمون بأسلوب براق !»**

وعندما أبدى الناشر شكه من أن يكون فى الكتاب مايؤخذ على انه آراء شيوعية ، أجاب شتاينبيك قائلا ان ماتضمنه الكتاب انما أخذ عن العمال الايطاليين والايرلنديين ، الذين اكتسبوا آراءهم من واقع الحياة والعمل .. **فاذا كانت هـذه شيوعية ، فهى شيوعية من صميم الحياة . وليست تعاليم تلقن فى الصـالونات .. « انهم لايؤمنون بالمـذاهب والآراء والاساليب المثالية ، لانهم انما يفعلون ماتدفعهم اليه الظروف التى يعيشون فيها ! »** .. وكان أشد ما آلمه بعد نشرها ، ان النقاد تناولوها من الناحية السياسية لا الادبية .. فقد ساءه ان لايفطن النقاد الى القيمة الروائية للكتاب ، وهى التى يعتز بها الكاتب !

النرويج .. مسرح « الثأر للوطن » !

• **وأتاح** نجاح كتاب « فئران ورجال » لشتاينبيك فرصة

القيام بأول رحلة له الى أوربا ، وكان مشوقا لزيارة الدول السكندنافية ، اذ كانت لغاتها هى اللغات الاجنبية التى ترجم اليها انتاجه لاول مرة .

على أن قلبه لم يعلق بأى من الدول السكندنافية بقدر ما علق بـ (النرويج) ، التى جعلها ـ بعد خمس سنوات ـ مسرحا لاولى القصص التى نقدمها لك فى هذا العدد من «مطبوعات كتابى » .. وهى قصة « غروب القمر » أو « الثأر للوطن » ..

وبينما كان كتابه الجديد ـ «الفرس الاحمر » ـ تحت الطبع ، ترك شتاينبيك وزوجته الدول السكندنافية الى روسيا ، ولكنهما لم يقضيا فيها المدة التى كانا يرجوانها ، بل بادرا بالعودة قبل الموعد المحدد الى أمريكا ، حيث شرع الكاتب فى اعداد مادة كتاب جديد ، نشر فيما بعد باسم « كروم السخط » .. فلقد عاش شتاينبيك فى المزارع والمراعى أمدا طويلا منذ صباه ، فعرف الفاقة التى كان يعيش فيها أبناء الوديان القابعة بين الجبال فى كاليفورنيا ، ولمس مرارة عيشهم ، وكتب الى وكيليه يقول : « لابد لى من أن أسعى الى الوديان الداخلية ، فهناك خمسة آلاف أسرة تتضور جوعا ، الى درجة الموت .. وان الحكومة لتحاول أن تعينهم بالاطعمة والخدمات الطبية ، ولكن الهيئات الاستغلالية الفاشية والمصارف وكبار ملاك الاراضى الزراعية ، يحاربون هذه الجهود .. أفتعلمان ما الذى يخيفهم ؟ .. **انهم يرون انه اذا أتيح لهؤلاء الناس أن يعيشوا فى معسكرات تتوفر فيها كافة الضرورات الصحية ، فانهم لن يلبثوا أن ينتظموا .. وهذا هو الشيء الذى يقض مضاجع كبار ملاك الاراضى والشركات الزراعية ! .. لسوف أبذل قصارى جهدى من أجلهم .. الا ما أقل الكتب التى تواجه مثل هذه المآسى المفجعة ! »**

وقام بجولته ، وبذل قصارى جهده كما وعد ، حتى اذا عاد الى داره ، عكف على تأليف أقوى كتاب وضعه حتى ذلك

الحين .. وهو « كروم السخط » ، الذى نشر فى سنة ١٩٣٩!

ينقد نفسه وانتاجه بمرارة !

• **ولكن** ، ما أعجب الاحداث التى مرت منذ بدأ شتاينبيك أول سطر فى هذا الكتاب ، وبين اليوم الذى نشر فيه الكتاب ! .. فبعد أن فرغ من الكتاب ، كتب لوكيليه يقول: « انه كتاب ردىء ، ولابد من أن أتخلص منه .. فلا سبيل الى طبعه .. وترجع رداءته الى أنه ليس أمينا ! .. حقيقة ان الوقائع التى تضمنها حدثت كلها ، ولكن .. ولكنى لم أورد من الحقيقة عنها بقدر ما أعرف ، !»

ويمضى شتاينبيك فى الخطاب قائلا : « لقد وضعت حتى الآن ثلاثة كتب غير أمينة ، لانها أقل من قصارى جهدى . وأحد هذه الكتب لم ترياه ، لاننى أحرقته فى اليوم الذى فرغت فيه منه . أما الثانى فهو قصة الجريمة .. وهذا هو الثالث . ولقد انسقت الى كتابة الاول والثانى لدفع ضيق مالى شديد ، أما هذا الكتاب فانسقت فى كتابته الى التزام شعرت به ! .. اننى أعرف أنكما قد تبيعان من هذا الكتاب ٣٠٫٠٠٠ نسخة ، وأعرف أن عددا كبيرا جدا من الناس قد يخالون — بعد قراءة هذا الكتاب — انهم أحبوه .. ولقد ناقشت نفسى كثيرا ، ولكنى لا أحب الكتاب ! .. ولسوف يتأتى عن طبعه ضرر يفوق الضرر الذى ينجم عن اعدامه .. **فأنا لم أشعر قط أثناء كتابته بتلك المتعة الدافئة العجيبة التى تعترى المرء عندما يكون العمل سائرا على مايرام . لقد كان حافزى على العمل منذ البداية هو حمل الناس على أن يفهم كل منهم الآخر ، فاذا بى أنزلق فى وضع هذا الكتاب الى حمل الناس على أن يكره كل منهم الآخر ، عن طريق التفاهم الناقص !** .. ومالم أستطع أن أكتب أفضل من هذا ، فانى أكون قد انحدرت بدرجة كبيرة!

.. ان الكتاب يجب أن يكون حياة تعيش أمدها بأكمله .. وهذا الكتاب لايفعل ذلك ! »

ثم يضرب شتاينبيك المثل للكتاب الذين يقفون حائرين بين المادة والامانة الادبية ، فيقول : **« اننى أكافح الفقر سنوات طويلة عديدة ، ولكننى أكون ملعونا اذا هبطت عن مستواى عند أول هبة من رياح النجاح ! .. ان الهبوط عن المستوى شبيه بالاقدام على السرقة للمرة الاولى ، فهو عسير محفوف بالمشقة ، ولكنه فى المرة الثانية أقل عناء ، ثم لايلبث أن يغدو سهلا بعد قليل .. ان هذا الكتاب تجربة فى الخداع .. والخداع فى كتاب هو الغش والخيانة ! »**

ويختتم خطابه قائلا : « أعتقد أن هذا الكتاب سيكون درسا نافعا لى .. فأنا الآن فى خطر من أن أصدق الدعاية التى تدور حولى .. اننى أدرى الناس بكتابى ! »

« كروم السخط » .. حدث بارز فى تاريخ النشر !

• وبدلا من أن يصدر « كروم السخط » ، نشر بدلا منه – فى سنة ١٩٣٨ – أول كتاب تضمن قصصا قصيرة ، غير مترابطة ، فى مجموعة واحدة !

وعكف شتاينبيك على « كروم السخط » يعيد كتابتها من جديد ، فأرهق نفسه كل الارهاق ، وكان خليقا بالنجاح الذى ظفر به .. **فقد أثارت الرواية ضجة هائلة فى الولايات المتحدة ، تحسنت على أثرها أحوال سكان الخيام فى وديان كاليفورنيا ! .. بل لقد اعتبر هذا الكتاب من الاحداث البارزة فى تاريخ النشر فى أمريكا •** ولكنه خلف شتاينبيك منهوك القوى ، معلولا ، فلم يسترد قواه ونشاطه الا بعد شهور عديدة .. ولم يستطع أن يجرى على مألوف عادته ، فيبدأ كتابا جديدا قبل ظهور آخر كتاب فرغ منه !

وثمة انقلاب آخر أحدثه هذا الكتاب فى حياة شتاينبيك

.. فلقد دفعه الى تيار الشهرة على الرغم منه ، حتى لقد كتب يقول عن متاعبه : « لقد أصبحت فى شغل بشهرتى ككاتب، حتى اننى لم أعد أجد وقتا للكتابة .. وكأنما طرح عشرة آلاف شخص كل أعمالهم وشئونهم ، لكى ينصرفوا الى حملى على الكلام . وقد أخذ خوفى من الوجود بين جماعات من الناس يزداد الى درجة اننى أصبحت ارتبك اذا تحدثت الى أكثر من واحد ! »

وفى تلك الاثناء ، كانت الحرب تخيم على سماء شتاينبيك ، كما كانت تخيم على سماء العالم . وهكذا تضافرت العوامل على تعطيله عن الانتاج . وحاول فى البداية أن يقاوم ، ففر الى المكسيك .. اذ نمى اليه أن عالما يدعى « ادوارد ريكتيس » أعد رحلةالى هناك للدراسة وجمع المعلومات، فشاطره الرحلة وعاد من المكسيك بمادة لكتابين .. أولهما « القرية المنسية » ، الذى نشر فى سنة ١٩٤١ ، والذى اتخذته السينما المكسيكية مادة لاحد أفلامها الناجحة .. أما الكتاب الآخر ، فكان لونا جديدا من الانتاج .. كان مادة علمية ـ عن دراسات بيولوجية تدور حول الكائنات الحية فى المكسيك ـ صاغها فى قالب قصصى مستساغ .. وقد نشر هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٢

العدوان النازى .. أساس فكرة « الثأر للوطن » !

• **واتسع** نطاق الحرب ، حتى انزلقت الولايات المتحدة الى المعمعة . وعرض شتاينبيك جهوده ومواهبه على الحكومة ، فاستعانت به كثير من المصالح والهيئات الحكومية ، ولكنه صدم حين تبين الهوة الواسعة التى تفصل بين الحماس القومى والروتين الحكومى

على انه انتهز هذه الفرصة لكى يسجل كراهيته للعدوان، وانتصاره للحرية .. ولكى يواسى النرويج ـ التى أحبها منذ زارها فى سنة ١٩٣٧ ـ فقد قدر له أثناء عمله فى ادارة

«الخدمات الستراتيجية» ان يصاحب أحد الضباط المتخصصين فى فنون مساعدة حركات المقاومة فى الدول الاوروبية التى احتلها النازيون .. **ومن الاحاديث الجدية التى دارت بينه وبين هذا الضابط ، استطاع أن يكون فكرة قصة «غروب القمر» ، حتى اذا تبلورت فى ذهنه ، وتجمعت لديه البيانات الكافية عن حركات المقاومة وأساليبها ، عكف على كتابة هذه الرواية ، فاذا بها تلقى نجاحا مدويا ، عندما نشرها فى سنة ١٩٤٢ .** وقد شجعه هذا النجاح على أن يقتبس من الرواية نفسها مسرحية من جزئين - بنفس الاسم - ظهرت فى العام ذاته !

ومع أن خمسة عشر عاما انقضت على نشر هذه الرواية لاول مرة ، الا انها تعتبر من أروع وأدق ماكتب عن المقاومة السرية للعدوان والاحتلال الاجنبى ، حتى اليوم . وقد ترجمت أثناء الحرب العالمية الثانية الى عدة لغات ، مما أكسبها شهرة عالمية

الساحر اللطيف .. الخشن !

• **كذلك** خرج شتاينبيك من أحاديثه مع أحد قادة السلاح الجوى الامريكى بفكرة كتاب يدور حول تدريبات وأعمال السلاح الجوى ، اسماه « قنابل الى الخارج » . على أن من المغالطة أن يدرج هذا الكتاب فى قائمة الانتاج الادبى لشتاينبيك ، لانه فى الواقع لم يكن مادة أدبية بالمعنى الصحيح ، ولا كان نابعا عن تفاعلات صادقة ، **وانما .. كان نوعا من « المقاولة » عهد به السلاح الجوى الامريكى لشتاينبيك ، فسخر قلمه وفكره فى انجاز هذه « المقاولة » .. أو بمعنى أصح ، كانت مهمة كلف بها رسميا ، فأداها اظهارا لشعوره القومى !**

على انه خاض تجربة أخرى أثناء الحرب ، اذ أتيح له فى سنة ١٩٤٣ أن يرحل الى أوربا مع بعثة أمريكية ، فقام بمهمة

المراسل الحربى لصحيفة « الهيرالد تريبيون » فى انجلترا وحوض البحر الابيض المتوسط

وفى غمرة هذا النشاط الحربى ، راوده الحنين الى الادب ، والى تأليف الروايات .. واتجه حنينه بوجه خاص الى جو وأسلوب وطريقة « تورتيلا فلات » التى ألفها قبل ذلك بعشر سنوات ، فأخذ ينساق لهذا الحنين فى صمت ، ثم فاجأ وكيليه فى سنة ١٩٤٤ برواية « كنارى رو » .. كما كتب « لؤلؤة العالم » للسينما المكسيكية التى أخرجتها فى فيلم فى سنة ١٩٤٥ . وقد حاول شتاينبيك ان يحذو فى « اللؤلؤة » حذو الادب الشعبى التقليدى . على أنه خرج من هذه التجربة بعزم وثيق على أن لايكتب للسينما بعد ذلك !

ولقد تتابعت مؤلفات شتاينبيك بعد ذلك ، ولكنهاليست بالوفرة التى تدفق بها انتاجه فى المرحلة التى فصلناها هنا .. .. كما أنها ليست من الاهمية بمثل تلك المؤلفات الاولى ، لا لانها أقل منهاقيمة – من الناحية الادبية – وانما لان هذه المؤلفات الاولى كانت الدعامات الاساسية فى مجد شتاينبيك .. كانت الانتاج الذى جعل النقاد يصفونه بأنه : **« نابغة ساحر فى رواية القصص .. يجمع بين العنف والعاطفة ، وبين اللطف والخشونة ، وبين الازعاج والجمال »** .. فهو يجيد وصف كل لون ، ويمزج الالوان بعضها ببعض فى قصصه ببراعة عبقرية !

الثأر للوطن

للكاتب العالمي "جون شتاينبك"



THE MOON IS DOWN

الفصل الاول

• **ما** أن حلت الساعة الحادية عشرة الا الربع حتى كان كل شيء قد انتهى . فقد تم احتلال البلدة ، ومنى المدافعون عنها بالهزيمة ، ووضعت الحرب أوزارها ، اذ كان الغازى قد أعد العدة لهذه الحملة بنفس العناية التى كان يبذلها للحملات الاكبر منها !

وكان موزع البريد والشرطى قد خرجا لصيد السمك ـ فى صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد ـ فى قارب المستر «كوريل» ، اذ كان صاحب المتجر المشهور قد أعارهما هذا القارب الانيق ذا الشراع ليقضيا فيه يومهما . وما أن توغل موزع البريد والشرطى بضعة أميال فى عرض البحر ، حتى شاهدا ناقلة الجنود الصغيرة ، الداكنة اللون ، تمر بهما فى هدوء .. ولم يكن ثمة شك فى أن هذا الامر يعنيهما بوصفهما من موظفى المدينة ، فبادرا الى العودة . **وما أن وصلا الى الميناء ، حتى كانت الكتيبة قد استولت على البلدة فى الواقع ، الى حد أن موزع البريد والشرطى لم يستطعا دخول مكتبيهما فى مبنى البلدية ، ولما أصرا على أن هذا من حقهما ، أخذا كأسيرى حرب ، وألقى بهما فى سجن البلدة !**

وكان الجنود المحليون الاثنا عشر غائبين جميعا فى صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد ، اذ أن المستر كوريل ، صاحب المتجر المشهور ، كان قد قدم الغداء ، و « الاهداف » ، والخراطيش ، والجوائز ، هدية منه فى مسابقة للرماية أقيمت فى مرج جميل كان يمتلكه بين الجبال ، على مسيرة ستة أميال من

البلدة . وكان الجنود المحليون من الشبان ذوى العزائم المتراخية! ومع انهم أسرعوا فى خطى حثيثة ، عائدين الى البلدة ، بمجرد أن سمعوا أزيز الطائرات ، وشاهدوا على البعد هبوط جنود المظلات ، الا أنهم لم يصلوا حتى كان الغزاة قد نصبوا المدافع الرشاشة على جانبى الطريق . ولم يكن لهؤلاء الجنود سوى خبرة ضئيلة بالحروب ، كما أنهم لم يكونوا قد عرفوا الهزيمة من قبل ، فبدأوا باطلاق النار من بنادقهم ، وأجابتهم المدافع الرشاشة ، فان هى الا لحظة ، حتى سقط ستة منهم صرعى ، وأصيب ثلاثة منهم بجراح خطيرة جعلتهم أقرب الى الموت منهم الى الحياة ، ثم فر الثلاثة الباقون الى الجبال يحملون بنادقهم !

* * *

● وما أن حانت الساعة العاشرة والنصف حتى كانت فرقة الغزاة الموسيقية تعزف ألحانا عاطفية شجية فى ميدان البلدة ، بينما وقف أهلها مشدوهين ، وقد نطقت عيونهم بالدهشة ، وأخذوا ينصتون الى الموسيقى ويحدقون النظر فى الرجال ذوى الخوذات الرمادية الذين كانوا يحملون البنادق السريعة الطلقات .

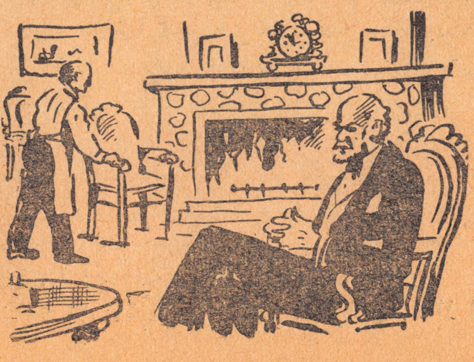
وفى الساعة العاشرة والدقيقة الثامنة والثلاثين ، كان الجنود الستة الذين سقطوا صرعى قد دفنوا ، وطويت المظلات ، واتخذت الكتيبة الغازية مقامها فى مستودع المستر كوريل بجانب رصيف الميناء ، وقد زودت رفوفه بالاسرة والبطاطين التى تكفى أفرادها .

وفى الساعة الحادية عشرة الا ربعا تلقى «أوردن» ــ العمدة المسن ــ طلبا رسميا ليسمح للكولونيل «لانسر» ، من فرقة الغزاة ، بمقابلته . وقد حددت المقابلة فى الساعة الحادية عشرة تماما بقصر العمدة ذى الخمس غرف .

وكانت غرفة الاستقبال فى القصر آية فى البهاء ، اذ اجتمعت

فيها كل أسباب الراحة ، وتناثرت مقاعدها المذهبة ــ المكسوة بأغطية (بياضات) بالية ــ فى غير ترتيب ، كأنها خدم يزيدون كثيراً عن حاجة العمل فى بيت ولا يجدون ما يفعلون !.. وكانت ثمة مدفأة مقوسة من الرخام اشتملت على موقد استعرت فيه نار هادئة لا تصعد لهبا ، وصورة رسمت باليد تمثل حامل الفحم ، وعلى رف المدفأة استقرت ساعة من الخزف المجعد ، تحيط بها آنيتان ضخمتان للزهور ، امتلأت جوانبهما برسوم لملائكة على وشك السقوط !.. وكان ورق الجدران أحمر داكنا ، وقد اشتمل على أشكال ذهبية ، بينما بدا الاطار الخشبى ــ الممتد فى أسفل الجدران ــ نظيفا بهيجا . أما الصور التى علقت الى الحائط ، فكان معظمها يمثل مناظر رائعة لبطولة الكلاب الكبيرة فى انقاذ أطفال حاق بهم الخطر . فما كان الماء ولا النار ولا الزلازل لتنال من أى طفل طالما كان الى جواره كلب كبير يحرسه !

وجلس الى جوار المدفأة الطبيب الشيخ «الدكتور وينتر» . وكان رجلا ملتحيا ، يتسم بسلامة الطوية ودماثة الخلق .. وكان مؤرخ البلدة ، الى جانب كونه طبيبها ، فكان يرقب ما حوله وقد أخذت منه الدهشة مأخذها ، وراح يدير ابهاميه ــ الواحد



حول الآخر – وهو يضع يديه فى حجره . وكان الدكتور وينتر بادى البساطة ، وان كان لايدرك عمق غوره سوى من أوتى ما أوتيه الطبيب الشيخ من بعـــد الفـور . . وما لبث أن رفع بصره الى « جوزيف » –خادم العمدة – ليرى ما اذا كان قد لاحظ ما كان يفعله من عجائب باللعب بابهاميه . ثم سأله : « هل بلغت الساعة الحادية عشرة ؟ »

فأجاب جوزيف وهو شارد الذهن : « أجل ياســيدى ، فقد حددت الرسالة الساعة الحادية عشرة »

– وهل قرأت الرسالة ؟

– كلا ياسيدى ، فقد قرأها لى صاحب السعادة !

وأخذ جوزيف يطوف بالمقاعد المذهبة ليرى ماذا كانت قد انتقلت من موضعها منـــذ رتبها لآخر مرة . وكان من عادة جوزيف أن يزجر الاثاث متهما بعض القطع بالتمرد ، أوبالفوضى ، أو بالقذارة اذا ماكانت متربة ! وفى العالم الذى يقود فيه العمدة « أوردن » الرجال ، كان جوزيف هو قـائد الاثاث والاوانى الفضية والصحاف . وكان رجلا متقدما فى السن ، نحيفـــا هزيلا ، تعلو محياه سيماء الجد ، وكانت حياته معقدة فى ظاهرها ، بسيطة فى جوهرها . . على أنه لم يكن يدرك بساطته هذه سوى رجل بعيد الغور

ولم ير « جوزيف » مايدعو الى العجب فيما كان يفعـــله الدكتور وينتر من ادارة ابهاميه ، بل الواقع أن هـــذه الحركة كانت مدعاة لاثارة أعصابه . . فقد أوحت اليه هذه الحركة بأن حدثا بالغ الشأن كان وشيك الحدوث ، وينبىء ببوادره وجود الجنود الاجانب فى البلدة ، وقتل بعض رجال الجيش المحلى

ووقوع بعض آخر منهم فى الاسر .. وكان لابد لجوزيف ــ ان عاجلا أو آجلا ــ من أن يستقر على رأى فيما يتصل بهذا كله!..
وما كان ليحب أن يوصف بالخفة والطيش ، ولا أن يلهو ويعبث بابهاميه ، ولا أن ينصت لهذه الثرثرة التى كان يخالها منبعثة من الاثاث !

* * *

• **وأزاح** الدكتور وينتر مقعده بضع بوصات عن مكانه المعين ، فانتظر جوزيف ــ على أحر من الجمر ــ اللحظة التى يستطيع أن يعيد فيها المقعد الى مكانه الاول !.. وما لبث الطبيب أن عاد يقول : « الساعة الحادية عشرة ، وسيأتون هم أيضا الى هنا . انهم لقوم أوتوا عقولا فى دقة الساعة ياجوزيف!»
وأجاب جوزيف دون أن ينصت : « أجل ياسيدى »
فكرر الطبيب قوله : « قوم لهم عقول فى دقة الساعة ! »
وقال جوزيف : « أجل يا سيدى »
فأردف الطبيب وكأنه ماض فى حديثه : « أجل ، فى دقة الساعة والآلات ! »
ــ أجل ياسيدى
ــ انهم يسرعون الخطى الى مصيرهم ، وكأن هذا المصير متعجل لا ينتظرهم . انهم ليدفعون عجلة الدنيا الدوارة بأكتافهم ، وكأنهم هم الذين يسيرونها !
وأجاب جوزيف قائلا : « أصبت تماما ياسيدى » . اذ كان قد بدأ يسأم قوله : « أجل ياسيدى » !
ولم يكن جوزيف ليوافق على هذا اللون من الحديث ، لانه لم يكن يساعده على أن يستقر على رأى فى شىء مما كان يدور حوله ! .. ولو أن جوزيف قال للطاهية فى أى وقت من بقية ذلك اليوم : « انهم لقوم أوتوا عقولا فى دقة الساعة ياآنى » ، لما استطاع أن يجعل لحديثه أى معنى ، لان آنى كانت خليقة

بأن تسأله : « من ؟ » ، ثم : « لماذا ؟ » ، حتى اذا عجز عن اجابتها قالت : « هذا هراء ياجوزيف » ! .. فلقد حاول جوزيف فى مناسبات سابقة أن ينقل ملاحظات الدكتور وينتر الى الطابق الاسفل ، فكانت النتيجة هى هى فى كل مرة ، اذ كانت آنى تكتشف دائما أن هذه الملاحظات هراء وهزرا !

ورفع الدكتور وينتر بصره عن ابهاميه وأخذ يراقب جوزيف وهو يرتب المقاعد ، ثم سأله قائلا : « ماذا يفعل العمدة ؟ »

ــ انه يرتدى ملابسه لاستقبال الكولونيل ياسيدى !

ــ دون أن تساعده ؟.. انه لا يحسن ارتداء ملابسه اذا ترك وشأنه !

ــ بل ان سيدتى تساعده ، فهى تريد أن يظهر فى أحسن مظهر له !

ثم أردف يقول وقد كست حمرة الخجل خديه قليلا : **« انها تقص الشعر الذى يظهر فى داخل أذنيه ياسيدى .. فانه يشعر بدغدغة من لمس المقص ، ولذلك لا يسمح لى سيدى بقصه ! »**

فأجاب الدكتور وينتر بقوله : « طبعا .. ان لمسات المقص تدغدغ ! »

واسترسل جوزيف يقول : « ان سيدتى تصر على أن تقص هى هذا الشعر »

وضحك الدكتور وينتر على حين بغتة ، ثم انتصب واقفا ومد يديه الى النار ، ودار جوزيف بمهارة حتى صار خلفه ، ثم أعاد المقعد الى المكان الذى يجب أن يوضع فيه !

وقال الدكتور وينتر : **« اننا لغاية فى العجب ، فان بلادنا على وشك السقوط ، وقد تم غزو بلدتنا ، والعمدة يتأهب لاستقبال الغازى ، ومع ذلك فان السيدة تمسك العمدة من عنقه وهو يناضلها ، لتقص له شعر أذنيه ! »**

وأجاب جوزيف قائلا : « لقد بدا شعره يتخذ سمة الشعر الكث الاشعث ، وكذلك حاجباه .. وان صاحب السعادة ليزعجه قص شعر حاجبيه أكثر مما يزعجه قص شعر أذنيه ، وهو يقول ان العملية تؤلمه ، ويخالجنى الشك فيما اذا كانت سيدتى مستطيعة أن تقص له شعر حاجبيه ! »

فقال الدكتور وينتر : « انها ستحاول »

ـ انها تريده أن يظهر فى أحسن مظهر ياسيدى !

* * *

• ولمحا اذ ذاك وجها ـ تعلوه خوذة ـ يحدق خلال الكوة الزجاجية التى تتوسط الباب الداخلى للدار ، ثم دوت على ذلك الباب طرقات ، فكأنما انساب من الغرفة شىء من الضوء الدافىء ، لتحل محله عتمة خفيفة ! وتطلع الدكتور وينتر الى الساعة ثم قال : « لقد جاءوا مبكرين .. افتح لهم الباب ياجوزيف ! »

وذهب جوزيف الى الباب وفتحه ، فدخل جندى يرتدى معطفا طويلا ، وقد وضع خوذة على رأسه ، وحمل بندقية سريعة الطلقات على كتفه . وألقى الجندى نظرة عاجلة فيما حوله ، ثم انتحى جانبا ليفسح الطريق لضابط كان يقف خلفه على عتبة الباب . وكان الضابط فى الزى العسكرى المألوف ، وليس ثمة ما ينم عن مرتبته سوى شارة على كتفيه

ودلف الضابط الى الداخل ، فنظر الى الدكتور وينتر .. وكان أشبه بصورة لسيد انجليزى ، بالغ الرسام فى رسمها .. اذ كان له وجه أحمر مترهل ، وأنف طويل ولكنه مقبول ، وقد بدا عليه أنه كان يضيق ذرعا بزيه ، شأنه فى هذا شأن معظم الضباط البريطانيين ! ومكث لحظة لدى الباب يحملق فى الدكتور وينتر ، ثم سأله قائلا : « هل أنت العمدة أوردن ياسيدي ؟ »

فابتسم الدكتور وينتر وأجاب قائلا : « كلا ، كلا ، لست أنا العمدة ! »

ــ أفأنت اذن من رجال الحكومة ؟

ــ كلا .. بل انني طبيب البلدة وصديق العمدة !

فسأله الضابط : « وأين العمدة أوردن ؟ »

ــ انه يرتدي ملابسه لاستقبالك . هل أنت الكولونيل ؟

ــ كلا .. بل أنا الكابتن بنتيك !

وانحنى ، فرد الدكتور وينتر تحيته بانحناءة خفيفة . واسترسل الكابتن بنتيك يقول ، وكأنه أحس بخجل مما كان لديه من حديث :

« ان أوامرنا العسكرية ياسيدي تقتضينا البحث عن الاسلحة في أية غرفة يوشك أن يدخلها القائد العام . ونحن لا نقصد بهذا اساءة أو امتهانا ياسيدي ! » . ثم نادى من فوق كتفه : « أيها الجاويش ! »

فهرع الجاويش الى جوزيف ، ومر بيديه فوق جيوبه ، وقال : « لا شيء ياسيدي »

ثم قال الكابتن بنتيك للدكتور وينتر : « أرجو أن لا تؤاخذنا ! » . واتجه الجاويش الى الدكتور وينتر فتحسس جيوبه ، وتوقفت يداه عند جيب السترة الداخلي ، وسرعان ما دس يده في الجيب وأخرج علبة صغيرة مسطحة من الجلد الاسود حملها الى الكابتن بنتيك . وفتح الكابتن بنتيك العلبة فوجدها تشتمل على بعض الادوات الطبية البسيطة : مشرطين ، وبعض الابر الجراحية ، وبعض المشابك ، وابرة لحقنة تحت الجلد ، فأغلق العلبة ثانية وردها الى الدكتور وينتر ، فقال هذا :

ــ انني طبيب أعمل في الريف كما ترى ، وقد اضطررت مرة الى استئصال الزائدة الدودية باستعمال سكين من سكاكين المطبخ ، ولذلك فانني أحرص منذ ذلك الحين على أن أحمل في جيبي هذه الادوات !

وسأله الكابتن بنتيك : « أعتقـــد أنه توجد هنـــا بعض الاسلحة ! » . وفتح دفترا مجلدا صغيرا كان يحمله فى جيبه ، فأجاب الدكتور وينتر قائلا : « انك لدقيق »

ــ أجل ، فان عميلنا المحلى قضى فى العمـــل هنـــا بعض الوقت !

وقال الدكتور وينتر : « ما أظنك ترضى بأن تخبرنى عمن يكون هذا الرجل ؟ »

وأجابه بنتيك قائلا : « بل انه أنجز مهمته تماما الآن ، ولا أحسب أن فى افشاء اسمه أى ضرر .. ان اسمه كوريل! »

فقال الدكتور وينتر وقد استبدت به الدهشة : **« جورج كوريل ؟.. ان هذا ليبدو مستحيلا ! فله أياد بيضاء على هذه البلدة ، بل انه منح بعض الجوائز لمسابقة فى الرماية فى الجبل هذا الصباح » . وما أن تفوه بهذه العبارة حتى بدا فى عينيه وميض نم عن أنه أدرك حقيقة ماحدث ، فانطبقت شـفتاه رويدا ولكنه ما لبث أن قال : « لقد فهمت ! .. لهذا ، اذن ، أقام مسابقة الرماية . أجل فهمت ! ولكن .. جورج كوريل بالذات ! .. ان هذا ليبدو مستحيلا ! »**

وفتح الباب الذى يقع الى اليسار ، فدخل العمدة «أوردن» . وكان يدس خنصره فى أذنه اليمنى ، وقد ارتدى سترته الرسمية ، وتدلت من عنقه قلادة العمودية .. وكان ذا شارب أبيض كبير انتفش فوق شفته العليا ، و « شاربين » أقل منه كثافة فوق عينيه ! وكان قد سوى شعره الابيض بالفرشاة منذ برهة وجيزة ، ولكن بعض شعيرات رأسه بدأت فى التحرر محاولة أن تنتصب !.. وكان قد قضى فى منصبه زمنا طويلا حتى أصبح فى نظر أهل البلدة رمزا للعمودية .. بل ان الكبار منهم كانوا لايتمالكون أن يتمثلوا شكل « العمدة أوردن » اذا ما وقعت أبصارهم على كلمة « عمدة » ! فقد كان هو ومنصبه شيئا واحدا .. اذ أكسبه المنصب الاحترام بينما أضفى هو

على المنصب الدفء والحرارة !

وظهرت ربة القصر خلف العمدة . وكانت ضئيلة الجسم، مجعدة الوجه ، تبدو الشراسة على محياها .. فقد كانت تعتبر انها خلقت هذا الرجل ، بل انها هى التى ابتكرته ابتكارا ! ولو أن الامر كان بيدها ، لتولت صنعه من جديد ! .. ومع انها لم تستطع طوال حياتها معه أن تفهم نفسيته سوى مرة أواثنتين، الا أنهااستوعبت ما عرفته تمام الاستيعاب ، وأصبحت تدركه عن خبرة دقيقة ، فلم يكن يفوتها عزوفه عن الطعام أحيانا ، وما كان يحس به من ألم أو ينتابه من دناءة ! على أنها لم تدرك قط أية فكرة أو أمنية أو رغبة راودته يوما .. ومع ذلك فقد لقيت منه ما أسعدها فى كثير من المناسبات !

* * *

• **وبرزت** السيدة من وراء العمدة ، فأخذت بيده ، وانتزعت خنصره من أذنه الموجوعة ـ كما لو كان طفلا تنتزع أمه ابهامه من فمه ! ـ ثم قالت له : « لا أصدق لحظة أن أذنك تؤلمك كل هذا الالم الذى تزعمه !» . والتفتت الى الدكتور وينتر وقالت : « لم يدعنى أصلح من شأن حاجبيه ! »

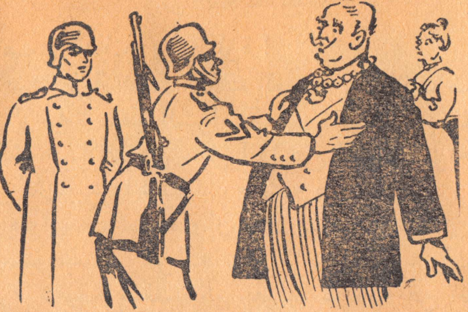
فأجاب العمدة أوردن قائلا : « ان هذه العملية تؤلمنى ! »

ـ حسنا جدا ، اذا كنت تريد أن تبدو فى هذا المظهر ، فلا حيلة لى ! »

وأخذت تسوى ربطة عنقه التى لم تكن فى حاجة الى تسوية، ثم قالت : « يسعدنى انك هنا يادكتور ، كم سيأتى فيما تظن ؟ » . ثم تطلعت فرأت الكابتن بنتيك ، فقالت : «آه .. الكولونيل ؟ »

فأجابها الكابتن بنتيك قائلا : « كلا ياسيدتى ، انما أعد العدة لاستقبال الكولونيل .. أيها الجاويش ! »

وهرع الجاويش الذى كان يقلب الوسادات ويفتش خلف الصور ، فاقترب من العمدة أوردن ومر بيديه على جيوبه ،



بينما قال الكابتن بنتيك : « عفوا ياسيدى ، ولكنها الاوامر ! » .. ثم رمق الدفتر الذى كان فى يده مرة أخرى وقال : «أعتقد أن لديك هنا بعض الاسلحة النارية ياصاحب السعادة .. قطعتان فيما أظن ؟ »

فأجابه العمدة أوردن قائلا : « أسلحة نارية ؟ .. لعلك تقصد البندقيتين .. أجل عندى بندقية رش وبندقية صيد » . ثم أردف يقول فى لهجة غلب عليها الضعف : **« لم أعد أصيد كثيرا الآن .. اننى أفكر دائما فى الخروج للصيد ، ثم يبدأ الموسم فلا أخرج .. لم يعد الصيد يطيب لى كما كان يطيب لى من قبل ! »**

وألحف الكابتن بنتيك فى السؤال قائلا : « وأين توجد هاتان البندقيتان ياصاحب السعادة ؟ » . فتحسس العمدة خده محاولا أن يتذكر : « أعتقد .. » ، ثم التفت الى زوجته متسائلا : « ألم تكونا خلف ذلك الدولاب بغرفة النوم مع عصى السير ؟ »

وأجابته السيدة قائلة : **« أجل ، وكل قطعة من قطع الملابس الموضوعة فى ذلك الدولاب تفوح منها الآن رائحة الزيت! ليتك وضعتهما فى مكان آخر ! »**

ونادى الكابتن بنتيك يقول : « أيها الجاويش ! » ، فأسرع الجاويش الى غرفة النوم .. بينما قال الكابتن : « اننى لآسف ،

فهو واجب ثقيل ! » .. وما لبث الجاويش أن عاد وهو يحمل بندقية رش ذات ماسورتين ، وبندقية صيد جميلة تعلق على الكتف ، فأسندهما الى جوار الباب الخارجي

وقال الكابتن بنتيك : « بهذا تنتهي مهمتي .. شكرا لك ياصاحب السعادة ، وشكرا ياسيدتي » . ثم استدار في انحناءة خفيفة للدكتور وينتر وقال : « شكرا يادكتور ، ان الكولونيل لن يلبث أن يفد ، طاب صباحكم ! » .. واتجه الى الباب الخارجي وفي أعقابه الجاويش يحمل البندقيتين باحدى يديه ، ويعلق بندقيته السريعة الطلقات على كتفه اليمنى

وقالت السيدة : « ظننت أنه الكولونيل ، وانه لشاب وسيم ! »

فقال الدكتور وينتر في تهكم واستخفاف : « كلا ، ولكنه كان يحمي الكولونيل ! »

وكانت السيدة تحدث نفسها قائلة : « ترى كم من الضباط سيأتون ؟ » ، ثم نظرت الى جوزيف فرأت أنه يتسمع الحديث في غير خجل أو حياء ، فهزت له رأسها وقطبت حاجبيها . واذ ذاك عاد لفوره الى ما كان يؤديه من أعمال صغيرة ، وشرع ينفض الغبار عن قطع الاثاث كلها

وتساءلت السيدة : « ترى كم منهم سيأتي ؟ » .. فجذب الدكتور وينتر مقعدا بعنف ، وجلس ثانية وهو يقول : « لست أدري »

فأجابت السيدة بقولها : « حسنا » ، ثم عبست في وجه جوزيف وأردفت تقول : « لقد كنا نتحدث في الامر .. ترى هل نقدم لهم الشاي أم النبيذ ؟ .. واذا فعلنا فلست أدري كم سيكون عددهم ، واذا لم نقدم لهم شيئا فماذا عسانا نصنع ؟ »

وهز الدكتور وينتر رأسه مبتسما وقال : « لست أدري ، فلم يغز بلادنا أحد ، ولم نغز بلاد أحد منذ زمن طويل ، ومن ثم فلست أعرف ما الذي يليق بنا أن نفعله ! »

وعاد العمدة أوردن بأصبعه الى أذنه التى كانت تضايقه ، وقال : « **حسنا ، لا أظن أنه يليق بنا أن نقدم لهم شيئا ، فلا أعتقد أن هذا سيروق لقومنا .. اننى لا أحب أن أشرب شيئا من النبيذ معهم وان لم أدر سببا لذلك !** »

واستنجدت السيدة بالطبيب عندئذ قائلة له : « ألم يكن الناس فيما مضى ـ أقصد القادة ـ يحيى كل منهم الآخر بشرب كأس من الخمر ؟ »

فأومأ الدكتور وينتر برأسه وهو يقول : « أجل ، كانوا يفعلون هذا » ، ثم هز رأسه ببطء وقال : « ربما كانت الحال تختلف الآن ، فقد كان مسلك الملوك والامراء فى الحروب كمسلك السادة الانجليز فى الصيد .. اذا ما اطمأنوا الى موت الثعلب ، اجتمعوا حول مائدة الافطار بعد الصيد ! ولكن لعل العمدة أوردن على حق ، فقد لايرضى الشعب عن شربه الخمر مع الغازى »

وقالت السيدة : « ان الشعب ينصت الى الموسيقى .. لقد قالت لى آنى هذا .. فاذا كان أهل البلدة يفعلون هذا ، فلماذا لانحيى نحن العادات التى اصطلحت عليها الحضارة ؟ ! »

وأمعن العمدة النظر فيها برهة ، ثم قال لها فى لهجة حادة : « استميحك عفوا ياسيدتى اذا كنا لانقدم الخمر ، فان الشعب تتملكه الحيرة الآن .. **لقد عاش فى سلام طويل حتى انه لا يصدق أنه فى حالة حرب الآن ، ولن يلبث أن يدرك الحقيقة فتزول هذه الحيرة التى تتملكه . انهم لم ينتخبونى ليظلوا فى حيرة من أمرهم !.. لا ، ليس من رأيى أن نقيم حفلة افطار بعد الصيد .. ألم يصيدوا ستة من رجالنا هذا الصباح ؟ .. أن الناس لايخوضون غمار الحروب للرياضة !** »

وانحنت السيدة انحناءة خفيفة .. كان من عادة زوجها فى بعض المناسبات أن يتخذ صفة العمدة ، وأن يملأ مركزه حقا ، وقد تعلمت أن لاتخلط بين العمدة وبين زوجها !

* * *

• **ونظر** العمدة « أوردن » الى ساعته ، بينما أقبل جوزيف يحمل قدحا صغيرا من القهوة « السادة » ، فتناوله منه وهو شارد الذهن ، وقال له وهو يرتشف منه : « شكرا لك » ، ثم التفت الى الدكتور وينتر وهو يقول معتذرا : « يجب أن يكون رأيى واضحا ، يجب أن .. أعرفت كم عدد فرقة الفزاة ؟ »

فأجابه الطبيب بقوله : « ليسوا كثيرين ، ولا أعتقد أن عددهم يزيد على مائتين وخمسين ، ولكنهم جميعا يحملون تلك البنادق السريعة الطلقات ! »

ورشف العمدة رشفة أخرى من قدحه ، وبدأ حديثا جديدا ، اذ قال : « وماذا حدث فى باقى أنحاء البلاد ؟ » .. فرفع الطبيب كتفيه ثم خفضهما ثانية

واسترسل العمدة يقول فى لهجة اليائس : « ألم تكن ثمة مقاومة فى أية جهة من الجهات ؟ »

وعاد الطبيب يرفع كتفيه وهو يقول : « لا أعلم .. فقد قطعت الاسلاك أو استولى عليها الغزاة ، وانقطعت الاخبار »

— وشبابنا ؟ جنودنا ؟

فأجاب الطبيب قائلا : « لست أعرف عنهم شيئا »

وقطع جوزيف عليهما الحديث : « سمعت .. أقصد أن آنى سمعت .. »

— ماذا يا جوزيف ؟

— لقد قتل ستة رجال ياسيدى بالمدافع الرشاشة ، وسمعت « آنى » أن ثلاثة آخرين جرحوا ووقعوا فى الاسر

— ولكن عدد الجنود كان أثنى عشر

— سمعت « آنى » أن ثلاثة ولوا الادبار !

والتفت العمدة بشدة وهو يسأل : « من أولئك الثلاثة الذين هربوا ؟ »

ــ لست أدرى ياسيدى ، فان آنى لم تسمع عن هــذا شيئا

وأخذت السيدة تمر بأصبعها على المنضدة لتتحقق من أنه لا يعلق بها شيء من الغبار ، ثم قالت : « عليــك أن تلزم الجرس ياجوزيف عندما يأتون ، فقد نحتاج الى بعض أشــياء بسيطة .. وعليك أن ترتدى سترتك الاخرى ياجوزيف .. السترة ذات الازرار » ، ثم فكرت لحظة واستطردت تقول : « وعندما تنجز مايطلب اليك انجازه ياجوزيف ، يجب أن تبارح الغرفة ، فانه لمما يسيء الى سمعتك وقوفك دون عمل تنصت الى الحديث .. ان هذا من شيمة أهل الريف وحدهم ! »

وأجاب جوزيف قائلا : « سمعا وطاعة ياسيدتى »

ــ لن نقدم الخمر ياجوزيف ، ولكن حرى بك أن تضع بعض السجاير فى هذه العلبة الفضية الصغيرة ، ولا تحك عود الثقاب على حذائك لتشعل سيجارة الكولونيل بل حكه على علبة الثقاب ! »

ــ سمعا وطاعة ياسيدتى

وفك العمدة « أوردن » أزرار سترته ، فأخرج ساعته ونظر فيها ، ثم أعادها الى جيبه وأحكم أزرار سترته ثانية . ولكنه أخطأ فوضع الزر الثانى فى العروة الاولى ، فاتجهت اليه السيدة وأصلحت من وضع سترته

وتساءل الدكتور وينتر : « كم الساعة ؟ »

ــ الحادية عشرة الا خمس دقائق

ــ انهم قوم فى دقة الساعة ! .. سيكونون هنا فى الموعد الذى حددوه . أتريدنى على أن أرحل ؟

فلاح الفزع على العمدة أوردن وقال : « ترحل ؟ كلا .. كلا ، بل ابق ! » ، ثم ضحك وأردف فى لهجة غلب عليهــا الاعتذار : « اننى أشعر بشيء من الخوف .. لا ، ليس الخوف ، وانما هو الانفعال ينال مني مناله ! » . ثم استطرد يقول فى

عجز ويأس : « لم يغزنا أحد منذ زمن طويل ! .. » ، وتوقف عن الكلام منصتا ، فقد كان الهواء يحمل من بعيد صوت الفرقة الموسيقية وهى تعزف لحنا عسكريا . وأرهفوا جميعا أسماعهم صوب مصدر الصوت فى اصغاء تام !

* * *

• وما لبثت السيدة أن قالت : « هاهم أولاء قادمون ، أرجو أن لايكون عددهم كبيرا جدا ، ولعلهم لايأتون جميعا دفعة واحدة فتضيق بهم الغرفة ، وهى ليست غاية فى الاتساع »

فقال الدكتور وينتر ولهجته تنم عن التهكم : « أتفضل سيدتى قاعة المرايا فى قصر فرساى ؟ » . فعضت على شفتيها ، ونظرت حولها وهى تتخيل وضع الغزاة ، ثم قالت : « انها لغرفة صغيرة جدا » . وارتفع صوت الموسيقى ، ثم أخذ يخفت .. وطرقت الباب الخارجى يد حرصت على أن تكون رقيقة ، فقالت السيدة : « ترى من يكون هذا ؟ قل للطارق ياجوزيف أن يعود فيما بعد ، فنحن مشغولون جدا » . وعاد الطرق من جديد ، فذهب جوزيف الى الباب وفتحه فى تحفظ ، ثم فتحه أكثر من ذى قبل ، فظهر جندى فى لباس رمادى وقد علت الخوذة رأسه وكسا القفاز يديه ! .. وقال الجندى : « أحمل اليكم تحيات الكولونيل لانسر ، وان الكولونيل ليلتمس مقابلة صاحب السعادة »

واذ ذاك فتح جوزيف الباب على مصراعيه فدخل الجندى لابس الخوذة ، وسار الى الغرفة فألقى نظرة عاجلة فى أرجائها ، ثم انتحى جانبا ، ونادى معلنا : « الكولونيل لانسر ! »

ودخل شخص آخر يلبس الخوذة أيضا ، وتنم الشارات التى على كتفيه عن أنه « الكولونيل » المرتقب . ثم أقبل خلفه رجل يميل الى القصر ، ويرتدى حلة سوداء على غرار رجال

الاعمال . **وكان الكولونيل رجلا متوسط العمر ، أشيب الشعر ، صعب المراس ، تبدو على ملامحه علائم التعب . وكانت له كتفا الجندى العريضتان ، ولكن عينيه لم تكونا كعيون العسكريين .. ذات النظرات الفارغة !** أما الرجل الذى جاء معه فكان أصلع الرأس ، أحمر الخدين ، له عينان سوداوان صغيرتان ، وفم ينم عن الشهوة العارمة !

وخلع الكولونيل « لانسر » خوذته ، وقال وهو ينحنى انحناءة سريعة : « ياصاحب السعادة ! » ، ثم انحنى للسيدة



قائلا : « سيدتى ! » ، وقال : « اغلق الباب من فضلك أيها الاومباشى » . فأسرع جوزيف الى غلق الباب ، وهو يرمق الجندى وكأنه يزهو بهذا النصر الصغير .. فقد كان اغلاق الباب من مهامه هو ، لا من مهام « الاومباشى » ! وتطلع الكولونيل لانسر الى الطبيب متسائلا ، فقال العمدة أوردن : « هذا هو الدكتور وينتر »

فسأله الكولونيل : « أهو موظف ؟ »

ـ انه طبيب ياسيدى ، ولعلنى لا أخطىء جادة الصواب اذا قلت انه مؤرخنا المحلى

فانحنى لانسر انحناءة خفيفة وقال : « اننى لا أقصد أن أكون وقحا يادكتور وينتر ، ولكن ربما أضيفت الى تاريخكم

صفحة ... »

فابتسم الدكتور وينتر وقال : « ربما أضيفت اليـه صفحات كثيرة »

والتفت الكولونيل لانسر قليلا الى رفيقه ، وقال :«أعتقد أنكم تعرفون المستر كوريل ؟ »

فأجاب العمدة : « جورج كوريل ؟ .. طبعا أعرفه ،كيف أنت ياجورج ؟ »

فقاطعه الدكتور وينتر فى حدة ، وقال له فى لهجة طفت عليها الصبغة الرسمية : **« ياصاحب السعادة ، ان صديقنـا جورج كوريل أعد هذه البلدة للغزو .. انجورج كوريل صاحب الايادى البيضاء علينا أرسل جنودنا الى الجبال .. ان جورج كوريل ـ ضيف الشرف فى مآدب عشائنا ! ـ كتب قائمة بكل ما فى البلدة من أسلحة نارية .. هـذا هو صديقنـا جورج كوريل ! »**

فقال كوريل فى لهجة شاع فيها الغضب : « اننى أعمل فى سبيل ما أومن به ، وهذا شىء شريف ! »

وفغر أوردن فمه قليلا ، اذ اشتد به الذهول ، وأخـذ يقلب النظر يائسا بين وينتر وكوريل ، ثم قال : « ان هـذا ليس صحيحا ياجورج .. ان هذا لايمكن أن يكون صحيحا ! .. لقد جلست الى مائدتى وشربت نبيذ « البورت » معى ، بل انك ساعدتنى فى وضع مشروع المستشفى .. ان هـذا لا يمكن أن يكون صحيحا ! »

ورمق كوريل بنظرة نافـذة ، فرد اليـه كوريل نظرته بنظرات ملؤها الحقد والعداوة ، ثم ساد بينهما صمت طويل . وأخذت ملامح العمدة تستحيل رويدا رويدا الى ملامح صارمة قاسية اتخذت السمة الرسميـــة ، وتصلب جسمه كله ، ثم التفت الى الكولونيل لانسر وقال : « لا أريد أنأتحدث فى حضرة هذا السيد »

وقال كوريل : « ان من حقى أن أكون هنا ! اننى جندى كسائر أولئك الجنود ، وان كنت لا أرتدى الزى العسكرى »
وكرر العمدة قوله : « لا أريد أن أتحدث فى حضرة هذا السيد »
فقال الكولونيل لانسر : « هلا تركتنا الآن يامستركوريل؟»
وقال كوريل : « ان من حقى أن أكون هنا ! »
وكرر لانسر فى حدة : « هلا تركتنا الآن يامستر كوريل ؟ أو تراك أعلى منى رتبة ؟ »
ـ كلا ياسيدى
فقال الكولونيل لانسر : « اذن أرجوك أن تنصرف يامستر كوريل »
ونظر كوريل الى العمدة نظرة الغاضب الحانق ، ثم استدار وخرج لايلوى على شيء . وضحك الدكتور وينتر وهو يقول: « هذه مادة كافية لفقرة فيما سأكتبه من التاريخ » ، فرمقه الكولونيل لانسر شزرا ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. وفى تلك اللحظة ، فتح الباب الايمن وأطلت منه آنى ، الحمراء العينين ، ذات الشعر الذى يشبه القش .. وكان وجهها يفيض غضبا وهى تقول : « هناك جنود عند الباب الخلفى ياسيدتى .. وليس لهم من عمل سوى الوقوف هناك ! »
فأجاب الكولونيل لانسر : « انهم لن يدخلوا ، اذ أن وقوفهم هناك من الاجراءات العسكرية »
وقالت السيدة ببرود : « اذا كان لديك ماتقولين يا آنى ، فدعى جوزيف يحمل رسالتك »
فأجابت آنى قائلة : « كل الذى أعلمه أنهم قد يحاولون الدخول ، فقد شموا عبير القهوة »
وصاحت السيدة محنقة : « آنى ! »
فقالت الخادم : « سمعا ياسيدتى » . ثم غادرت الغرفة

وقال الكولونيل : « هل لى أن أجلس ؟ » ، ثم أردف يقول: « لقد قضينا وقتا طويلا دون أن يغمض لنا جفن »

وكأنما أيقظت هذه الكلمات العمدة من سبات عميق ، فقال : « أجل ، طبعا .. اجلس ! »

وتطلع الكولونيل الى السيدة ، فجلست ، بينما ألقى هو بنفسه متهالكا على أحد المقاعد ، وظل العمدة واقفا وهو شارد البال ، وكأنه يحلم !

وبدأ الكولونيل حديثه قائلا : **« نريد أن لايعوق سبيلنا للتفاهم عائق ، فأنت ترى ياسيدى أن هذه أقرب الى أن تكون مغامرة تجارية ، منها الى أى شيء آخر .. نحن فى حاجة الى منجم الفحم الموجود هنا ، وفى حاجة الى مصايد للاسماك . وسنبذل قصارى جهدنا حتى نمضى فى علاقاتنا مع الاهالى بأقل احتكاك ممكن »**

فقال العمدة : « لم تصلنى أية أخبار ، فماذا حدث فى باقى أنحاء بلادنا ؟ »

فأجاب الكولونيل قائلا : « لقد استولينا عليها كلها .. لقد أحكمنا تدبير خطتنا »

ـ ألم تكن هناك مقاومة فى أى مكان ؟

فنظر اليه الكولونيل فى رثاء وهو يقول : « كم كنت أتمنى ان لا تكون هناك مقاومة ! .. أجل ، كانت ثمة مقاومة ، الا انه لم ينجم عنها سوى اراقة الدماء .. فقد أحكمنا تدبير خطتنا تماما »

ولكن أوردن كان يلح فى سؤاله : « ولكن كانت هناك مقاومة ؟ »

ـ أجل ، ولكن المقاومة كانت ضربا من الحماقة ، فقد قضينا عليها هناك كما قضينا عليها هنا فى الحال .. أجل ، لقد كانت المقاومة من الاعمال التى تتسم بالحماقة وتبعث على الحزن والاسى !

وانتقل الى الدكتور وينتر شىء من لهفة العمدة وقلقه ، فقال : « أجل ، كانت من الحماقة ، ولكنهم قاوموا ! »

فأجاب الكولونيل لانسر قائلا : « لم يقاوم الا قلة قضينا عليها .. والشعب الآن هادىء وادع ، فى مجموعه ! »

وقال الدكتور وينتر : « ان الشعب لم يقف بعد على ماحدث »

فأجاب لانسر بقوله : « لقد أخذوا يدركون ماحدث ،ولن يعودوا الى حماقتهم ! » . ثم تنحنح وأصبح صوته أكثر وضوحا ، وهو يستطرد : « والآن ياسيدى ، يجب أن أبدأ مهمتى ، فان التعب قد نال منى مناله ، ولكننى مضطر الى أن أنجز اجراءاتى قبل أن أسلم جفنى للكرى » . ثم مال الى الامام فى مقعده وقال : « اننى مهندس أكثر منى جنديا ، وهذه المغامرة كلها أقرب الى الاعمال الهندسية منها الى الغزو ، فان الفحم يجب أن يستخرج من الارض ويشحن . ولدينا الفنيون ، ولكن الاهالى يجب أن يستمروا فى العمل فى المنجم .. أهذا واضح ؟ لا نريد أن نكره على استخدام القوة والعنف »

فأجابه أوردن قائلا : **« أجل ، هذا واضح تماما ، ولكن هب ان الناس لايريدون العمل فى المنجم ؟ »**

فقال الكولونيل : « أرجو أن يكونوا راغبين فى العمل ، لان هذا فرض عليهم . فالفحم لازم لنا »

ــ واذا عزفوا عن العمل ؟

ــ هذا فرض عليهم .. وأرى أن الشعب منظم ، رتيب ، ينأى بنفسه عن المتاعب !

وانتظر جواب العمدة ، ولكن العمدة لم يحر جوابا ،فسأله الكولونيل : « أليس الامر كما أقول ياسيدى ؟ » .. فتشاغل العمدة بالعبث بسلسلة ساعته ثم قال : **« لست أدرى ياسيدى .. انه شعب منظم رتيب فى ظل حكومته ، ولكنى لا أعلم كيف يكون فى ظل حكومتكم ، فهذا أمر لم تسبق لنا فيه تجربة**

كما تعلم ، اذ اننا أنشأنا حكومتنا منذ أكثر من أربعمائة عام »

فأجاب الكولونيل بسرعة : « نحن نعرف هذا ، ولذلك سنبقى على حكومتكم ، وستظل أنت العمدة : تصدر الاوامر ، وتعاقب وتكافىء ، وبهذه الوسيلة لن يكونوا مصدر تعب لنا!»

ونظر العمدة الى الدكتور وينتر وسأله قائلا : «مارأيك ؟»

.. فأجابه الدكتور وينتر بقوله : « لست أدرى ، وانه ليكون طريفا أن نرقب النتيجة . على اننى اتوقع المتاعب ، فقد يكون هذا الشعب مرا ، صلب العود ، لاتلين له قناة ! »

وقال العمدة أوردن : « ولا أنا أدرى ! » . ثم التفت الى الكولونيل يقول : **« سيدى ، اننى واحد من هذا الشعب ، الا اننى لا أدرى ما عساه يفعل . ولعلك أنت تدرى ، أو لعله هو يقدم على شيء يختلف تماما عما تعرفه انت أو نعرفه نحن ، فبعض الناس يرتضون الزعماء الذين يفرضون عليهم ويطيعون أوامرهم ، ولكن قومى قد انتخبونى .. لقد رفعونى وهم مستطيعون أن يسقطونى ، ولعلهم يفعلون هذا اذا ظنوا اننى قد ضالعتك .. كل ما أملك أن أقوله هو اننى لا أدرى ! »**

فقال الكولونيل : « انك لتؤدى لهم خدمة لو جعلتهم يحافظون على النظام »

ــ خدمة ؟ !

ــ أجل خدمة ، فان من واجبك حمايتهم من الاذى ، وان الخطر ليحدق بهم اذا هم تمردوا ، اذ لابد لنا من أن نحصل على الفحم ، وقادتنا لايبينون لنا طريق الحصول عليه ، بل يامروننا بالحصول عليه فقط .. ولكن عليك أنت أن تحمى قومك ! .. يجب أن تحملهم على أداء العمل ، وبذلك تحفظ عليهم سلامتهم

فسأله العمدة أوردن : « ولكن هب انهم لايريدون لانفسهم السلامة ؟ ! »

ــ اذن فعليك أنت ان تفكر نيابة عنهم !

فأجاب أوردن فى شىء من الزهو : « **ان قومى لايحبون أن يفكر انسان عنهم ، ولعلهم يختلفون فى هذا عن قومك . اننى لفى حيرة ، ولكننى واثق مما أقول ! »**

ودلف جوزيف الى الغرفة اذ ذاك ووقف منحنيا الى الامام وقد استبدت به الرغبة فى الكلام . فقالت السيدة : « ماالخبر ياجوزيف ؟ .. احضر علبة السجاير الفضية »

فأجاب جوزيف قائلا : « عفوا ياسيدتى ، عفوا ياصاحب السعادة »

وسأله العمدة : « ماذا تريد ؟ » .. فأجاب قائلا : « انها آنى .. لقد بدأ الغضب يسيطر عليها ياسيدى ! »

وتساءلت السيدة : « ماذا جرى ؟ »

ـ ان آنى لايروق لها الجنود الذين يرابطون عند الباب الخلفى !

فسأله الكولونيل : « أهم يسببون شيئا من المتاعب ؟ »

فأجاب جوزيف قائلا : « **انهم يتلصصون خلال الباب على آنى ، وهى تكره هذا ! »**

فقال الكولونيل : « انهم ينفذون الاوامر الصادرة اليهم ، دون أن يضروا بأحد »

فأجاب جوزيف بقوله : « حسنا ، ولكن آنى تكره أن يحملق فيها أحد »

وقالت السيدة : « جوزيف ، قل لآنى ان تلزم الحذر ! »

فأجاب جوزيف قائلا : « سمعا وطاعة يا سيدتى » ، ثم غادر الغرفة

* * *

• وخفض الكولونيل عينيه عياء وتعبا ، ثم قال : « ثمة أمر آخر ياصاحب السعادة .. هل من الممكن أن أقيم مع أركان حربى هنا ؟» .. ففكر العمدة أوردن لحظة ثم قال : « **ان المنزل**

صغير ، وثمة منازل أكبر منه وأكثر استعدادا لتوفير الراحة !»

وعاد جوزيف فى تلك الاثناء يحمل علبة السجاير الفضية ففتحها وقدمها الى الكولونيل . وتناول الكولونيل سيجارة ، فأشعلها له جوزيف فى شيء كثير من التكلف .. وزفر الكولونيل الدخان من أعماق صدره ، ثم قال : « ليس هـذا هو بيت القصيد ، بل لقد تبين لنا ان اقامة أركان الحرب فى نفس البيت الذى يقيم فيه أصحاب السلطة المحلية ، أدعى لهدوء البال والطمأنينة »

فقال أوردن : « **تقصد أن الناس سيشعرون بأن ثمة تعاونا بين الاثنين ؟ »**

— أجل ، أعتقد أن هذا هو المقصود !

فنظر العمدة أوردن فى يأس الى الدكتور وينتر مستنجدا به . ولم يستطع وينتر أن ينجده بأكثر من ابتسامة مريرة . ومالبث أوردن ان قال فى لهجة رقيقة: « **هل من المباح لى رفض هذا الشرف ؟ »**

فأجابه الكولونيل قائلا : « اننى لآسف ، ولكنك لا تستطيع ، فتلك هى أوامر قائدى »

فقال أوردن : « **ان الشعب لن يرتاح الى هذا ! »**

— دائما الشعب ! .. لقد أصبح الشعب أعزل .. لم يعد للشعب حول ولا قوة !

فهز العمدة أوردن رأسه وهو يقول : « **انك لا تعرفهم يا سيدى »**

وطرق أسماعهم من خلال الباب صوت امرأة غاضبة . ثم صوت ارتطام ، وصرخة رجل .. وأقبل جوزيف على الغرفة مهرولا ، وقال : « **لقد رمتهم بالماء المغلى .. لقد بلغ بها الغضب ذروته ! »**

وسمعت الاوامر تترى من خلال الباب ، وصـوت وقع

الاقدام ، ثم نهض الكولونيل لانسر متثاقلا ، وتساءل قائلا : « أليس لك سلطان على خدمك يا سيدى ؟ »

فابتسم العمدة أوردن وقال : « لى سلطان ضئيل عليهم .. انها طاهية بارعة عندما تكون سعيدة ! » . ثم سأل جوزيف : « هل أصيب أحد بأذى ؟ »

ـ لقد كان الماء يغلى يا سيدى !

وقال الكولونيل لانسر : « انما نريد أن ننجز مهمتنا ، وهى مهمة هندسية ، فعليك أن تؤدب طاهيتك ! »

فأجابه أوردن: « لا أستطيع هذا والا غادرت بيتى ورحلت! »

ـ اننا فى حالة طوارىء ، فلا يمكنها أن ترحل

وهنا قال الدكتور وينتر : **« اذن فستستمر فى القاء الماء »**

وفتح الباب ، فاذا بجندى يقف فى فراغه ، وهو يقول متسائلا : « هل أقبض على هذه المرأة يا سيدى ؟ »



فسأله لانسر : « هل أصيب أحد بأذى ؟ »

ـ أجل يا سيدى ، فقد أصيب البعض بحروق ، ونال أحد الجنود عضة .. انها الآن فى أيدينا يا سيدى

ولاحت الحيرة على لانسر ، ثم قال : « اطلقوا سراحها ، واذهبوا بعيدا عن الباب ! » .. فقال الجندى : « سمعا

وطاعة يا سيدى » . ثم أغلق الباب

وقال لانسر : « كان فى استطاعتى اصدار الامر باعدامها رميا بالرصاص ، وكان فى استطاعتى حبسها ! »

فقال أوردن : « انك اذ ذاك تحرمنا من الطاهية ! » ..

فأجاب الكولونيل : « اننا مأمورون بأن نحسن معاملة قومك » .

وما لبثت السيدة ان قالت : « عفوا يا سيدى ، سأذهب لأرى ما اذا كان قد نال « آنى » شيء من الاذى على يد الجنود ! » ، ثم انصرفت . فنهض لانسر وقال : « قلت لك أننى متعب جدا يا سيدى . لا بد لي من أن أحظى بقسط من النوم ، فأرجو أن تتعاون معنا لمصلحة الجميع ! » . واذ لم يجب أوردن ، أردف لانسر يقول مرة أخرى : « لمصلحة الجميع .. فهل أنت فاعل ؟ »

فأجاب أوردن بقوله : **« هذه بلدة صغيرة .. لست أدرى .. ان القوم تتملكهم الحيرة ، كما تتملكنى أنا ! »**

— ولكن هلا حاولت المعاونة ؟

فهز أوردن رأسه وهو يقول : « لست أدرى . ربما استطعت أن أعرف ما ينبغى أن أفعله ، اذا استقر رأى القوم على مايحسن بهم عمله ! »

— ولكنك صاحب السلطان !

فابتسم أوردن وقال : **« لن تصدق هذا ، ولكنه الحقيقة .. ان السلطان فى يد البلدة ذاتها . ولست أدرى كيف ولا لماذا ، ولكن هذا هو الواقع .. وهذا معناه أننا لا نستطيع التصرف بالسرعة التى تتصرفون أنتم بها ، ولكن ما ان نضع خطة للسير عليها ، حتى نعمل كلنا معا .. اننى فى حيرة ، لأننى لا أعرف بعد ما ينبغى عمله ! »**

فقال لانسر وهو يكاد يسقط اعياء : « أرجو أن نستطيع العمل معا حتي يسهل الأمر بالنسبة لكل انسان ، وأرجو أن نستطيع الوثوق بك ، فاننى لا أحب أن أفكر فى الوسائل التى

يلجأ اليها العسكريون لحفظ النظام ! »

ولاذ العمدة أوردن بالصمت ، فعاد لانسر يكرر : « أرجو أن نستطيع الوثوق بك والركون اليك ! »

ووضع أوردن أصبعه فى أذنه وهز يده وهو يقول : « لست أدرى » .. ودخلت السيدة فى هذه اللحظة قائلة : « لقد استبد الغضب بآنى ، وهى عند الجيران تحادث كريستين .. وكريستين غاضبة أيضا » .. فقال العمدة : « أن كريستين طاهية بارعة تفوق آنى نفسها ! »

الانجليزية وكلاب (جوردون) .. بل انه كان يقضى أجازاته كلها فى مقاطعة (ساسكس) الانجليزية ، ويستطيب ان يأخذه الناس ـ فى بودابست أو باريس ـ على أنه انجليزى . ومع ان الحرب اضطرته الى تغيير كل هذه المظاهر ، الا أنه كان قد دخن الغليون كثيرا ، وحمل العصا طويلا ، حتى بات من المتعذر عليه أن يستغنى عنهما فجأة . ولقد كتب مرة ـ منذ خمس سنوات ـ خطابا الى صحيفة « التايمس » عن صبغ حشائش الارض فى (ميدلاند) . ووقع الخطاب باسم السيد ادموند تويتشل ، فنشرت « التايمس » خطابه هذا !

واذا كان الكابتن بنتيك أكبر سنا من أن يكون يوزباشيا ، فان الكابتن « لوفت » كان أصغر من أن يكون يوزباشيا ، وان حرص على أن يبدو فى رتبته كأحسن ما يظهر « اليوزباشية » فى رتبتهم ، فكانت حركاته وسكناته كلها توحي بأنه «يوزباشى» مثالى . ولم تكن فى وقته لحظة غير عسكرية ! وقد دفعه الطموح الى الرقى ، فأخذ يصعد سلم الدرجات العسكرية تباعا ، وهو يرتفع فى يسر كأنه القشدة حين تعلو اللبن ! .. ولقد كان يضرب أحد عقبيه بالآخر فى براعة الراقص الرشيق ، كما كان يعرف كل ضرب من ضروب الآداب العسكرية ، حتى بات قادة الجيش يخشونه ، لانه كان يعرف عن مسلك الجندى أكثر مما يعرفون . وكان الكابتن « لوفت » يعتقد ـ بل يؤمن ـ بأن الجندى هو أرقى ما تطورت اليه حياة الحيوان . ولو أنه كان على شيء من الايمان بوجود الله ، لكان كل ما يتخيله عن الله هو أنه قائد قد تقدمت به السن وتوجته أكاليل الشرف ، وقد اعتزل الخدمة بعد ان اشتعل رأسه شيبا ، وأخذ يعيش على ذكريات المعارك التى خاضها ، ويضع أكاليل الزهور على قبور ملازميه عدة مرات فى السنة ! .. وكان الكابتن « لوفت » يعتقد ان النساء جميعا يتهافتن على حب الزى الرسمى . ولم يكن يرى أى عجب فى ذلك .. ومن ثم فقد كان يحلم بأنه اذا سارت

الفصل الثانى

• **اتخذ** أركان حرب الكولونيل لانسر مقامهم فى الطابق الاعلى من قصر العمدة الصغير . وكانوا خمسة عدا الكولونيل ، منهم الماجور هنتر .. وهو رجل صغير يشغل الحساب والارقام باله . وكان « وحدة » يركن اليها ، ولكنه كان يرى بقية الناس وحدات لا يركن اليها ، أو لا تصلح للبقاء ! .. وكان الماجور هنتر مهندسا ، ولولا الحرب لما فكر أحد فى أن يوليه قيادة الرجال ! .. ذلك لان الماجور هنتر كان يصف رجاله صفوفا كأنهم الارقام ، يجمعهم ويطرحهم ويضربهم ! .. كان أقرب الى عالم الحساب منه الى رجل العلوم الرياضية ، ومن ثم لم يستسغ يوما ماكان يزعمه المتبحرون فيها من أن لها سحرا وموسيقى ونشوة روحية ! .. ولقد يختلف الناس فى الطول أو الوزن أو اللون ، كما يختلف رقم ٦ عن ٨ ، ولكنهم قل أن يختلفوا فى شىء آخر . على ان هنتر لم يكن يفطن الى ذلك .. فقد تزوج عدة مرات ، ومع ذلك فانه لم يدر يوما السر فى أن أعصاب زوجاته كانت تثور قبل ان يهجرنه !

أما الكابتن بنتيك ، فكان رجل أسرة .. يحب الكلاب ، والأطفال ذوى الوجوه الوردية ، وحفلات عيد الميلاد . ولقد كان أكبر سنا من ان يكون « يوزباشيا » ، ولكنه كان منعدم الطموح الى درجة تثير العجب، مما جعله يتخلف فى تلك الرتبة. **وكان قبل الحرب شديد الاعجاب بأعيان الريف الانجليز ، فكان يرتدى الازياء الانجليزية ، ويؤوى الكلاب الانجليزية ، ويدخن فى غليونه خليطا مخصوصا من التبغ يرسل اليه من لندن !** كما انه كان مشتركا فى تلك المجلات الريفية التى تبحث فى الفلاحة والتى تدأب على الجدال فى المزايا النسبية لكلاب الصيد

الامور سيرها الطبيعى ، فلن يلبث ان يصبح لواء فى ســن الخامسة والاربعين من عمره،فتنشر الصحف والمجلات صورته تحيط به نساء مسترجلات طويلات ، شحبت وجوههن ، وارتدين قبعات مطرزة أنيقة !

أما الملازمان « براكل » و « تونذر » ، فكانا فى طور التمرين .. لم يكونا أكثر من ملازمين يتدربان على فنون السياسة الحالية ، ويؤمنان بأن نظام الحكم الجديد ابتكره عبقرى ، وبلغ من العظمة بحيث لم يكونا فى حاجة الى أن يكلفا نفسيهما مؤونة التحقق من نتائجه !.. وكانت العاطفة تملك قيادهما ، فألفا الدموع وسورات الغضب . وكان الملازم «براكل» يحمل خصلة من الشعر الصقها فى داخل الغلاف الخلفى من ساعته الجيبية ، وقد لفها فى قطعة من الحرير الازرق . وكان الشعر يخرج دائما من غلالته ويعوق بندول الساعة عن العمل ، ولذلك فقد كان يحمل ساعة يد ليعرف بها الوقت. ولقد كان «براكل» فى الاصل راقصا أجيرا ، مرحا بطبعه ، الا أنه كان قادرا على أن يتجهم كما يفعل القائد ، وأن يطيل التفكير والتأمل كما يفعل القائد أيضا !.. وكان يكره الفن المائع المنحل ، حتى لقد أتلف بيديه بعض اللوحات التى رسمت على القماش . وكان يعمد ـ أثناء سهرة فى الملاهى أحيانا ـ الى رسم رفاقه بالقلم الرصاص فى صور كاريكاتورية كانت من البراعة بحيث قيل له كثيرا انه كان يجب أن ينشأ فنانا . وكانت لبراكل بضع شقيقات شقراوات كان فخورا جدا بهن ، حتى أنه أثار ضجة ذات مرة عندما خيل اليه أن الحديث قد نال من سمعتهن . وانزعجت الشقيقات بعض الشىء بسبب هذا الحادث ، لانهن خشين أن يعمد شخص ما الى اثبات الواقعة التى تناولتها الاهانة ، ولم يكن هذا بالامر المتعذر !.. وكان الملازم «براكل» يقضى وقت فراغه كله ـ تقريبا ـ فى نسج الخيال حول اغراء أخت الملازم « تونذر » الشقراء .. وهى فتاة بدينة كانت تحب

أن يكون اغراؤها على أيدى الرجال الاكبر منه سنا ، اذ انهم ما كانوا يعبثون بشعرها على النحو الذى يعبث به الملازم براكل !

اما الملازم « توندر » فكان شاعرا ، حزينا ، متشائما ، يحلم بالحب المثالى الكامل الذى يتدفق من قلوب الشبان المثقفين الى الفتيات الفقيرات ! .. وكان شابا أسمر اللون ، يفيض بالعاطفة ، كما كان خصب الخيال ، واسع التجربة . وكان يتمتم أحيانا بأشعار لا معنى لها ، الى نساء سمراوات من نسج خياله .. ويتوق للموت فى ميدان القتال ، ويتخيل والديه وهما يبكيانه ، وقائده الشجاع وقد استبد به الحزن أمام الشاب وهو يحتضر . وكثيرا ما كان يتخيل مشهد موته ، فيتمثل الشمس محتقنة اللون غاربة ، تنعكس أشعتها على مهمات عسكرية محطمة ، وقد وقف جنوده حوله سكوتا وقد طأطأوا رؤوسهم .. بل انه أعد الكلمات التى يجمل به ان يقولها وهو يحتضر !

* * *

• هؤلاء كانوا أركان الحرب .. يخوض كل منهم غمار الحرب كأنها لعبة من ألعاب الصبية . وكان رأى الماجور « هنتر » فى الحرب أنها عملية حسابية يجب ايجاد حل لها ، حتى يستطيع العودة الى جوار مدفأته . أما رأى الكابتن « لوفت » فكان يتمثل فى أن الجيش هو المستقبل اللائق بشاب نشأ على أحسن ما يشب عليه الشباب ، فى حين ان الملازمين «براكل» و «توندر» كانا يتصوران الحرب كأنها حلم لا ينطوى على شىء من الحقيقة . ولقد كانت الحرب التى خاضوها حتى اليوم لعبة من اللعب . فالاسلحة بديعة الاشكال ، والخطة التى أعدوها ـ ضد أعداء بلا أسلحة أو خطط ـ خطة رائعة ، ومن ثم لم يهزموا فى موقعة واحدة ، ولم تنزل بهم الا خسائر قليلة . وكانوا ـ كأى ناس غيرهم ـ

عرضة لان يبدوا من الجبن أو الشجاعة ما يقتضيه الضغط الذى ينصب عليهم ، فما كان بينهم من يعرف حقيقة الحرب وكنهها سوى الكولونيل لانسر . فلقد قضى ((لانسر)) فى بلجيكا وفرنسا عشرين عاما ، وحاول الا يفكر فيما قدر له ان يعرفه من أن الحرب خيانة وحقد ، وأنها خطط مشوشة لقادة تعوزهم الكفاية ، وعذاب وقتل ومرض وكلال . والى ان ينتهى كل هذا ـ بأن تضع الحرب أوزارها ـ لا يطرأ على العالم أى تبدل اللهم الا زيادة التعب وخلق احقاد جديدة . وكان لانسر يحدث نفسه بانه جندى صدرت اليه تعليمات يجب ان يقوم على تنفيذها ، فلم يكن من المفروض أن يناقش هذه التعليمات أو يفكر فيها ، وانما كان عليه أن ينفذها فقط !.. وكان يحاول أن يطرد الذكريات المريرة التى خلفتها الحرب السابقة ، وهو موقن فى قرارة نفسه من أن هذه الحرب على غرار تلك .. كان يحاول أن يقنع نفسه خمسين مرة فى اليوم بأن هذه الحرب ستختلف عن الحرب الاخرى .. كل الاختلاف !

ومن المعتاد فى الطوابير العسكرية ، وفى زحمة الجماهير ، ومباريات كرة القدم ، والحروب ، أن تصبح المعالم مبهمة غير واضحة ، وتغدو الامور الملموسة سرابا ، فتخيم على العقل غشاوة تطمس المرئيات . اذ ان التوتر والاثارة والملل والكلال والحركة ... كل هذه تندمج فى حلم واحد كبير مشوش غير واضح المعالم . فاذا ما انقضى ، كان من الصعب عليك أن تذكر ماذا كانت عليه الحال عندما قتلت الناس أو أصدرت الامر بقتلهم .. فاذا أنبأك الذين لم يحضروا القتال بما وقع من أحداث ، قلت وقد التبس عليك الامر : ((أجل ، أعتقد أن هذا هو ماجرى !))

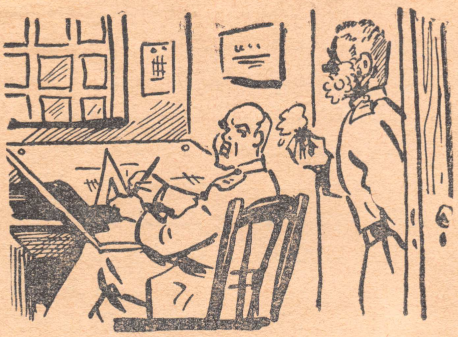
وقد شغل أركان الحرب ثلاث غرف فى الطابق الأعلى من قصر العمدة، فصفوا فى غرفة النوم أسرتهم وبطاطينهم ومهماتهم،

وجعلوا من الغرفة المجاورة لهاتين الغرفتين ـ والتى تقع فوق غرفة الاستقبال ـ ناديا . ولكن أسباب الراحة لم تكن متوفرة فى هذا النادى .. كان ثمة عدد من المقاعد ومنضدة ، وكانوا يكتبون فى هذه الغرفة ويقرأون خطاباتهم ، كما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث ويحتسون القهوة ويضعون الخطط ويستريحون . وقد علقت على الجدران ـ بين النوافذ ـ صور البقر والبحيرات والبيوت الريفية الصغيرة . وكانوا يستطيعون أن يشرفوا من النوافذ على البلدة حتى الميناء ، وعلى الارصفة التى ترسو عندها سفن الشحن ، والارصفة التى تجنح اليها سفن الفحم لتشحن ثم تقلع الى عرض البحر . كانوا يستطيعون أن يروا البلدة الصغيرة وهى تنثنى حول الميدان حتى تبلغ الميناء ، كما كان فى وسعهم أن يشاهدوا قوارب الصيد وهى راسية فى الخليج وقد طوت قلوعها .. بل لقد كان فى وسعهم أن يشموا رائحة السمك وهو يجفف على الساحل ، اذ كان النسيم يحملها اليهم خلال النافذة

وكانت فى وسط الغرفة منضدة كبيرة جلس الى جوارها الماجور « هنتر » ، وقد وضع لوحة الرسم الهندسى على ركبتيه ، مسندا حافتها الى المنضدة ، وراح يرسم مشروع خط حديدى جديد لتخزين العربات بالمحطة ، مستعينا بالمسطرة « حرف ت » والمثلث . ولكن اللوحة لم تكن ثابتة فى مكانها ، فأخذت تتحرك ، مما أثار غضب الماجور ، فالتفت ونادى قائلا : « براكل ! » ، ثم : « أيها الملازم براكل !»

وفتح باب غرفة النوم ، وخرج الملازم وقد غطى معجون الحلاقة نصف وجهه ، بينما أمسك بالفرشاة فى يده ، وقال : « نعم ؟ » .. فهز الماجور هنتر لوحة الرسم وهو يقول : « ألم تأت ركيزة لوحتى مع أمتعتنا ؟ » .. فأجاب براكل بقوله : « لست أدرى يا سيدى ، فاننى لم أبحث عنها »

ـ هلا بحثت عنها الآن ؟ يكفى اننى أحمل نفسى على العمل



فى هذا الضوء ، واننى مضطر الى رسم هذا المشروع من جديد قبل تحبيره !

وأجاب براكل : « سأبحث عنها بمجرد فراغى من ازالة لحيتى ! » . ولكن هنتر صاح فى غضب : « ان شريط التخزين الذى أرسمه يفوق طلعتك أهمية .. ابحث تحت الامتعة المتراكمة هناك عن حقيبة من المشمع تشبه فى شكلها حقيبة الجولف ! »

***

• **واختفى** « براكل » فى غرفة النوم ، بينما فتح الباب الذى يقع الى اليمين ، وأقبل الكابتن « لوفت » ، وهو يلبس خوذته ، ويحمل نظارة الميدان وسلاحا ، وعدة علب جلدية صغيرة اما معلقة فى ذراعيه أو مشدودة الى عنقه . وما أن دخل حتى أخذ يتخلص من كل ما يحمل من مهمات

ثم قال : « لا شك أن بنتيك هذا مجنون ، فقد شاهدته يخرج الى نوبتـه فى الطرقات بالقبعة الخفيفة التى يرتديها الجنود فى أوقات الراحة ! » .. ووضع نظارة الميدان على المنضدة ، وخلع خوذته ثم علبة القناع الواقى من الغازات ، فما لبثت

المهمات ان تكدست على المائدة . واذ ذاك قال هنتر : « لاتترك هذه المهمات ، فانني أريد أن أشتغل هنا . ولم لا يرتدى بنتيك قبعة خفيفة ؟ .. ان ارتداءه اياها لم يحدث أى اضطراب ، كما ان هذه الخوذات الفولاذية تضايقنى ، اذ انها ثقيلة وتحول دون الرؤية » .. فأجاب لوفت وهو يتكلف الجد : « ان خلع الخوذات أمر له تأثير سيىء على الناس هنا ، فيجب أن نحتفظ بطابعنا العسكرى ، وأن نكون دائما على أهبة الاستعداد ، وان لا نتهاون لحظة .. فاذا لم نفعل ، كنا كمن يدعو الى اثارة الاضطراب ! »

وسأله هنتر : « ما الذى يجعلك تعتقد هذا ؟ » .. فشد لوفت قامته قليلا ، و زم شفتيه كما لو كان واثقا مما يقول . وكان الكل يتوقون الى أن يفحموا لوفت ــ ان عاجلا أو آجلا ــ لفرط اعتداده بما كان يقول . وأجاب لوفت على سؤال هنتر بقوله : « انها ليست مسألة اعتقاد ، وانما كنت أردد ما ورد فى كتاب « س ــ ١٢ » عن مسلك الجنود فى البلاد المحتلة ، وهو كتاب بذل فيه كاتبه جهدا مشكورا ! » ، ثم شرع يقول : « يجب عليك أن . . . » ، ولكنه ما عتم أن قال : « عليكم جميعا أن تقرأوا « س ــ ١٢ » بعناية بالغة »

فأجابه هنتر بقوله : **ترى هل زار مؤلف هذا الكتاب الاراضى المحتلة مرة ؟ ان شعب هذه البلاد شعب هادىء ، ويبدو انه شعب ممتثل طيع يتصف بالطيبة والصلاح ! »** .. ودخل «براكل» الغرفة ، وما زال نصف وجهه يغطيه صابون الحلاقة . وكان يحمل حقيبة كالكيس الطويل ، داكنة اللون . وجاء فى أثره الملازم « توندر » ، فقال براكل يسأل هنتر : « أهذه هى ؟ »

ــ أجل . هل لك أن تفكها وتقيمها على سيقانها !

فانهمك براكل وتوندر فى اخراج الحامل من الحقيبة واقامته على سيقانه الثلاث . وبعد أن استوثقا من متانته ، وضعاه

بجوار هنتر ، وثبت الماجور اللوحة على الحامل ، ثم هزها الى اليمين والى اليسار ، واستقر خلفها آخر الامر وهو يهمهم ويدمدم .. واذ ذاك قال الكابتن لوفت : « أتعرف أن الصابون على وجهك أيها الملازم؟» . فأجاب براكل قائلا : « نعم ياسيدى ، كنت أحلق عندما طلب منى الماجور أن آتى له بالحامل » .. فقال لوفت : « اذن ، يجمل بك أن تزيله .. فقد يراك الكولونيل »

ـ انه لن يهتم للامر ، فهو لا يأبه بمسائل كهذه !

وكان توندر يقف خلف هنتر يراقبه وهو يرسم . فقال لوفت : « انه قد لا يحفل بمثل هذه الامور ، ولكن المنظر لا يسر العين ! » . فأخرج براكل منديلا ومسح ما علق بخده من الصابون ، بينما أشار توندر الى رسم صغير فى ركن لوحة الماجور ، قائلا : « هذا جسر جميل ياماجور ، ولكن أين بالله سنقيمه ؟ »

ونظر هنتر الى الرسم ، ثم التفت الى توندر الواقف خلفه ، وقال : « هه ؟ .. ليس هذا جسرا سنقيمه . ان رسم مشروعنا فى أعلى اللوحة ! »

ـ اذن ما حاجتك الى الكوبرى ؟

وبدا شيء من الحيرة على هنتر وهو يجيبه قائلا : « لقد أقمت فى الساحة الخلفية لدارى خطا مثاليا لسكة حديدية ، وكنت أريد قنطرة على جدول ماء يعترض طريقه ، وقد أتيت بالخط حتى حافة الجدول ، ولكننى لم أتمكن بعد من بناء هذا الجسر فوقه ، ففكرت فى تصميم مشروعه وأنا هنا بعيد عن الوطن »

وأخرج الملازم براكل من جيبه صفحة مطوية مطبوعة بالروتوغرافور ، فنشرها بين يديه وأخذ ينظر فيها .. وكانت صورة لفتاة أبرز ما فيها ساقاها وثوبها وأهدابها .. كانت شقراء ناضجة ، ترتدى جوربين أسودين يفضحان ما تحتهما ،

وصدارا يكشف عن نحرها . وكانت الشقراء تختلس النظر من فوق مروحة من « الدانتلا » السوداء . ورفع الملازم الصورة وهو يقول : « أليست بديعة ؟ » . فتأمل الملازم توندر الصورة بنظرة الفاحص المدقق ، وقال : « انها لا تعجبنى »

ـ وما الذى لا يعجبك فيها ؟

فأجاب توندر قائلا : « لا تعجبنى وحسب . وما الذى تريده من صورتها ؟ » .. فقال براكل : « أريد صورتها لانها تعجبنى ، وأراهن انها تعجبك أنت أيضا » .. ولكن توندر قال فى اصرار : « بل هى لا تعجبنى » . فسأله براكل قائلا : « أتعنى أنك لا تواعدها اذا استطعت الى ذلك سبيلا ؟ » .. فقال توندر : « كلا »

واذ ذاك قال براكل : « انك حقا لمجنون » . ثم سار الى احدى الستائر ، وأردف قائلا : « سأعلقها هنا وأتركك تتأملها برهة » . وثبت الصورة بدبوس فى الستارة

وكان الكابتن لوفت يجمع مهماته بين ذراعيه فى تلك اللحظة ، فقال : **« لا أعتقد أن منظرها هنا مما يليق أيها الملازم ، فيحسن أن ترفعها ، اذ لن يكون لها تأثير حسن على الشعب هنا ! »**

ورفع هنتر عينيه عن لوحته وسأل : « من تلك التى لن يكون لها تأثير حسن ؟ » ، ثم تتبع عيونهم الى الصورة وقال : « من هذه ؟ » .. فأجاب براكل : « انها ممثلة » .. وتأملها هنتر بعناية وسأله : « هل تعرفها ؟ » . فقال توندر : « انها أفاقة ! » . وهنا قال هنتر : « اذن فانت تعرفها ؟ »

وكان براكل يتفرس فى وجه توندر ، فقال : « كيف عرفت أنها أفاقة ؟ » . فأجاب الملازم : « ان مظهرها يدل على انها أفاقة »

ـ هل تعرفها ؟

ـ كلا ، ولا أريد أن أعرفها !

وشرع براكل يقول : « اذن كيف عرفت ؟ » ، ولكن لوفت

قطع عليه الحديث قائلا : ((**يحسن بك أن ترفع الصورة من هنا . علقها فوق سريرك اذا شئت ، ولكن هذه الغرفة تعتبر رسمية !**))

فنظر اليه براكل متمردا .. وكان على وشك الرد عليه عندما قال الكابتن لوفت : ((هذا أمر أيها الملازم !)) ، فطوى براكل المسكين ورقته ووضعها فى جيبه ثانية

* * *

• **وحاول** براكل ان يغير مجرى الحديث ، فقال فى ابتهاج متكلف : ((ان فى هذه البلدة فتيات جميلات ، وما ان نستقر وتسير أمورنا على ما نحب حتى أتعرف الى بعضهن !)) .. فأجابه لوفت قائلا : ((يحسن بك أن تقرأ ((س - ١٢)) ، ففيه فصل يعالج الشئون الجنسية !)) .. ثم خرج يحمل نظارته ومهماته . وكان الملازم توندر لا يزال واقفا خلف الماجور هنتر يشاهد رسمه ، فقال : ((من البراعة حقا أن تأتى سيارات الفحم من المناجم الى السفينة رأسا !))

وخفف هنتر من تركيز ذهنه فى عمله رويدا ، ثم قال : ((**يجب أن نسرع فى انجاز مهمتنا .. يجب أن ننقل الفحم سريعا ! .. انها لمهمة كبيرة ، وكم أنا شاكر للناس هنا هدوءهم وتعقلهم !**)) .. وكان لوفت قد عاد الى الغرفة دون مهماته ، ووقف بجوار النافذة يطل على الميناء ومنجم الفحم ، فقال : ((انهم هادئون عاقلون لاننا هادئون عاقلون .. أعتقد أننا نستحق التقدير على هذا ، ولذلك ما فتئت أصر على أهمية المسلك ، وقد عالجه ذلك المؤلف فى كتابه ببراعة))

وهنا فتح الباب ، ودخل الكولونيل لانسر وهو يخلع معطفه ، فحياه أركان حربه التحية العسكرية .. ولم تكن تحية صارمة عنيفة ، ولكنها كانت كافية .. فقال لانسر : ((هل لك يا كابتن لوفت أن تنزل لتحل محل بنتيك ؟ انه يشعر بتوعك ويقول انه مصاب بدوار !)) .. فأجاب لوفت : ((سمعا

وطاعة ياسيدى ، ولكن هل لى أن أذكر لك ياسيدى اننى انما فرغت من نوبتى توا ؟ » .. وتأمله الكولونيل بنظرة فاحصة وقال : « أرجو أن لا يكون هنـــاك حائل يحول دون ذهابك ياكابتن »

ـ كلا يا سيدى البتة ، وانما ذكرت ما ذكرت حتى يدون فى صفحتى !

وتنفس لانسر الصعداء ثم ضحك قائلا : « أتحب أن يذكر اسمك فى التقارير ؟ » . فقال لوفت : « لا بأس من هـــذا يا سيدى ! » . واستطرد لانسر يقول : « وعندما يتـــكرر ذكر اسمك بما فيه الكفاية ، سيزدان صدرك بوسام صغير »

ـ ان الاوسمة معالم الحياة العسكرية يا سيدى !

وتنهد لانسر قائلا : « أجل ، أعتقد هذا ، ولكنها لن تكون المعالم التى تخلد فى ذاكرتك يا كابتن » .. فســـــأله لوفت مستفسرا : « سيدى ؟ »

ـ لعلك تدرك ما أعنى .. فيما بعد !

وعاد الكابتن يتزود بمهماته من جديد فى سرعة وعجلة ، وقال : « اننى ذاهب ياسـيدى » . ثم خرج . وسمع وقع أقدامه على الدرج الخشبى ، وهو يهبط ، فراقبه براكل فى شيء من المرح ، وقال فى هدوء : « هاهو ذا جندى مطبوع ! » . فرفع هنتر عينيه وتلاعب بالقلم الرصاص وهو يقول : « بل حمار مطبوع ! »

فأجاب لانسر بقوله : **« كلا ، انه جندى يسلك فى الجندية الطريق الذى يسلكه كثيرون من الناس ليصبحوا من الساسة .. ولن ينقضى وقت طويل حتى يكون عضوا فى هيئة أركان الحرب العليا ، وسينظر الى الحرب من عل ، وهكذا يحبها دائما »**

وقال الملازم براكل : « متى تنتهى الحرب فيما نحسب ياسيدى ؟ »

ـ تنتهى ؟ تنتهى ؟ ماذا تعنى ؟

واستطرد الملازم براكل يقول : « متى نحرز النصر ؟ » .. فهز لانسر رأسه قائلا : « لست أدرى ، فما زال العدو على قيد الحيـــاة ! » .. وأردف براكل بقوله : « ولـكننا سنوقع به الهزيمة » . فقال لا نسر : « حقا ؟ »

ـ ألن نحرز النصر ؟

ـ بل سنحرزه ، فهذا ديدننا على الدوام !

وقال براكل فى لهجة كلها انفعال : « حســـنا ، اذا أحرزنا النصر فى تاريخ قريب من عيد الميلاد ، أفتظن أنهم يسمحون لنا ببعض الاجازات ؟ » . فأجاب لانسر قائلا : « لست أدرى ، فان مثل هذه الاوامر يجب أن تصدر من الوطن . أتريد العودة الى الوطن لقضاء عيد الميلاد ؟ »

ـ اننى لأتوق لهذا بالفعل !

فقال لانسر : « ربما تحقق لك هذا » . وكرر قوله : « ربما تحقق لك هذا » .. فتساءل الملازم توندر : « هل سننسحب من هذه البلاد ياسيدى بعد أن تضع الحرب أوزارها ؟ »

واذ ذاك أجاب الكولونيل قائلا : « لست أدرى ، ولكن فيم هذا السؤال ؟ » .. فقال توندر : « انها بلاد ظريفة وشعبهـــا شعب ظريف ، بل ان رجالنا ـ أقصد بعضهم ـ قد يفكرون فى الاستقرار هنا ! »

وسأله لانسر مداعبـــا : « لعلك رأيت مكانا أعجبك ؟ » . فأجاب توندر : « ثمة مزارع جميلة هنا ، ولو أن أربعا أوخمسا منها قد ضمت معا لاصبح المكان من أحسن الاماكن للاستقرار فيما أعتقد ! » . فسأله لانسر : « ألم ترث أرضا عن أسرتك ؟ »

ـ لم يعد لنا أرض ياسيدى ، فقد ذهب بهـــا التضخم النقدى !

وأدرك لانسر التعب من محادثة هؤلاء الزملاء فقـــال : **« حسنا ، مازالت أمامنا حرب نخوض غمارها ، ومازال هناك فحم يجب علينا استخراجه . أتعتقد أننـــا نستطيع الانتظار**

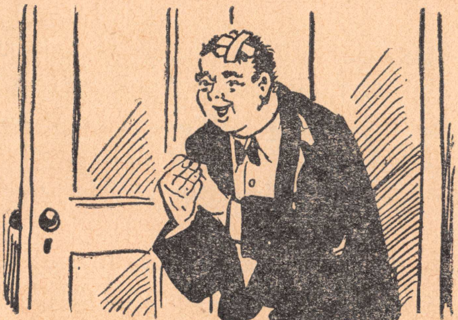
حتى تضع الحرب أوزارها قبل أن نصلح من شأن هذه المزارع؟ ان مثل هذه الاوامر يجب أن تصدر من السلطات العليا .اسأل فى ذلك الكابتن لوفت ، فيحدثك الحديث الوافى ! » . ثم تغيرت ملامحه وقال : « سيصل الفولاذ الى هنا غدا ياهنتر ، ويمكنك البدء بمد خطوطك الحديدية هذا الاسبوع ! »

* * *

وطرق الباب طارق . ثم أطل راس أحد الحراس من الباب وقال : « ان المستر كوريل يريد مقابلتك ياسيدى»، فقال الكولونيل : « أدخله ! » .. ثم تحول الى الآخرين وقال : « انه الرجل الذى قام بالعمل التمهيدى هنا ، وربما لاقينا بعض المتاعب منه ! »

وتساءل توندر : « هل أدى عملا هاما ؟ » . فقال الكولونيل: **« أجل ، لقد أدى لنا مهمة كبيرة ، ولهذا لن يكون محبوبا من الشعب هنا ، ولست أدرى هل سنحبه نحن أم لا ! »** .. فقال توندر : « انه جدير بالتقدير ولا شك » . فقال لانسر : « أجل، ولكن .. هل تظن أنه لن يطالب بالجزاء قبل أن نجزيه من تلقاء أنفسنا ؟ »

ودخل كوريل وهو يفـــرك يديه ، وقد بدت عليه روح



الزمالة والنوايا الطيبة . وكان لايزال مرتديا زى رجال الاعمال الاسود اللون ، وان بدت حول رأسه ضمادة بيضاء اختلطت أطرافها بشعره ، وقد ثبتت فى وضعها بشريط لصق على شكل الصليب . وتقدم الى وسط الغرفة ، ثم قال : « صباح الخير ياكولونيل . كان من الواجب أن أزورك أمس بعد الحوادث التى وقعت ، ولكننى قدرت كثرة مشاغلك » . فقال الكولونيل : « عم صباحا ! » ، ثم أشار بيده الى الحاضرين ، وقال : « هؤلاء ضباط هيئة أركان حربى يامستر كوريل » .. فقال كوريل : **« انهم فتية بارعون ، فقد أدوا مهمة عظيمـــة ، عملت أنا من ناحيتى على تمهيدها لهم »**

وأحنى هنتر رأسه على مكتبه ، وتناول قلم حبر غمسه فى المحبرة ، ثم بدأ فى تحبير اللوحة التى رسمها .. وقال لانسر لكوريل : « انك قمت بعمل جليل ، وان كنت قد تمنيت لو انك لم تقتل أولئك الاشخاص الستة . ليت جنودهم لم يعودوا الى البلدة ! » .. ففتح كوريل يديه وقال باستخفاف : « ان قتل ستة رجال يعد خسارة تافهة بالنسبة لبلدة بهذا الحجم ، وفيها منجم للفحم كذلك ! » .. فقال لانسر بحدة : **« لست أنكر القتل اذا كان يؤدى الى الغاية ، ولكن من الخير أحيانا أن لا نلجأ اليه ! »**

وأخذ كوريل يتفحص الضباط ، ثم قال وهو يشير بعينيه اليهم : « هل يمكننا أن نتحدث على حدة ياكولونيل ؟ » . فقال لانسر : « أجل ، اذا كنت تريد ذلك » .. ثم طلب من الملازم « براكل » والملازم « توندر » أن يذهبا الى غرفتهما ، ثم قال لكوريل : « ان الماجور هنتر يعمل الآن ، وهو لايسمع شيئا حينما يكون منهمكا فى العمل »

ورفع هنتر رأسه عن لوحته ، وابتسم بهدوء ، ثم عاود العمل . بينما ترك الضابطان الشابان الغرفة . فلما بارحاها ، قال لانسر لكوريل : « حسنا ، هانحن قد خلونا الى أنفسنا ،

فتفضل بالجلوس »

وجلس كوريل الى المائدة وهو يقول : « شكراياسيدى » .
فحدق لانسر فى الضمادة التى على رأس الرجل ، وقال بفتور :
« أتراهم شرعوا فى اغتيالك بهذه السرعة ؟ »

فتحسس كوريل الضمادة بأصابعه وقال : « أتقصدهذه ؟
آه ، انها من أثر حجرسقط - من ربوة صباح اليوم »

ـ أواثق أنت من أنه لم يلق عليك عمدا ؟

ـ ماذا تعنى بهذا ؟.. أن الشعب هنا لايعرف العنف ، ولم ير حربا منذ مائة عام . وقد نسى القتال وكل ما يتصل به!

ـ انك عشت بينهم ، فخليق بك أن تكون على معرفة بهم!

ثم اقترب الكولونيل من كوريل وقال : « ولكن ، اذا كنت فى أمان حقيقة فلا بد أن يكون هذا الشعب مختلفا عن غيره من شعوب العالم بأسره ! اننى لا ألقى الكلام على عواهنه ، فقد سبق أن اشتركت فى احتلال أقطار ، فذهبت الى بلجيكا منذ عشرين عاما ، وكذلك فرنسا » .. ثم هز رأسه ، وكأنه يريد أن ينزع منه هذه الفكرة . وما لبث أن استطرد يقول : « انك أديت مهمة طيبة تستحق عليها الشكر ، وقد أشرت الى عملك فى تقريرى »

ـ شكرا لك ياسيدى ، لقد بذلت مافى وسعى

وقال لانسر بشىء من الملل : « حسنا ياسيدى ، ماذا نفعل الآن ؟.. هل تريد العودة الى العاصمة ؟ يمكننا أن ننقلك باحدى سفن نقل الفحم ، اذا كنت فى عجلة من أمرك ، أو بمدمرة اذا أردت التريث قليلا ! »

ـ ولكنى لا أريد العودة ، اذ انى أفضل البقاء هنا

وفكر لانسر برهة ثم قال : « انك تعلم أن ليس تحت امرتى جنود كثيرون ، ولهذا لايمكننى أن أوفر لك الحراسة المناسبة »

ـ ولكننى لا أريد حرسا ، وقد قلت لك ان الناس هنا

لا يعرفون العنف !

فوجه لانسر نظره الى الضمادة ، كما رفع هنتر رأسه وقال: « خير لك أن تضع خوذة على رأسك ! » .. ثم عاد الى عمله !

* * *

• وانحنى كوريل قليلا فى مقعده وقال : « لقد أردت أن أحدثك ياكولونيل بصفة خاصة ، اذ أظن أن فى وسعى أن أسدى يدا فى الادارة المدنية » . فدار لانسر على عقبيه ، وسار نحو النافذة وتطلع منها ، ثم عاد وقال بهدوء : « فيم تفكر ؟ »

ـ لابد أن هناك سلطة مدنية يمكنك اسنادها الى .. فانى أعتقد أن هذا هو الوقت الذى قد يتخلى فيه العمدة أوردن عن منصبه و .. حسنا !.. اذا توليت أنا هـذا المنصب ، فسوف يصبح عمل العمدة منسجما كل الانسجام مع الادارة العسكرية !

وبدا كأن عينى لانسر قد اتسعتا واشتد بريقهما ، ثم تقدم نحو كوريل وقال بحدة : « هل ذكرت هذا فى تقريرك ؟ »

ـ أجل . لقد ذكرته بطبيعة الحال ، فى تحليلى للموقف !

ـ هـل تحدثت مع أى شخص من أهل البلدة منـذ وصولنا اليها ؟

ـ لا ، فالناس لايزالون مشدوهين الى حدما ، لانهم لم يكونوا يتوقعون ما حدث !

وغص حلقه وهو يزدرد لعابه ، ثم تابع حديثه قائلا : « لا ياسيدى ، انهم قطعا لم يتوقعوا أن تتطور الاحوال بهـذا الشكل ! »

ـ أى أنك لا تعرف فى الواقع مايدور فى أذهانهم !

ـ انهم كما قلت مأخوذون .. انهم .. انهم فى شبه حلم !

ـ أتراك لا تعرف مايظنونه فيك ؟

ـ ان لى أصدقاء عديدين هنـا . بل اننى أعرف كل الناس !

- هل اشترى أحد شيئا من متجرك فى هذا الصباح ؟

- **ان الاعمال راكدة بطبيعة الحال ، وليس هناك من يشترى شيئا !**

وخفت حدة لانسر فجأة ، ثم تقدم نحو مقعد وجلس ، ووضع ساقا على ساق . وقال بهدوء : « ان الخدمة التى أديتها هى فى الواقع مهمة شاقة تحتاج الى الشجاعة ، ويجب أن تكون مكافأتك عظيمة ! »

- شكرا ياسيدى

- ولكنهم سوف يكرهونك على مر الايام !

- أستطيع احتمال هذا ياسيدى ، انهم العدو !

وتردد لانسر برهة طويلة قبل أن يتحدث ثم قال بلطف : **« انك لن تكسب .. حتى احترامنا نحن ! »** .. فقفز « كوريل » عن مقعده ثائرا ، وقال : « ان هذا يناقض كلمات الزعيم الذى قال ان جميع أنواع العمل مشرفة على السواء ! » .. ولكن لانسر قال فى هدوء : « وددت لو أن الزعيم يعرف ، وأن يتمكن من قراءة أفكار الجنود ! » .. ثم أضاف فى لهجة تكاد تكون مقرونة بالعطف : « يجب أن تكافأ مكافأة عظيمة ! »

وسكت لانسر برهة ، ثم جمع نفسه وقال : « والآن يتعين ان نحدد الامور .. فأنا المسئول عن كل شىء هنا ، ومهمتى هى استخراج الفحم من المناجم ، ولكى أصل الى هذه الغاية ، يجب أن أحافظ على الامن والنظام .. ولكى أفعل هذا يجب أن أعرف مايدور فى عقول هذا الشعب ، ولا معدى لى عن أن أتوقع الثورة .. هل فهمت ؟ »

- حسنا ، ان فى وسعى أن أهتدى الى ماتود معرفته ياسيدى ، وسوف أكون عظيم النفع كعمدة للبلدة !

فهز لانسر رأسه وقال : « ليس لدى أوامر بهذا الشأن ، ولهذا فلا معدى لى عن أن أحكم على الامور بنفسى ، **وأعتقد أنك سوف لا تعرف بعد الآن شيئا عما يدور فى هذه البلدة ،**

واظن أنه ما من انسان سيتحدث معك ، ولن تجد أحداً يقترب منك ، الا الذين يعيشون على المال .. أى الذين لا يمكنهم أن يعيشوا الا على المال وحده ! وأرى أنك ستكون فى خطر كبير اذا تجردت من الحراسة ، ولسوف يسرنى أن تعود الى العاصمة ، لكى تكافأ أيضا على عملك الكبير ! »

ـ ولكن مكانى هنا ياسيدى ، وقد حددت مركزى ، وكتبت عن كل هذا فى تقريرى !

فاستطرد لانسر يقول وكأنه لم يسمع كلام كوريل : « ان أوردن أكثر من عمدة هنا .. انه الشعب !.. وهو يعرف ما يفعله الشعب وما يفكر فيه ، دون أية حاجة للسؤال عن هذا ، لانه يفكر فيما يفكر فيه هذا الشعب ، ويكفى أن أراقبه لاعرف كل شيء عن الشعب ، ولهذا يجب أن يبقى .. هذا هو رأيى ! »

ـ ان عملى ياسيدى جدير بما هو خير من الابعاد

ـ ان هذا صحيح فى الواقع ، ولكنك أصبحت أكثر ضررا للعمل الاكبر ، واذا لم تكن مكروها الآن ، فلن تلبث أن تصبح كذلك ، وستكون أول من يقتل فى أية ثورة صغيرة ، ولهذا أعتقد أننى سأقترح اعادتك الى العاصمة !

فقال كوريل بحدة : « ستسمح لى طبعا بانتظار الرد على التقرير الذى أرسلته الى العاصمة ؟ »

ـ سأفعل هذا بطبيعة الحال ، ولكنى سأوصى باعادتك حرصا على سلامتك . واذا أردت الصراحة يامستر كوريل ، أقول لك انه لم تعد لك قيمة هنا ! ولعله من الخير لك أن ترحل الآن الى بلدة أخرى فى قطر آخر ، وربما أتيح لك هناك أن تتولى السلطة فى بلدة أكبر ، وقد تسند اليك مهمة ادارة مدينة لا بلدة ، وتتاح لك مسئولية أكبر ، وسلطة أعظم ، وسوف تتهيأ لك الفرصة لتكسب ثقة جديدة فى ميدان جديد ، وربما تعين على أن أقدم خير توصية بشأنك تقديرا لخدماتك الجليلة التى

أديتها هنا !

وشعت عينا كوريل ببريق الامتنان ، وقال : « شكرا لك ياسيدى ، لقد قمت بمجهود شاق ، وقد تكون على حق فى أقوالك ، ولكنى أرجو أن تسمح لى بالبقاء هنا حتى أتلقى ردا من العاصمة ! »

فقال لانسر فى حزم وقد ضاقت عيناه واخشوشن صوته: « ضع خوذة على رأسك ، والتزم دارك ، ولا تخرج فى الليل . ولعل أهم الامور جميعها هو أن لا تشرب شيئا من الخمر ، ولا تثق بأية امرأة أو أى رجل . هل فهمت هذا ؟ »

فنظر كوريل الى الكولونيل مشفقا وقال : « لا أخالك تفهم الموقف .. ان لى منزلا صغيرا تخدمنى فيه فتاة قروية لطيفة ، أعتقد أنها تكن لى شيئا من الود . وهؤلاء الناس قوم مسالمون ، وانى لاعرف ذلك ! » .. فقال لانسر : **« ليس هناك قوم مسالمون ، فمتى تراك تفهم ذلك ؟ .. ألا تستطيع أن تدرك أن هذا الشعب ليس صديقا لنا ؟ ! .. اننا غزونا هذه البلاد ، وقد هيأت لنا أنت ذلك بما يعتبرونه غدرا وخيانة ! »** .. واحمر وجه لانسر ، وارتفع صوته وهو يقول : « ألا يمكنك أن تفهم اننا فى حرب مع هذا الشعب ؟ »

فقال كوريل بشىء من الاستخذاء : « لقد هزمناه ! » . واذ ذاك هب الكولونيل واقفا وطوح ذراعيه فى يأس ، فرفع هنتر رأسه عن لوحته ، ووضع يده عليها حتى لا تهتز ، ثم قال : « مهلا ياسيدى ! اننى أحبر الرسم ، ولا أود أن أعيد تحبيره من جديد ! » . فنظر اليه لانسر وقال : « آسف ! » . ثم استطرد وكأنه معلم يلقى درسا على فريق من الطلبة : « ان الهزيمة عرض وقتى لا يدوم ! وقد سبق لنا أن تذوقنا الهزيمة ، وهاأنتذا تجدنا الآن نغزو .. أعنى أن الهزيمة ليست ذات قيمة . ألا تفهم هذا ؟ أتعرف ما يتهامسون به خلف الابواب الموصدة ؟ » .. فقال كوريل : « أو تعرفه أنت ؟ » .

ــ لا ، ولكنى أستطيع التخمين !

فقال كوريل ساخرا : « أتراك خائفا ياكولونيل ؟ هل يخاف قائد الاحتلال ؟ » .. وهنا جلس لانسر وهو يقول : « ربما كان الامر كذلك ! » .. ثم أضاف قائلا بشيء من الاشمئزاز : « لقد سئمت أولئك الذين لم يسبق لهم أن اشتركوا فى حرب، ويدعون أنهم يعرفون كل شيء عنها ! » .. وأمسك ذقنه بيده ثم قال : « اننى أتذكر سيدة كانت فى بروكسل .. سيدة ضئيلة الجسم ، متقدمة السن ، ذات وجه صبوح وشعر أبيض .. لم يكن طولهـــا يزيد على متر ونصف المتر .. وكانت لها يدان رقيقتان ، تستطيع أن ترى عروقهما بارزة من تحت جلدهما فى لون يكاد يكون أسود !.. وكانت تغطى رأسها الاشيب بوشاح أسود اللون . وقد اعتادت أن تغنى لنا أناشيدنا القومية فى صوت حلو مرتعش !» .. وأنزل الكولونيل يده من تحت ذقنه ، وخفت صوته وهو يتحدث ، فبدا كما لو كان نائما : « ولم نكن نعلم أن لها ابنا نفذ فيه حكم الاعدام .. **وقد اضطررنا فى النهاية الى قتلها رميا بالرصاص ، بعد أن قتلت اثنى عشر جنديا من رجالنـــا بدبوس طويل من النـــوع الذى يستخدم فى تثبيت القبعات على الرأس !** وما زلت أحتفظ بهذا الدبوس فى دارى .. انه طويل مدبب السن ، تعلوه حلية تشبه الطائر ، ذات لون أحمر وأزرق »

فقال كوريل : « ولكنكم أعدمتموها .. أليس كذلك ؟ »

ــ أجل .. لقد أعدمناها رميا بالرصاص طبعا .

فسأله كوريل : « وهل توقفت حوادث الاغتيـــال بعـــد ذلك ؟ »

ــ لا ، لم تتوقف ، وانما ظلت مستمرة . وعندما انسحبنا عمد الناس الى عزل المتخلفين من جنودنا ، وأحرقوا بعضهم ، وفقأوا أعين آخرين .. بل انهم صلبوا بعضا منهم !

فصاح كوريل بصوت عال : « هذه أشياء ينبغي أن لا تقال

ياسيدى الكولونيل ! »

ـ بل انها أشياء يجب ذكرها !

ـ ما كان ينبغى أن تتولى القيادة مادمت خائفا !

فقال لانسر بلطف : « هاأنت ذا ترى اننى أعرف كيف أقاتل ، ومادام المرء يعرف ذلك فليس له أن يرتكب أخطاء سخيفة ! »

ـ هل تتحدث بهذا الاسلوب مع صغار ضباطك ؟

فهز رأسه وقال : « لا ، لانهم لن يصدقوننى ! »

ـ فلم اذن تحدثنى به ؟

ـ لان مهمتك قد انتهت يامستر كوريل . وانى لاذكر انه حدث ذات مرة أن ...

* * *

• **وقطع** عليه حديثه صوت أقدام تصعد السلم مسرعة ، ثم فتح البـاب فى عنف ، وظهر حارس ، اندفـع من ورائه الكابتن لوفت بوجه مكتئب فى صرامة الرجل العسكرى وقال :

« هناك اضطرابات ياسيدى ! »

ـ اضطرابات ؟ !

ـ آسف اذ أرانى مضطرا لابلاغكم بأن الكابتن بنتيك قد قتل !



ــ آه .. بنتيك !

وسمع صوت وقع أقدام على الدرج ، ثم دخل رجلان يحملان محفة عليها شخص مغطى بالبطاطين ، فقال لانسر : « أمتأكد أنت من أنه مات ؟ »

فأجاب لوفت فى جزم : « أجل ياسيدى ، انني متأكد من ذلك كل التأكيد ! »

وجاء الضباط الآخرون من غرفة النوم ، وقد ظهرت عليهم آيات الفزع ، ووقفوا مشدوهين ينظرون الى زميلهم المسجى على المحفة وقد فغروا أفواههم . وقال لانسر : « ضعوا المحفة هناك ! » ، وأشار نحو الجدار بجانب النوافذ . وعندما خرج الحمالان ــ اللذان كانا يرفعان المحفة ــ ركع لانسر ورفع طرف البطانية ، ولكنه لم يلبث أن رده بسرعة ، وقال وهو لايزال جاثيا على الارض : « من فعل هذا ؟ »

فقال لوفت : « أحد عمال المناجم »

ــ ولماذا ؟

ــ لقد كنت هناك ياسيدى وشاهدت الحادث

ــ ادل الى بتقـــريرك اذن ! قل ما رأيت !.. ماذا بك يارجل ؟.. قل وأسرع .. لعنة الله عليك !

فاستجمع لوفت أنفاسه وقال بلهجة رسمية : « **لقد ذهبت لأحل محل الكابتن بنتيك كما أمرني سيدى الكولونيل ، وعندما أوشك الكابتن بنتيك على الرحيل عائدا الى هنا ، لاقيت بعض المتاعب من عامل عنيد أراد ترك العمل ، وصاح بأقوال معناها أنه رجل حر ، فلما أمرته بمواصلة العمل ، هاجمني بمعول ، فحاول الكابتن بنتيك التدخل** » .. ثم أشار لوفت نحو الجثة ، فأحنى لانسر رأسه ببطء وهو لايزال جاثيا على ركبتيه ، وقال : « لقد كان بنتيك رجلا غريب الاطوار ، وكان يحب الانجليز وكل مايمت اليهم بصلة ، ولا أعتقد أنه كان يحب القتال ! .. هل قبضت على الجاني ؟» .. فقال لوفت : « أجل ياسيدى » . واذ

ذاك نهض لانسر فى تؤدة ، وقال وكأنه يحدث نفسه : « اذن ، فقد تجدد القتال مرة أخرى !.. سنعدم هذا الرجل ، وبهذا نخلق لنا عشرين عدوا جديدا !.. انه الشىء الوحيد الذى نعرفه .. انها الوسيلة الوحيدة التى نملكها ! »

فقال براكل : « ماذا قلت ياسيدى ؟ » .. فأجاب لانسر : « لاشىء .. لاشىء على الاطلاق . انما كنت أفكر ، وهذا كل مافى الامر ! » .. ثم تحول الى لوفت وقال : « أرجو أن تبلغ العمدة أوردن تحياتى ، وتطلب اليه أن يأتى لمقابلتى فى الحال لامر غاية فى الاهمية »

ورفع هنتر رأسه ، ثم جفف قلمه بدقة وتؤدة ، ووضعه فى علبة مكسوة بالمخمل

الفصل الثالث

• **كان** الناس يمشون فى شوارع البلدة وعلى ملامحهم أمارات الكآبة والعبوس ، وقد اختفى من أعينهم بعض بريق الدهشة التى أعترتهم عندما باغتهم العدو بغزو بلدتهم . على أن لهيب الغضب حل محل الدهشة .. فكان العمال فى منجم الفحم يدفعون العربات أمامهم وقد تجهمت أساريرهم .. بينما وقف صغار التجار وراء مناضد البيع فى متاجرهم متأهبين لخدمة العملاء ، دون أن يسعى اليهم أحد .. كان كل انسان يفكر فى الحرب ، ويفكر فى نفسه ، ويفكر فى الماضى الذى تغير فجأة !

وفى قاعة الاستقبال بدار العمدة أوردن ، كانت الانوار مضاءة ، والنار مشتعلة للتدفئة ، بينما كان الجو فى الخارج مظلما شيئا ما ، ومثقلا بالرطوبة . وكانت القاعة نفسها قد تعرضت لبعض التغيير ، فاذا المقاعد المكسوة بالقماش المزركش قد دفعت الى الوراء – لصق الجدران – وأزيحت الموائد الصغيرة من وسط الغرفة .. وعند الباب ظهر جوزيف وآنى وهما يناضلان فى ادخال مائدة كبيرة مربعة ، أمالاها على أحد جوانبها .. وكان جوزيف قد دخل القاعة ، بينما ظلت آنى – بوجهها الاحمر – خارجها .. وأخذ جوزيف يحاول جاهدا أن يدخل سيقان المائدة خلال الباب

وكانت آنى غاضبة .. بل انها كانت تبدو على الدوام غاضبة ، فلم يتحسن طبعها برغم وجود الجنود ، واحتلال البلدة .. **فان هذا المظهر – الذى ظل أعواما يعد من العيوب والنقائص – أصبح الآن عاطفة وطنية ، أكسبت آنى بعض الشهرة فى الناحية القومية ، لاسيما بعد أن قذفت جنود الاحتلال بالماء الساخن . وكانت فى الواقع خليقة بأن تلقى بهذا**

الماء الساخن فى وجه أى شخص يقترب من مطبخها – فى الاوقات العادية – ولكنها مع هذا أصبحت بطلة ! ولما كان الغضب بداية نجاحها ، فقد مضت تزيد من مظاهر غضبها ، حتى أصبح هذا الغضب طابعها الدائم . وبهذا أخذت تخرج من نجاح لتدخل فى آخر . وقال جوزيف عندما حشرت المائدة فى المدخل : « لاتدفعى .. تمهلى قليلا ! »

– اننى متمهلة !

وترك جوزيف المائدة ووقف بعيدا يدرس وضعها ، بينما وقفت آنى مكتوفة اليدين تنظر اليه فى غضب . ثم أمسك جوزيف بساق المائدة وقال : «لاتدفعيها !.. لاتدفعيها بشدة» . وبشىء من الجهد تمكن بمفرده من ادخال المائدة ، فتبعته آنى مكتوفة الذراعين، حتى اذا صارت المائدة فى داخل الغرفة ، طلب الى آنى أن تساعده فى اقامتها على سيقانها ونقلها الى منتصف القاعة ، فقالت آنى : « لو أن صاحب السعادة العمدة لم يأمرنى لما فعلت ما فعلت الآن ! أى حق لهم فى نقل الموائد ؟ » .. فقال جوزيف : « وبأى حق جاءوا الى هنا ؟ »

– لاحق لهم على الاطلاق !

– أجل ، لاحق لهم ، ولكنهم يفعلون هذا بفضل مدافعهم ومظلاتهم ياآنى !

– ليس لهم أى حق فى كل هذا . ولكن ماذا يريدون مع هذا من نقل مائدة الى هنا ؟ .. ان هذه ليست قاعة طعام !

ونقل جوزيف مقعدا الى جوار المائدة ، ثم وضعه بدقة كبيرة فى الوضع المناسب ، وقال : « انهم سيعقدون محاكمة ، وسيحاكمون ألكسندر موردن »

– زوج مولى موردن ؟

– أجل ، زوج مولى موردن !

– ألأنه ضرب ذلك المخلوق بالمعول ؟

– أجل !

ـ ولكنه رجل لطيف ، ولا حق لهم فى محاكمته ! .. لقد أهدى مولى ثوبا جميلا أحمر اللون فى عيد ميلادها . قل لى ، بأى حق يحاكمون ألكسندر ؟

ـ لأنه قتل ذلك الشخص

ـ وهب أنه فعل ذلك ، فأى وزر فى الامر ؟.. لقد كان ذلك المخلوق يصدر الاوامر لألكسندر بأن يعمل هذا وذاك . والكسندر لا يحب أن يتلقى أوامر من أحد .. فقد كان يوما ما ((شيخ)) البلدة ، وكذلك كان والده !.. وان مولى موردن لتجيد صنع الفطائر اللذيذة ، وان كانت حلاوتها تزيد على المألوف !.. وماذا تراهم سيفعلون بألكسندر ؟

ـ سيعدمونه رميا بالرصاص !

ـ انهم لايستطيعون أن يفعلوا ذلك !

ـ احضرى المقاعد ياآنى . ان فى امكانهم أن يفعلوا ذلك ، وسيفعلونه !

فلوحت آنى بأصبعها فى وجهه بعنف وهى تقول فى غضب: « تذكر كلماتى هذه ! ان الناس لن يرضوا بأن يصاب الكسندر بأذى ، لانهم يحبون ألكسندر ! هل سبق له أن مس أحدا بأذى ؟ .. أجب عن هذا ! »

ـ لا ، لم يسبق له أن فعل شيئا كهذا !

ـ اذن فالامر واضح .. واذا هم قتلوا ألكسندر ، فسوف يجن الناس ، وسأجن أنا أيضا ، ولن أوافق على هذا ، ولن أحتمله !

ـ وماذا ستفعلين ؟

ـ ماذا ؟ سأقتل بعضهم بنفسى !

ـ وعندئذ يعدمونك !

ـ ليفعلوا ذلك !.. اسمع ياجوزيف ، ان الامور قدتتطور وتذهب الى مدى بعيد .. ألا يكفيهم أن يذرعوا الشوارع فى جميع ساعات الليل وهم يقتلون الناس ؟ !

ووضع جوزيف مقعدا عند رأس المائدة ، ثم تغيرت حاله فجأة ، فبدا كمن يضمر سرا خطيرا .. اذ نادى آنى بصوت يقرب من الهمس ، فتريثت قليلا وقد أوجست من لهجته ، ثم اقتربت ، فسألها : « هل تصونين سرا ؟ » .. فحدجته بشيء من العجب ، اذ أنها ماعرفته يوما يحتفظ بسر ، وقالت : «أجل . فما هو هذا السر ؟ »

ـ لقد هرب وليم ديل ووالتر دوجل فى الليلة الماضية !

ـ هربا ؟ الى أين ؟

ـ سافرا الى انجلترا فى سفينة !

وزفرت آنى بسرور وسألته : « وهل يعرف الجميع هذا؟»

ـ لا ، ليس كل الناس .. أو على الاصح الجميع يعرفونه ماعدا ... وأشار بأصبعه الى الطابق العلوى ، فقالت آنى :



« ومتى سافرا ؟ ولماذا لم أسمع أنا عن هذا ؟ »

ـ لقد كنت مشغولة .. **هل تعرفين ذلك الشخص : كوريل ؟**

ـ أجل ..

فاقترب منها جوزيف وقال : **« ما أظنه سيعيش طويلا ! »**

ـ ماذا تعنى ؟

– الجميع يقولون ذلك !

فتنهدت آنى مغتبطة وقالت : « آه .. ها ! » .. ومالبث جوزيف أن عاد يقول مبديا رأيه : « ان الناس أخذوا يتقاربون، فهم لا يقبلون الهزيمة ، وسوف تقع أمور .. فافتحى عينيك يا آنى ، اذ انك لن تلبثى أن تجدى امورا كثيرة فى وسعك أن تؤديها ! »

– وما موقف سعادة العمدة ؟ ماذا تراه فاعلا ؟

– لا أحد يعرف ، فهو لا يقول شيئا

– لايمكن أنيكون مناهضا لنا !

– انه لم يقل شيئا من هذا

ودار مقبض الباب القائم الى اليسار ، ثم انفتح الباب ودخل العمدة أوردن وهو يسير بتؤدة ، وقد ظهرت عليه علامات التعب وكبر السن . ودخل وراءه الدكتور وينتر ، فقال أوردن : « هذا تنظيم حسن ياجوزيف .. اشكرك ياآنى .. ان المنظر عامةيبدو على خير مايرام ! » .. وخرج الخادمان حتى اذا أصبحا خارج الغرفة ، استدار جوزيف ونظر خلال بابها برهة قبل أن يغلقه .

* * *

• وسار العمدة أوردن الى المدفأة ، فوقف وظهره اليها ، بينما سحب الدكتور وينتر المقعد الموضوع عند رأس المائدة وجلس عليه . وما لبث أوردن أن قال : « لست أدرى الى متى يطول بقائى فى هذا المنصب ؟ .. ان الشعب لايثق بى تماما .. وهذه أيضا حال العدو . ولست ادرى ان كان فى هذا أى خير ! » .. فقال وينتر : « ولا أنا أدرى . ولكنك تثق بنفسك .. أليس كذلك ؟ .. انك لا تشعر بأى قلق ازاء مسلكك ؟ ! »

– قلق ؟ لا . اننى العمدة ، ولكنى مع هذا لا أفهم أمورا عديدة .. فلست أعرف مثلا لماذا يعقدون المحاكمة هنا ؟ .. انهم سيحاكمون الكسندر موردن هنا بتهمة القتل .. هل

تتذكر موردن ؟ .. انه زوج تلك الفتاة الرقيقة مولى !
ـ انني أذكرها ، فهي الفتاة التي كانت تتولى تدريس قواعد اللغة في المدرسة . أجل انني أذكرها جيدا ، فهي جميلة وتكره أن تضع « النظارة » على عينيها حينما تضطر الى استعمالها ! .. أظن أن الكسندر قتل ضابطا .. حسنا ، ولكنهم لم يجروا أي تحقيق معه !
فقال اوردن بمرارة : « لم يحقق معه أحد . ولكن لماذا يحاكمونه ؟ لماذا لم يعدموه رميا بالرصاص ؟ انها ليست مسألة شك أو يقين ، ولا ظلم أو عدل .. لا ، ليس الامر كذلك هنا ، فلماذا يصرون على أن يحاكموه ، وأن يحاكموه هنا في داري بالذات ؟ »
ـ أظن أن الغرض هو المظهر فقط ، واعتقد أن لهم هدفا من وراء ذلك . انك اذا بحثت في الموضوع من الناحية الشكلية عرفت السر .. والناس يقنعون أحيانا بالشكليات . لقد كان لدينا جيش ـ أعني جنودا مزودين بالبنادق ـ ولكنه لم يكن جيشا بالمعنى الحقيقي ، وانما كان مظهرا للجيش .. **وكذلك سيقيم الغزاة محاكمة على أمل أن يقنعوا الناس بأنهم أمناء على العدالة .. وانك لتعلم أن الكسندر قتل الكابتن !**
ـ أجل .. انني أعرف ذلك
فاستطرد الدكتور وينتر قائلا : « فاذا تم ذلك في منزلك الذي ينتظر الناس منه العدالة .. »
وقطع حديثه ، اذ فتح الباب القائم الى اليمين ، وولجت سيدة شابة في نحو الثلاثين من العمر ، جميلة الطلعة ، تمسك « نظارة » في يدها . وكان زيها بسيطا ونظيفا .. أما هي فكانت منفعلة ، مهتاجة ، بادرت الى الحديث في لهجة سريعة ، قائلة : « لقد أبلغتني آني أن في استطاعتي الدخول رأسا ياسيدي ! »
.. فقال العمدة : « لابد أنك مولى موردن ؟ »
ـ أجل ياسيدي ، أنا مولى . انهم يقولون ان الكسندر

سيحاكم ويعدم !

فأحنى « أوردن » رأسه ، وثبت نظره فى الارض برهة ، بينما تابعت مولى حديثها قائلة : **« انهم يقولون أنك أنت الذى سيصدر الحكم عليه ، وان كلماتك هى التى ستقضى عليه ! »** .. فجفل أوردن ، ورفع رأسه قائلا : ماهذا ؟ .. من يقول هذا ؟ »

ـ الناس فى البلدة !

وانتصبت قامتها ، وهى تتساءل فى رجاء مقترن بالحزم : « انك لن تفعل هذا ! .. أليس كذلك ياسيدى ؟ »

وقال الدكتور وينتر : « انه لسر عظيم ! .. انه سر حير الحكام فى جميع ربوع العالم .. الا وهو : كيف يعرف الناس خوافى الامور .. **وهذا ما يحير الغزاة الآن ، كما قيل لى . فقد أصبحوا لايدرون كيف تتسرب الانباء برغم الرقابة ، وكيف تشق حقائق الاشياء طريقها الى الناس برغم كل شىء .. انه لسر عظيم فى الواقع ! »**

ورفعت الفتاة نظرها وقد بدت مذعورة ـ اذ ساد الظلام القاعة فجأة ـ وقالت : « انها سحابة .. سحابة تنذر بسقوط الجليد ، وان كان موعده لا يزال مبكرا » .. فسار الدكتور وينتر نحو النافذة ، وتطلع الى السماء ثم قال : « انها سحابة كبيرة ، ولعلها تمر بسلام ! » .. وأضاء العمدة أوردن مصباحا كهربائيا ، ولكن ضوءه لم يقو على الظلام ، فأطفأه مرة أخرى وقال : « ان الاضاءة فى النهار تشيع الوحشة ! »

واقتربت مولى منه وقالت : « أن الكسندر لم يقصد اغتيال ذلك الرجل ، وانما هو شخص حاد الطباع فقط ، ومع هذا لم يسبق له أن خرق القانون . انه رجل محترم ! » .. فألقى أوردن يده على كتفها وقال : « اننى عرفت الكسندر مذ كان صبيا صغيرا ، وكنت أعرف والده و جده ، فقد كان جده يصيد الدببة فى الزمن الغابر . هل تعرفين ذلك ؟ »

فتجاهلت مولى سؤاله هذا وقالت : « اذن فأنت لن تحكم

على الكسندر ؟ »

ـ لا . كيف أستطيع الحكم عليه ؟ !

ـ ان الناس يقولون انك ستفعل هذا لمصلحة الامن !

فوقف اوردن خلف أحد المقاعد وأمسك ظهره بيديه وقال: « هل يرغب الناس فى الامن يامولى ؟ »

ـ لست أعلم .. انهم يريدون الحرية !

ـ حسنا ، وهل يعرفون كيف يصلون اليها ؟ .. هل يعرفون الوسيلة التى يستخدمونها ضد عدو مسلح ؟

ـ لا . لا أعتقد هذا !

ـ انك فتاة ذكية يامولى . أتعرفين ذلك ؟

ـ لا ياسيدى ، ولكننى أعتقد أن الناس يشعرون بأنهم سيغلبون على أمرهم اذا ظلوا متراخين ، وهم يريدون أن يظهروا لهؤلاء الجنود انهم لايغلبون على أمرهم !

وقال الدكتور وينتر : « ان الفرصة لم تسنح لهم كى يقاتلوا .. وما كان قتالا أن يقفوا أمام المدافع الرشاشة » ، بينما قال أوردن : « عندما يتاح لك أن تعرفى ما يريدون عمله ، فهل تخبرينني به يامولى ؟ » .. فتطلعت اليه الفتاة مرتابة ، وقالت : « نعم ! »

ـ بل أنت تعنين لا .. لانك لا تثقين بى !

ـ ولكن ما الذى سيحدث لالكسندر ؟

ـ لن أحكم عليه ، لانه لم يرتكب جريمة ضد شعبنا !

وظهر التردد على مولى ، ثم قالت : « هل .. هل سيقتلون ألكسندر ؟ » .. فرمقها أوردن متأثرا وقال : « ياطفلتى العزيزة! يالك من طفلة ! » .. فشدت قامتها منتصبة وقالت :« شكرا» .. واقترب أوردن منها ، فقالت فى ضعف : « لاتمسنى .. أرجوك ، لاتلمسنى ! » .. فسقطت يده الى جواره

ووقفت الفتاة برهة جامدة كالتمثال ، ثم استدارت بعنف واتجهت نحو الباب وخرجت . وما أن أغلقت الباب ، حتى

فتح ثانية ، وأقبل جوزيف قائلا : « معذرة ياسيدى .. ان الكولونيل يريد أن يقابلك . لقد قلت له انك مشغول ، لانني عرفت انها كانت هنا .. وسيدتى أيضا تريد مقابلتك »

ـ فلتدخل زوجتى

فخرج جوزيف . وأقبلت زوجة العمدة على الفوروأنشأت تقول : « انني لا أعرف كيف سأدير البيت ، فان فيه عددا من الناس فوق مايحتمل ، و آنى تبدو غاضبة طول الوقت » .. ولكن أوردن هتف بها : « صه ! » ، فتطلعت اليه فى دهشة وقالت : « لا أعرف ماذا ... »

ـ صه ! اريد منك ياسارة ان تذهبى الى دار الكسندر موردن .. هل تفهمين ؟ .. أريد منك أن تبقى مع مولى موردن طالما كانت بحاجة اليك .. لاتتحدثى ، وانما ابقى معها فقط !

فقالت الزوجة : « ان لدى مئات من المهام .. »

ـ بل أريد منك ياسارة أن تبقى مع مولى موردن ولا تتركيها بمفردها .. واذهبى الآن !

وبدأت تفهم الموقف ، فقالت : « حسنا .. أجل ، سأذهب .. متى ستنتهى هذه المسألة ؟ »

ـ لا أعلم ، وسوف أرسل لك آنى عندما يحين الوقت

فطبعت على خده قبلة وخرجت . واذ ذاك مشى اوردن الى الباب ونادى جوزيف ، وقال له : « انى مستعد الآن لمقابلة الكولونيل »

* * *

• **وأقبل** لانسر وقد ارتدى زيا جديدا ، وتدلت من حزامه مدية صغيرة مزدانة بالنقوش . وعندما رأى أوردن قال : « صباح الخير ياسيدى . هل يمكننى أن أتحدث اليك حديثا غير رسمى ؟ » .. ووجه نظره نحو الدكتور وينتر ثم أضاف : « انني أود أن أتحدث معك على انفراد »

فسار وينتر متجها نحو الباب ، فما أن بلغه ، حتى ناداه أوردن وقال له : « هل ستحضر هذا المساء ؟ »

ـ وهل لديك عمل لى ؟

ـ لا ، لا .. انما أود أن لا أكون وحيدا !

ـ اذن فسأحضر !

ـ بهذه المناسبة يادكتور .. هل تظن أن مولى بخير ؟

ـ أعتقد ذلك ، وان كانت حالتها قريبة من « الهستريا » ، ولكنها من سلالة قوية ، اذ أنها تنحدر من أسرة كندرلى كما تعرف

ـ آه . لقد نسيت ذلك . أجل ، انها من صلب كندرلى ، أليس كذلك ؟

وخرج الدكتور وينتر وأغلق الباب وراءه بلطف . وكان لانسر يقف متريثا فى أدب ، ثم أخذ يراقب الباب وهو يغلق ، وألقى نظرة على المائدة والمقاعد المحيطة بها ، وقال : « لاأستطيع ياسيدى أن أبلغك مدى أسفى لهذا الامر ، وكنت أتمنى أن لا يحدث » . فانحنى أوردن ، بينما استأنف لانسر حديثه قائلا : « اننى أحبك ياسيدى وأحترمك ، ولكن لدى مهمة لابد من أن أؤديها ، وأنت بالتأكيد تقدر ذلك »

ولم يجب أوردن ، وانما أخذ ينظر الى عينى لانسر ويتفحصهما . واستطرد هذا قائلا : « اننا لا نعمل من تلقاء أنفسنا ! » .. وكان لانسر يتوقف بين كل عبارة مترقبا ردا ، ولكنه لم يظفر بهذا الرد ، فاسترسل يقول : « ان هناك نظما وضعت لنا ، ويتعين علينا اتباعها . انها نظما وضعت فى العاصمة .. انك لتعرف أن هذا الرجل قتل ضابطا »

وأخيرا جاء رد أوردن ، اذ قال : « فلماذا لم تعدموه اذ ذاك .. لقد كان الوقت مناسبا لذلك ! » .. فهز لانسر رأسه وقال : « لن يغير من الموقف شيئا ان أوافقك على رأيك .. **ولكنك تعرف مثلما أعرف أنا أن المقصود من العقاب هو ردع**

الناس ومنعهم عن اقتراف جرائم أخرى . وما دام الغرض من العقوبة هو زجر الآخرين ، لذلك وجب أن تكون علنية ، بل يجب أيضا أن تتخذ مظهرا يؤثر على النفوس ! »

ووضع أصبعه فى حزامه ، وأخذ يعبث بمديته ، فاستدار أوردن واتجه الى النافذة ، وأخذ يطل منها ، ويتطلع الى السماء المظلمة ، ثم قال : « لسوف يتساقط الجليد الليلة »

ـ أنت تعلم يامستر أوردن أن أوامرنا قاسية ، لا هوادة فيها ، اذ لا بد لنا من أن نحصل على الفحم ، فاذا لم يحافظ شعبكم على النظام ويخضع للاوامر ، تحتم علينا أن نعيد النظام بالقوة !

واشتد صوته وهو يقول : « **سنضطر الى قتل الناس اذا اقتضانا الامر .. فاذا شئت انقاذ شعبك من الاذى ، وجب عليك أن تساعدنا فى حفظ الامن ، وقد رأت حكومتى انه من الحكمة ان تصدر العقوبة من سلطة محلية ، لان هذا يساعد على استقرار الامن ! »**

فقال أوردن بصوت خافت : « **اذن فالناس يعرفون ! .. ان هذا أيضا سر من الاسرار ! »** ، ثم ارتفع صوته قليلا وهو يقول : « أتريدنى على أن أصدر حكما بالاعدام على ألكسندر موردن بعد محاكمته هنا ؟ ! »

ـ أجل ، وبذلك تحقن دماء كثيرة قد تراق فى المستقبل

* * *

. **واتجه** اوردن الى المائدة ، فسحب المقعد الكبير الموضوع عند رأسها وجلس عليه . وظهر فجأة بمظهر القاضى ، بينما كان لانسر يقف أمامه وكأنه المتهم ! وأخذ العمدة ينقر على المائدة بأصابعه وهو يقول : « انك وحكومتك لا تفهمان الناس .. ان حكومتك وشعبك هما الوحيدان فى العالم اللذان ظلا قرونا يمنيان بهزيمة بعد أخرى ، لانكم لا تفهمون الناس ! »

.. وتريث أوردن قليلا ثم تابع كلامه قائلا :

ـ ان هذا المبدأ الذى تشير به ليس عمليا ، لانى (أولا) عمدة ، فليس من حقى أن أصدر حكما بالاعدام ، وليس بين هذا الشعب من له هذا الحق ، ولو اننى أصدرت حكما بالاعدام لخرقت القانون كما تخرقه انت !

ـ اخرق القانون ؟

ـ انكم قتلتم ستة اشخاص عندما جئتم الى هنا، وقانونكم يدينكم جميعا بالقتل ! .. ولكن لماذا ندخل فى حديث سخيف عن القانون ياكولونيل ؟ .. **ليس هناك قانون بيننا وبينكم ! انها الحرب ! ألا تعلم أنكم ستضطرون الى قتلنا جميعا ، والا قتلناكم نحن فى الوقت المناسب ؟ ! .. انكم قضيتم على القانون بدخولكم بلدتنا .. وقد حل محله الآن قانون آخر .. ألا تعرف ذلك ؟**

فقال لانسر : « أتسمح لى بالجلوس ؟ »

ـ ولماذا تسألنى ؟ .. انها أكذوبة أخرى .. ففى امكانك أن تجعلنى أنهض عن هذا المقعد ، اذا أنت شئت !

ـ لا .. اننى فى الواقع ، سواء صدقت ذلك أو لم تصدقه ، أحترمك وأحترم منصبك !

ووضع جبينه على يده برهة ثم قال : « ها أنت ذا ترى نوع تفكيرى .. اننى ياسيدى شخص فى سن معينة ، وله ذكريات معينة ، ولكن تفكيرى هذا ليس ذا قيمة . ربما اتفقت معك فى الرأى ، ولكن هذا لايغير من الامر شيئا . ان للطراز العسكرى والسياسى الذى أعمل به اتجاهات وقواعد لاتتغير ! »

ـ وقد ثبت خطأ هذه الاتجاهات والقواعد فى كل حالة فردية منذ بدء الخليقة !

فضحك لانسر بمرارة وقال : « اننى كفرد لى ذكريات معينة .. فقد أتفق معك فى الرأى ، بل قد أضيف الى رأيك هذا القول : ان أحد اتجاهات العقلية والطراز العسكريين هو انعدام القدرة على التعلم ، والعجز عن ادراك شىء غير القتل .. فهذه

مهمة العقلية العسكرية .. ولكنى لست عبدا للذكريات !.. يجب اعدام عامل المنجم علنا ، لان النظرية تقضى بأن الآخرين سيكفون عندئذ عن قتل جنودنا ؟ »

فقال أوردن : « اذن ، فليست بنا حاجة الى مزيد من الحديث فى هذا الامر »

ـ لا ، بل يجب أن نتكلم .. اننا نريد منك أن تساعدنا ..

فجلس أوردن فى هدوء ، وأخلد الى الصمت برهة ، ثم قال : « سأصارحك بما سوف أفعله .. كم جنديا كانوا يطلقون المدافع الرشاشة التى قتلت جنودنا ؟ »

ـ لم يكونوا أكثر من عشرين على ما أظن !

ـ حسنا ، اذا أنت أعدمتهم ، فاننى سأحكم على موردن!

ـ ما أظنك جادا فى ذلك ؟ !

ـ بل اننى جاد كل الجد !

ـ هذا ما لا يمكن عمله كما تعلم ..

ـ اننى أعرف ذلك ، ولكن ما تطلبه منى لايمكن تنفيذه

فقال لانسر : « أعتقد اننى فهمت الآن ، والظاهر أن كوريل سيصبح عمدة رغم كل شىء ! » .. ثم رفع رأسه بسرعة وقال: « هل ستحضر المحاكمة ؟ »

ـ أجل . انها المهمة الوحيدة المستحيل أداؤها فى هـــذه

ونظر لانسر اليه فى ابتسامة حزينة وقال : « أرانا قد أخذنا على عاتقنا مهمة عسيرة .. أليس كذلك ؟ »

ـ اجل . انها المهمة الوحيدة المستحيل أداؤها فى هذه الدنيا .. الشىء الوحيد الذى لايمكن عمله !

ـ وما هى تلك المهمة ؟

ـ محاولة القضاء على روح الانسان ومعنوياته الى الابد !

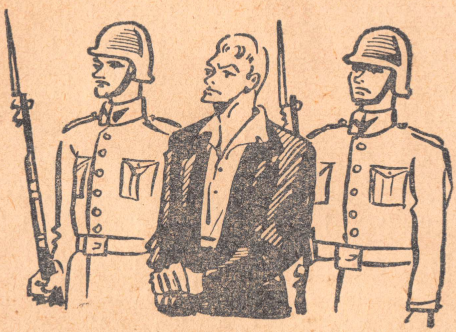
وأحنى أوردن رأسه قليلا على المائدة ، وقال دون أن يرفع بصره : « لقد بدأ الجليد يتساقط دون أن ينتظر هبوط الليل .. وانى لاحب رائحة الجليد الحلوة الباردة ! »

الفصل الرابع

• **ما** أن حانت الساعة الحادية عشرة حتى كان الجليد يسقط بغزارة وفى ندف كبيرة رخوة ، وتعذرت رؤية السماء تماما . وأخذ الناس يسرعون الخطى وسط الجليد المتساقط . وتكدس الجليد فى مداخل الابواب ، وعلى التمثال المقام فى الميدان العام ، وعلى الخطوط الحديدية الممتدة من المنجم الى الميناء .. وكذلك تكدس الجليد فأخذت العربات الصغيرة تنزلق عليه وهى تدفع باليد . وخيمت على المدينة ظلمة أشد حلكة من الغيوم نفسها ، وغشيت المدينة كآبة شديدة وضغينة أخذت تزداد تأججا واضطراما . ولم يكن الناس يمكثون فى الشوارع طويلا ، بل كانوا يدلفون من الابواب ، ثم توصد الابواب خلفهم . وكان يبدو أن ثمة عيونا ترقب مايجرى من وراء الستائر . **وعندما كان العسكريون يمرون فى الطريق ، أو عندما كانت ((الداورية)) تجتاز الشارع الرئيسى ، كانت العيون التى تتطلع الى تلك ((الداورية)) عيونا باردة غشيتها الكآبة والحزن . وكان الناس يؤمون المتاجر يشترون منها الاشياء الصغيرة اللازمة لغذائهم ، كما كانوا يطلبون السلع فيحصلون عليها ويدفعون ثمنها دون أن يبادلوا البائع تحية الصباح**

وكانت الانوار مضاءة فى غرفة الاستقبال بالقصر الصغير ، وقد أخذت تنعكس على الجليد المتساقط خارج النافذة .. وكانت المحكمة منعقدة ! .. وجلس لانسر على رأس المائدة ، والى يمينه هنتر ، ثم توندر ، وفى الطرف البعيد جلس الكابتن « لوفت » وأمامه رزمة صغيرة من الاوراق ، بينما جلس العمدة « أوردن » الى يسار الكولونيل فى الناحية المقابلة ، والى جواره براكل .. براكل الذى كان منهمكا فى الكتابة فى دفتر كان أمامه . ووقف الى جوار المائدة حارسان ثبت كل منهما

« سنكيا » فى بندقيته ، ووضع الخوذة على راسه ، فكانا كتمثالين صغيرين من الخشب .. وكان يقف بينهما « ألكس موردن » ، وهو شاب ضخم له جبهة عريضة منخفضة وعينان غائرتان وأنف طويل حاد وذقن تنبىء بقوة العزم وفم عريض ينطق بالشهوة .. وكان عريض المنكبين صغير الردفين ، وقد أخذ يقبض يديه – المكبلتين بالحديد والمبسوطتين أمامه – ويبسطهما ، وكان يرتدى بنطلونا أسود وقميصا أزرق فتح صدره ، وسترة سوداء لمعت من كثرة ما ارتداها !



وشرع الكابتن لوفت يقرأ من الورقة التى أمامه : « .. وعندما صدر اليه الامر بالعودة الى العمل ، رفض الاذعان ، فلما تكرر صدور الامر اليه ، هاجم الكابتن لوفت بالمعول الذى كان يحمله ، فتعرض له الكابتن بنتيك بجسمه ... »

وسعل العمدة أوردن ، فلما توقف لوفت عن القراءة ، قال العمدة : « اجلس يا ألكس . فليأت أحدكما أيها الحارسان بمقعد له » ، فالتفت الحارس وجذب اليه مقعدا دون مناقشة

وقال لوفت : « من المعتاد أن يقف السجين »

فأجابه العمدة قائلا : **«دعه يجلس ، ولن يعرف هذا الا نحن ، واكتب انه كان واقفا ! »**

فقال لوفت : « ليس من المعتاد أن نزور التقارير »

فكرر أوردن قوله : **« اجلس يا ألكس »**

وجلس الشاب الكبير . وراحت يداه المصفدتان بالاغلال تتحركان فى قلق فى حجره

وبدأ لوفت يقول : « ان هذا لمناقض لكل ... »

وقال الكولونيل : « دعه يجلس »

فتنحنح الكابتن لوفت ، واستأنف القراءة : « .. وتعرض له الكابتن بنتيك بجسمه فتلقى ضربة على رأسه هشمت جمجمته » . ثم أردف لوفت قائلا : « وقد أرفق بهذا تقرير طبى . أتريد أن أقرأه ؟ » .. فأجاب لانسر : « لا حاجة بك لذلك . اسرع على قدر امكانك ! » .. وعاد لوفت الى القراءة : « .. وقد شهد بهذه الوقائع بعض جنودنا ، وارفقت بهذا أقوالهم . وان المحكمة العسكرية لتجد السجين مدانا بتهمة القتل المتعمد ، وتوصى بالحكم عليه بالموت ! » .. وتطلع لوفت الى الكولونيل وسأله : « أتريد أن أقرأ أقوال الجنود ؟ » .. فتنهد لانسر وهو يقول : « كلا » ، ثم التفت الى ألكس وقال : « انك لا تنكر أنك قتلت الكابتن ! »

وابتسم ألكس ابتسامة حزينة وقال : « لقد ضربته ، ولا أعلم انى قتلته ! » .. فقال أوردن : « أحسنت يا ألكس ! » .. وتبادلا النظرات شأن الصديقين !

وقال لوفت : « أتريد القول ان أحدا غيرك قتله ؟ » .. فأجاب ألكس بقوله : « لست أدرى ، وانما أنا ضربته ، ثم ضربنى شخص ما ! »

وقال الكولونيل لانسر : « هل لديك ما تقوله فى تعليل الحادث ؟ .. لا أستطيع أن أفكر فى شىء قد يغير من الحكم ، ولكننا على استعداد لأن ننصت اليك ! »

وقال لوفت : **« أتشرف بأن أوجه النظر الى انه ما كان يحق للكولونيل أن يقول هذا ، فان كلامه ينطوى على أن المحكمة**

لم تكن نزيهة !» .. وضحك أوردن ضحكة شاع فيها الجفاء، فنظر اليه الكولونيل وعلى شفتيه طيف ابتسامة ، وكرر قوله للمتهم : « هل لديك تعليل ؟ »

ورفع ألكس يده يريد أن يومىء بها ، فارتفعت معها يده الاخرى . واذ ذاك بدت الحيرة عليه ، فاضطر الى اعادة يديه حيث كانتا فى حجره ، وقال : **« لقد استبد بى الغضب عندئذ، فاننى حاد الطبع .. لقد أمرنى بالعمل ، وأنا رجل حر ، فجن جنونى وضربته . وأعتقد أن ضربتى كانت شديدة ، ولم يكن هو الرجل الذى قصدته ! »** ، ثم أشار الى لوفت وقال : « هذا هو الرجل الذى كنت أريد ضربه ! »

فقال لانسر : « لا يعنينا من الذى كنت تقصده بضربتك ، فان أى رجل فى محلك كان يفعل ما فعلت . ولكن هل أنت نادم على ما بدر منك ؟ » ، ثم خاطب الجالسين الى المنضدة بقوله : « من الافضل أن يتضمن المحضر أسفه على ما ارتكب!»

وسأله ألكس قائلا : **« أسفى ؟ كلا ! لست آسفا ، فقد أمرنى بالذهاب الى العمل .. أمرنى أنا الرجل الحر !.. لقد كنت شيخا من شيوخ البلد ، وقد أمرنى بالذهاب الى العمل!»**

— واذا كان الحكم بالاعدام ، أفلا تأسف عندئذ ؟

وطأطأ ألكس رأسه ، وحاول جاهدا ان يستوعب الفكرة ، ثم قال : **« كلا .. أتعنى أن أرتكب ما ارتكبت مرة أخرى ؟ »**

— هذا ما أعنيه !

ففكر ألكس مليا ، ثم قال : **« كلا ، لا أحسبنى آسفا ! »**

فقال لانسر : « اكتب فى المحضر أن السجين كان غاية فى الندم . ان الحكم ظاهر من تلقاء نفسه ! .. أتفهمنى ؟ » ، ثم التفت الى ألكس وهو يقول : « ليس للمحكمة سبيل آخر تسلكه ، وقد تبين للمحكمة أنك مذنب فقضت عليك بالاعدام رميا بالرصاص فى الحال ، ولا أجد ما يدعو لان أطيل عليك عذابك . أثمة شىء نسيته ياكابتن لوفت ؟ »

فقال أوردن : « لقد نسيتنى ! » ، ثم نهض ودفع كرسيه الى الوراء وسار الى ألكس ، فانتصب ألكس واقفا فى احترام ، على ما ألف منذ زمن بعيد . وقال العمدة : « أنا العمدة الذى اخترتموه يا ألكس ! »

ــ أعرف هذا يا سيدى

ــ ان هؤلاء القوم غزاة يا ألكس . لقد استولوا على بلادنا بمفاجأتهم لنا ، وبالخديعة والعنف !

فقال الكابتن لوفت : « يجب ان لا يسمح له بأن يقول هذا القول ياسيدى » .. فأجابه لانسر : « صه ! من الافضل أن نسمعه .. أتريد ان يهمس به من خلفنا ؟ »

واستمر أوردن فى حديثه كأن أحدا لم يقاطعه : **« عندما جاءوا وقعت الحيرة بالشعب ، وبى أنا أيضا .. لم نكن نعلم ماذا نفعل ، واستعصى علينا التفكير ، ثم جاء عملك فكان أول عمل علنى .. وكان غضبك الخاص بداية الغضب العام ! .. اننى أعلم مايقال عنى فى البلدة من أننى ضالع مع هؤلاء القوم ، وبوسعى أن أكشف للبلدة عن الحقيقة ، ولكنك أنت .. أنت ستلقى حتفك ، ولهذا أحب أن تعلم الآن ! »**

وطأطأ ألكس رأسه ثم رفعها وقال : « اننى أعلم يا سيدى » .. وهنا قال لانسر لأحد ضباطه : « هل فرقة اطلاق النار مستعدة ؟ »

ــ انها فى الخارج يا سيدى

ــ ومن قائدها ؟

ــ الملازم توندر يا سيدى

فرفع توندر رأسه وقد بدت الصرامة على وجهه ، وحبس أنفاسه !.. وقال أوردن فى رقة : « هل أنت خائف ياألكس ؟ »

فأجاب ألكس قائلا : « أجل يا سيدى »

ــ لا أستطيع أن أوصيك بأن لا تخاف ، فاننى لو كنت فى موضعك لخفت أنا أيضا ، وكذلك كان يفعل هؤلاء الشبان

.. **آلهة الحرب !**

وقال لانسر لتوندر : « استدع فرقتك » ، فانتصب توندر واقفا ، وذهب الى الباب ، وقال : « ان الفرقة هنا ياسيدى » . ثم فتح الباب على مصراعيه ، فظهر الرجال ذوو الخوذات .. وإذ ذاك قال أوردن : « اذهب يا ألكس .. اذهب وانت تعلم أن هؤلاء الرجال لن يجدوا الراحة .. **لن يجدوا الراحة قط حتى يرحلوا أو يلقوا حتفهم ! .. لسوف تكون السبب فى توحيد صفوف الشعب . انها لحقيقة محزنة ، ولكننى أسوق اليك الخبر على أنه هدية صغيرة أقدمها اليك . ولكن الامر كما أقول .. انهم لن يعرفوا طعم الراحة على الاطلاق ! »**

وأغمض ألكس عينيه بشدة ، فمال أوردن عليه وطبع قبلة على خده ، ثم قال له : « وداعا يا ألكس ! »

* * *

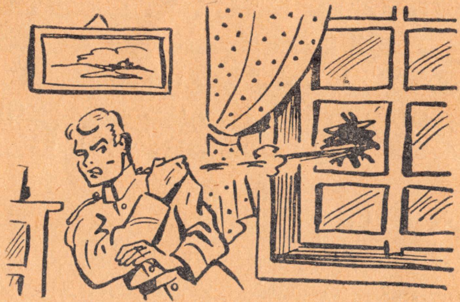
. **وأخذ** الحارسان بذراع ألكس ، فظل الشاب مغمضا عينيه بشدة . ثم قاداه الى الخارج ، واستدارت فرقة اطلاق النار ، وسمعت أصوات أقدامهم تخفت وهى تخرج من المنزل الى الجليد ، ثم ستر الجليد وقع الاقدام . وخيم السكون على الرجال الذين يجلسون خلف المائدة ، ونظر أوردن صوب النافذة فرأى بقعة صغيرة من الارض تنظفها يد سريعة من الجليد . وتفرس فيها وهو شارد اللب ، ثم ما لبث ان حول عينيه عنها ، وقال للكولونيل : « أرجو أن تدرك ما أنت مقدم عليه ! »

وجمع الكابتن لوفت أوراقه ، فسأله لانسر : « هل سينفذ الاعدام فى الميدان يا كابتن ؟ »

ــ أجل ، فى الميدان ، اذ يجب أن يكون علنيا

وقال أوردن : « أرجو أن تكون مدركا ما أنت فاعل » .. فأجابه الكولونيل : « يا رجل ، سواء أكنا مدركين هذا أم لم نكن ، فهو واجب لا بد لنا من القيام به »

وخيم السكون على الغرفة ، وأخذ كل من فيها يصيخ السمع . ولم يطل الامر بهم ، فقد سرى من بعيد صوت اطلاق النار .. وزفر لانسر زفرة قوية ، بينما وضع أوردن يده على جبهته ، وشهق شهقة عميقة . **ثم أطلقت طلقة من الخارج ، فتهشم زجاج النافذة . ودار براكل حول نفسه متألما ، ورفع يده الى كتفه وحملق فيها . و هب لانسر واقفا**



وهو يصرخ قائلا : « اذن فقد بدأت الحركة ؟ .. هل جرحك خطير أيها الملازم ؟ » .. فقال براكل : « كتفي ! »

وتولى لانسر القيادة فقال : « ستكون ثمة آثار فى الجليد يا كابتن لوفت ، وأريد أن يفتش كل بيت بحثا عن الاسلحة ، وأريد ان يؤخذ كل من عنده سلاح كرهينة ! » . ثم التفت الى العمدة وقال : « أما أنت يا سيدى فستوضع تحت الحراسة ، وأرجوك أن تفهم هذا : سنقتل رميا بالرصاص خمسة أو عشرة أو مائة فى مقابل كل واحد منا ! » .. فأجابه أوردن فى هدوء : « رجل له ذكريات معينة ! »

وتوقف لانسر فى وسط أمر كان يلقيه ، والتفت فى تمهل وبطء الى العمدة . وفى برهة وجيزة فهم كل منهما الآخر . ثم شد لانسر قامته ، وقال فى حدة : « رجل لا ذكريات له ! »

.. وعاد يتابع أوامره قائلا : « أريد جمع كل سلاح فى البلدة . اقبضوا على كل من يقـــاوم ، واسرعوا قبل ان تختفى اثار الاقدام على الجليد »

وتناول أركان الحرب خوذاتهم وأعدوا مسدساتهم وشرعوا فى الخروج .. وذهب أوردن الى النافذة التى تحطم زجاجها ، وتمتم فى لهجة غلب عليها الحزن والاسى : « رائحة الجليـد جميلة ، عليلة ! »

الفصل الخامس

• **انقضت** الايام والاسابيع يأخذ بعضها بخناق البعض ، وكرت الشهور متثاقلة .. وكان الجليد يتساقط ويذوب ، ويتساقط ويذوب ، الى أن تساقط وظل على حاله متجمدا ، فاكتست مبانى البلدة الصغيرة الداكنة بما يشبه الاجراس والقبعات والحواجب من لباس أبيض ناصع .. وكانت ثمة خنادق عبر الجليد تصل الى الأبواب ، أما فى الميناء فكانت سفن الفحم تأتى فارغة وتعود مشحونة الوسق ، ولكن الفحم لم يكن يستخرج من الارض بسهولة .. فان المعدنين البارعين كانوا يخطئون ، اذ كانوا لا يتقنون حرفتهم ! أضف الى هذا انهم كانوا يتسمون بالبطء ، وكانت الآلات تكسر وينقضى وقت طويل قبل اصلاحها ! . **واستقر قرار أهل البلاد المغزوة على انتقام بطىء ، صامت ، آجل . وتبين الخونة الذين ساعدوا الغزاة ــ وكثيرون منهم صدروا فى المساعدة عن اعتقاد بان الغزو انما هو لتحسين شأنهم ولتحقيق الحياة المثالية لهم ! ــ ان الخطوة التى خطوها كانت غير مطمئنة ، وان الناس الذين كانوا يعرفونهم ، كانوا ينظرون اليهم ببرود دون ان يوجهوا اليهم حديثا قط !**

وكان الموت مخيما على الجو ، يحوم وينتظر . ووقعت الحوادث على خط السكة الحديدية الذى يشق طريقه فى الجبال والذى كان يربط البلدة الصغيرة بسائر انحاء الامة . وكثرت الانهيارات على الطرق والخطوط الحديدية ، ولم يكن ثمة قطار يستطيع السير دون التحقق أولا من سلامة الخطوط ، وكان بعض الناس يعدمون انتقاما ولكن هذا لم يكن له أى أثر ! .. وأخذت جماعات من الشباب تهرب وتذهب الى انجلترا بين الحين والحين .. وألقي الانجليز القنابل من الجو على

منجم الفحم ، فأصابوه ببعض التلف،وقتلوا عددا من أصدقائهم وأعدائهم . ولم يأت هذا بنتيجة ، وانما نما الحقد البارد بتقدم الشتاء . . ذلك الحقد الصامت الدفين المتربص !

وكانت المؤن والاطعمة تحت الرقابة ، تمنح للطيع وتمنع عن المتمرد ، حتى اضطر أهل البلدة جميعا الى أن يكونوا طيعين ، ولكنها كانت طاعة باردة .. الا أنه كانت ثمة حالة لا يمكن فيها منع الطعام ، ذلك أن الرجل الذى يموت جوعا كان ينقص من عدد القادرين على استخراج الفحم ورفعه وحمله . وكانت عيون الناس تنطق بالحقد الدفين ، يراها كل من لا يؤخذ بالظواهر !

وهكذا وجد الغازى نفسه محصورا . . فكان رجال الكتيبة معزولين وحدهم بين أعداء صامتين . ولم يكن فى استطاعة جندى منهم أن يتهاون فى حذره لحظة واحدة ، ولو أنه فعل لاختفى ولألقيت جثته على ركام من الثلج . واذا ذهب جندى وحده لامرأة ، اختفى وألقيت جثته على ركام من الثلج . . واذا شرب خمرا اختفى ! .. فلم يعد رجال الكتيبة يغنون الا معا ، ولا يرقصون الا معا . ثم توقف الرقص رويدا رويدا ، وأصبح الغناء ترديدا لعبارات تنطوى على الوحشة الى الديار .. وأخذت أحاديثهم تقتصر على الاصدقاء والاقارب الذين كانوا يحبونهم ، وعلى شوقهم الى الدفء والحب . . **فان الرجل لا يستطيع أن يكون جنديا الا لبضع ساعات فى اليوم ، أو لبضعة أشهر فى السنة ، ثم تلح به الرغبة فى أن يعود رجلا ، يطلب النساء والشراب والموسيقى والمرح والراحة ، فاذا منعت عنه كلها استبد به الشوق اليها !**

وكانت أفكار الجنود تهفو دائما الى وطنهم ، حتى انتهت الحال برجال الكتيبة الى كراهية البلد الذى غزوه ، فكانوا يعاملون أهل البلدة معاملة جافة ، وكان أهل البلدة يبادلونهم جفاء بجفاء . ودب شىء من الخوف فى قلوب الغزاة رويدا . .

خوف لا يمكن أن ينقضي أو يزول .. خوف من أن لا تنتهى هذه الحرب قط ، ومن أنهم لن يستطيعوا أن يستريحوا ويعودوا الى بلادهم .. خوفا من أن تهن عزيمتهم يوما فيصيدهم أهل البلدة من الجبال ، كأنهم الارانب ! ذلك أن القوم الذين قهرت بلادهم لم يخففوا من غلواء حقدهم للغزاة قط ، فكانت الداوريات ترى الاضواء ، وتسمع الضحك ، فتنجذب اليه — شأن الفراش تجذبه النار — ولكن ما أن يقترب أفرادها ، حتى يكف الناس عن الضحك ، ويذهب الدفء ، ويعود الناس الى برودهم وطاعتهم ! .. وكان الجنود يشمون رائحة الطعام الساخن تفوح من المطاعم الصغيرة ، فيدخلون ويطلبون الطعام الساخن ، ولكنهم يجدونه وقد زاد ملحه أو زاد فلفله !

ثم قرأ الجنود الانباء الواردة من بلادهم ،ومن البلاد الاخرى التى غزتها أمتهم . وكانت الانباء طيبة دائما ، وقد صدقوها برهة من الزمن ، ولكنهم لم يلبثوا أن فقدوا الثقة فيها ! .. وامتلأ قلب كل منهم رعبا ، وراح يقول لنفسه : « لو انهارت بلادنا وهزمت ، فلن ينبئنا أحد فى الوقت المناسب ، ويسبق السيف العزل . واذ ذاك لن يرحمنا هؤلاء القوم ، بل انهم سيفتكون بنا جميعا ! » .. وتذكروا قصص رجالهم فى تراجعهم من بلجيكا وفى تراجعهم من روسيا . وكان أكثرهم علما يذكرون التقهقر الجنونى الملىء بالمآسى .. التقهقر من موسكو ،حيث ذاقت مدرة كل فلاح روسى دماء الغزاة ، وحيث شوهت الجثث صفحة الجليد البيضاء !

وكانوا يعلمون أنهم اذا وهنت منهم العزيمة،أو خف حذرهم وحرصهم ، أو ناموا أكثر مما يجب عليهم النوم ، للاقوا فى هذه البلدة نفس المصير الذى لاقاه رفاقهم هناك من قبل . وشاب نومهم القلق ، وقضوا أيامهم وقد توترت أعصابهم . وكانوا يوجهون الاسئلة فلا يستطيع ضباطهم الاجابة عليها ، لانهم لم يكونوا يعرفون الجواب .. فقد كانوا هم الآخرون يجهلون ،

شأنهم شأن جنودهم .. ولم يكونوا هم كذلك يصدقون الانباء الواردة من الوطن !

وهكذا دب الخوف فى قلوب الغزاة ممن غزوهم!.. وتوترت أعصابهم حتى أنهم كانوا يطلقون النار على الاشباح ليلا ! وكانوا يحسون دائما ذلك الصمت البارد الكئيب . ثم جن ثلاثة جنود فى أسبوع ، وأخذوا يبكون ليل نهار حتى أعادوهم الى ديارهم . ولعل غيرهم كان موشكا أن يجن أيضا ، لولا أنهم سمعوا ان الموت ينتظر المجانين فى الوطن .. فقد كانوا يقتلون رحمة بهم .. والموت أفظع من أن يستطيع الانسان ان يفكر فيه ! .. وغزا الخوف قلوب الرجال فى ثكناتهم ، فخلف على وجوههم مسحة من الحزن ، كما دلف الى قلوب رجال الداوريات فملأها قسوة !

***

. وانقضت السنة ، ثم جاء الشتاء ثانية ، وطال الليل ، فأصبح الظلام يحل فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ولا يعود الصبح ينبلج الا فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، ولم تعد الانوار البهجة تتسرب من النوافذ وتنعكس على الجليد .. فقد سن قانون يوجب اظلام النوافذ كلها ، حتى لا ترى قاذفات القنابل المغيرة الضوء . على أن ثمة ضوءا كان يظهر دائما بقرب منجم الفحم ، كلما أقبلت قاذفات القنابل الانجليزية !.. وكان الحراس يطلقون النار أحيانا على رجل يحمل مصباحا .. بل لقد أطلقوا الرصاص مرة على فتاة تحمل مشعلا كهربائيا ، ولم يكن لهذا من أثر ، فان اطلاق النار لم يكن هو العلاج !

وكان الضباط صورة طبق الاصل من جنودهم ، الا انهم كانوا أكثر تحفظا ، لان تدريبهم كان أتم وأوفى ، وكانوا أكثر حيلة من جنودهم ، لان مسئوليتهم كانت أعظم ، ولكن نفس المخاوف كانت تساورهم .. بل انها كانت تتغلغل فى

قلوبهم أكثر من تغلغلها فى قلوب رجالهم ، وكانوا يشعرون بوحشة الى الديار أشد وأقوى ، ولكنهم كانوا يطوون عليها جوانحهم ويكتمونها حبيسة فى صدورهم !.. وكان العناء المنصب على أعصابهم مزدوجا : فقد كان أهل البلاد المقهورة يراقبونهم ويحصون عليهم أخطاءهم .. كما كان الجنود الذين تحت امرتهم يراقبونهم ويحصون عليهم مواطن الضعف ، حتى لقد غدا توتر أعصابهم يهدد بانهيارهم !.. كان الغزاة فى حصار ضرب على روحهم المعنوية فى غير هوادة ولا رفق ، وكان الكل ـ الغالب والمغلوب ـ يعلم ما سوف يحدث عندما تبدر أول بادرة .

وبدا أن أسباب الراحة التى زودت بها الغرفة العليا فى قصر العمدة قد اختفت .. اذ وضع الورق الاسود على النوافذ باحكام ، وكانت ثمة أكداس صغيرة من المهمات الثمينة مبعثرة فى أركان الغرفة ـ وهى الادوات والمهمات التى لا يمكن تعريضها للخطر ، ونظارات الميدان ، والاقنعة والخوذات ـ فقد كان ثمة تخفف من شدة النظام فى تلك الغرفة ، وكأن هؤلاء الضباط كانوا يعلمون أنه لا بد من شىء من التراخى فى مكان ما ، والا تطرق الخلل الى جهازهم كله !.. وكان على المنضدة مصباحان للداوريات يلقيان ضوءا شديدا متألقا . وقد كان أزيز اشتعالهما هو الصوت الوحيد الذى يعكر هدوء الغرفة !

ولم ينقطع الماجور هنتر عن عمله ، بل كانت لوحة رسمه مستعدة الآن باستمرار ، اذ كانت القنابل تهدم عمله بالسرعة التى يبنيه بها تقريبا . ولم يكن ذلك يحزنه كثيرا ، فقد كان البناء للماجور هنتر بمثابة الحياة نفسها ، وقد أتيح له ـ فى هذه البلدة وهذه الظروف ـ من فرص البناء ماكان يفوق سرعته فى التصميم والانجاز .. وكان يجلس الى لوحة الرسم والضوء من خلفه والمسطرة « حرف ت » ترتفع وتنخفض على اللوحة ، وقلمه الرصاص لا يكف عن العمل لحظة !

أما الملازم براكل ، فكانت ذراعه لا تزال فى جبيرة شدت الى عنقه . وكان يجلس فى مقعده منتصب الظهر ، عندالمنضدة الوسطى ، يقرأ صحيفة مصـــورة . بينما كان الملازم توندر يجلس فى طرف المنضدة يكتب خطابا ، ويرفع قلمه عاليـا من آن الى آخر ، ويحدق فى السقف كأنه يستلهمه الوحى ويستنجد به فيما يكتب !

وقلب براكل ورقة من الصحيفة المصورة ثم قال : « يمكننى وأنا مغمض العينين أن أرى كل متجر فى هــذا الشــــارع » . فاستمر هنتر فى عمله ، وكتب توندر بضع كلمات أخرى فى خطابه !.. واسترسل براكل يقول : « ثمة مطعم خلف هذا البيت تماما ، ويمكنك أن تراه فى الصورة الماثلة أمامى ، واسمه مطعم بيردن » .. فقال هنتر دون أن يرفع نظره عن لوحته : « أعرف هذا المطعم ، وشرائح اللحم التى كانوا يقدمونها جيدة !» .. بينما قال براكل : « هذا مالا شك فيه ، فقد كان كل مايقدمونه جيدا .. لم يكونوا يقدمون شيئا رديئا قط ، أما قهوتهم .. »

ورفع توندر رأسه عن الخطاب الذى كان معنيـا بكتابته وقال : « **لن يقدموا القهوة الآن .. ولا شرائح اللحم !** » . فقال براكل : « لا علم لى بشىء من هذا . فلقد كانوا يقدمون الشرائح والقهوة .. ولسوف يستمرون فى تقديمها!.. وكانت ثمة خادم فى هذا المطعم » .. ثم أخذ يصف شكلها مستعينا بيده ـ يده السليمة ! ـ وأردف يقول : « شقراء تقريبـا » ، ثم نظر الى المجلة : « كان لها ، أقصد ما زال لها أعجب عينين ، فهما دائما منديتان وكأن صاحبتهما كانت تضحك أو تبكى لتوها ! » . ثم حملق فى السقف وقال فى رفق : « لقد خرجت معها ، وكانت فاتنة .. اننى أسائل نفسى : لماذا لم أتردد على المحل أكثر مما فعلت . ترى أما زالت موجودة ؟ »

وقال توندر فى لهجة سادتها الكآبة : « ربما لا ، ولعلهـــا تعمل الآن فى مصنع ! » .. فضحك براكل وهو يقول : « أرجو

أن لا يكون توزيع الفتيات قد أصبح خاضعا لنظام البطاقات فى بلادنا ! » . فعقب توندر قائلا : « ولم لا ؟ » . فقال براكل يداعبه : « انك لاتأبه كثيرا للفتيات ، أم تراك تأبه لهن ؟ .. انك لا تعبأ بهن كثيرا ! » .. وأجابه توندر قائلا : « اننى أودهن لما خلقن من أجله ، ولا أدعهن ينلن من حياتى الاخرى ! » .. فقال براكل مداعبا : « يبدو لى أنهن يتسللن الى جميع نواحى حياتك طيلة الوقت ! »

وحاول توندر أن يغير مجرى الحديث ، فقال : « اننى أكره هذه المصابيح الملونة .. متى ستصلح ذلك المولدالكهربائى ياماجور ؟ » . فرفع الماجور هنتر بصره ببطء عن لوحته وقال : « كان يجب أن يتم الاصلاح الآن ، فقدعهدت به الى بعض البارعين من رجالى ، وسأضاعف عدد الحراس على المولد الكهربائى منذ الآن » .. فسأله براكل : «هل قبضت على ذلك الذى حطمه؟»

وقال هنتر عابسا متجهما : « لقد اشتبهت فى خمسة ، فالقيت القبض عليهم جميعا » .. ثم أردف يقول وقداستغرق فى التفكير : « من السهل تحطيم المولد الكهربائى اذا عرفت السبيل .. أطلق عليه النار وهو كفيل بتدمير نفسه بعدهذا !» .. ثم قال : « لا بد ان النور سيضاء الآن فى أية لحظة ! »

وكان براكل ما يزال ينظر فى مجلته حين قال:«ترى متى يأتون بمن يحل محلنا ؟ .. ترى متى نعود الى الوطن لنقضى فيه فترة من الزمن يا ماجور ؟ .. ألا تحب أن تعود الى الوطن لتأخذ قسطا من الراحة ؟ » .. فرفع هنتر رأسه عن عمله ، ووجهه ينم عن اليأس ، وقال : « أى نعم ! » ، ثم ما لبث أن عاد الى رشده وقال : « لقد أقمت خط التخزين هذا أربع مرات ، ولست أدرى لماذا تصيب القنبلة فى كل مرة هذا الخط بالذات ؟ .. لقد بدأ السأم يدركنى من هذا الجزء من الخط الحديدى ، لأننى مكره على تغيير مجراه فى كل مرة بسبب تلك الفجوات ، لا سيما وان الوقت لا يتسع لملئها . ثم ان الارض

شديدة الصلابة من فرط التجمد ، ويبـــدو أن العمل الذى ينتظرنى كثير جدا ! »

وأضيئت الانوار على حين بغتة ، فمد توندر يده آليـــا وأطفأ المصباحين ، فتلاشى الازيز من الغرفة .. وما لبث توندر ان قال : « خليق بك ان تحمد الله على هذا ، فان الازيز كان ينال من أعصابى ، حتى جعلنى أظن ان ثمة همســـا يدور حولى » ، ثم طوى الخطاب الذى كان يكتبه وقال : من العجيب انه لم تعد تصلنا خطابات ، اذ اننى لم أتلق الا خطابا واحدا منذ أسبوعين » .. فقال براكل : « لعل أحدا لا يكتب اليك » . فعقب توندر قائلا : « ربما » ، والتفت الى المـــاجور يقول : « اذا حدث حادث ـ أقصد فى الوطن ـ فهل تظن أنهم ينقلون الينا نبأه ؟ .. أقصد أى حادث سيىء ، كالوفاة أو ما اليها ؟» .. فأجاب هنتر بقوله : « لست أدرى ! » .. واستطرد توندر قائلا : « حسنا .. لكم أود الرحيل عن هذا الجحر المهجور ! »

وقاطعه براكل قائلا : «كنت أظنك تعتزم الاقامة هنـــا بعد الحرب ! » .. وأخذ يقلد صوت توندر قائلا : « أجمع بـين أربع أو خمس مزارع معا ، وأجعل منها مكانا بديعا ، ومقرا لأسرتى » .. ثم التفت اليه متسائلا : « ألم تقل هذا ؟ .. كنت تريد أن تصبح سيدا صغيرا من سادة الوادى . أليس كذلك ؟ قوم ظرفاء ذوو كياسة ، ومروج جميلة وغزلان وأطفال صغار .. ألم يكن هذا عين ما قلت يا توندر ؟ »

واسترخت يد توندر ، بينما كان براكل يســـترسل فى حديثه ، ثم أمسك صدغيه بين يديه وقال بانفعال : « صه ! لا تتحدث هكذا ! .. هؤلاء القوم ! هؤلاء القوم البشعون ! .. هؤلاء القوم البـــاردون ! .. انهم لا ينظرون اليك قط ! » . وتمشت الرعدة فى جسمه وهو يستطرد : « انهم لا يتــكلمون قط . ويجيبونك كأنهم موتى .. ويطيعونك دون ما شـعور أو روح .. يالهم من فظاع ! .. اما فتياتهم فجامدات كالثلج ! »

* * *

• **وسمعت** طرقة خفيفة على الباب ، ثم دخل جوزيف وفى يده وعاء مليء بالفحم . وأخذ يتحرك فى صمت وسكون فى الغرفة ، فوضع الوعاء فى رفق على الارض دون أن يحدث أى ضوضاء ، واستدار وهو لا ينظر الى أحد ، فسار صوب الباب ثانية . واذ ذاك ناداه براكل بصوت عال : « جوزيف ! » ، فالتفت جوزيف دون أن يجيب ودون أن يرفع بصره ، وانحنى انحناءة خفيفة . فقال براكل بالصوت العالى نفسه : « هل ثمة نبيذ أو براندى هنا يا جوزيف ؟ » ، فهز جوزيف رأسه . وهنا نهض توندر عن المائدة وقد ارتسمت على وجهه علائم الغضب الشديد ، وصرخ يقول : « أجبنى أيها الخنزير ! أجبنى بكلمات ! »

ولم يرفع جوزيف بصره ، ولكنه قال بلهجة تجردت من الحياة : « كلا ياسيدى ، كلا ياسيدى ، لايوجد نبيذ ! »

فصاح توندر وهو يتميز غيظا : « ولا براندى ؟ » .. ففض جوزيف بصره ، وعاد يقول بلهجته الخالية من الحياة : « لايوجد براندى يا سيدى » .. وكان يقف ساكنا تماما !

وسأله توندر : « ماذا تريد ؟ »

ـ أريد أن انصرف يا سيدى

ـ اذن اذهب .. لعنة الله عليك !

ودار جوزيف على عقبيه وخرج فى سكون من الغرفة ، فأخرج توندر منديلا من جيبه ، وأخذ يمسح وجهه ، بينما رفع هنتر اليه بصره وقال : « ما كان يجب أن تتركه يتغلب عليك بهذه السهولة ! »

وجلس توندر على مقعده ، ووضع يديه على صدغيه ، ثم قال فى عبارات متقطعة : « أريد فتاة ! .. أريد العودة الى الوطن ! .. أريد فتاة . ثمة فتاة فى هذه البلدة ، فتاة جميلة ،

أراها فى كل وقت .. شعرها أشـــقر ، وتقيم بجوار محل الحديد الخردة ، أريد تلك الفتاة !».. فقال براكل : « راقب نفسك ، وراقب أعصابك ! »

وانطفأ الضوء مرة أخرى فى تلك اللحظة ، فخيم الظلام على الغرفة . وتحدث هنتر بينما كانت أعواد الثقاب تشعل ، والمحاولات تبذل لاضاءة المصباحين الصغيرين : « ظننت أننى قبضت عليهم جميعا ، ولكن .. لا بد أنه قد فاتنى القبض على واحد . بيد اننى لا أستطيع البقاء هناك طول الوقت و لى رجال بارعون يقيمون فى ذلك الموضع ! »

وأشعل تونذر المصباح الاول ، ثم أشعل المصباح الثانى . وقال هنتر فى لهجة صارمة موجها كلامه اليه : « كلمنا نحن اذا كان لابد لك من ان تتكلم أيها الملازم ، ولا تدع العدو يسمعك تتحدث بهذا الشكل ، فان أحب شىء الى هؤلاء الناس هو أن يعرفوا أن أعصابك قد بدأت تخونك .. لا تدع العدو يسمعك ! »

وجلس تونذر ثانية ، فسقط ضوء المصباح على وجهه . وملأ الازيز الغرفة ، فقال : **« لقد أصبت ! أن العــدو فى كل مكان ! .. كل رجل وكل امرأة ، بل حتى الاطفــال ! .. ان العدو فى كل مكان ، تطل عليك وجوههم من الابواب..ووجوه بيضاء خلف الستائر تصيخ السمع ! .. لقد غلبنـــاهم على أمرهم وفزنا فى كل مكان ، وهم ينتظرون ويطيعون .. انهم ينتظرون !..** نصف العالم ملكنا ، فهل الحال فى الاماكن الأخرى كما هى هنا أيها الماجور ؟ » .. فقال هنتر : « لست أدرى ! »

وعاد تونذر يقول : « أصـــبت ! فنحن لا ندرى ، اذ ان التقارير تقول اننا قابضون على ناصية الحال ، والبلاد التى غزوناها تحيى جنودنا وتحيى النظام الجديد ! » .. وتغير صوته ، وأخذت الرقة تشيع شيئا فشيئا فى حديثه : **« وماذا تقول التقارير عنا ؟ أتقول أن الناس هنا يحيوننا ويحبوننـا**

ويلقون بالزهور فى طريقنا ؟ .. آه من أولئك القوم البشعين الذين ينتظروننا فى الجليد ! » . فسأله هنتر : « الآن وقد نفثت ما فى صدرك ، أتشعر بأنك روحت عن نفسك ؟ »

وكان براكل يربت بخفة على المائدة بقبضته السليمة ، فقال : « يجب ان لا يتحدث هكذا ، بل ينبغى أن يحتفظ بآرائه لنفسه . أليس هو جنديا ؟ اذن يجب أن يسلك مسلك الجنود ! »

وفتح الباب بهدوء ، ثم دخل الكابتن لوفت ، والجليد يغطى خوذته وكتفيه . وكان أنفه قد التهب من البرد ، بينما رفع ياقة معطفه حتى غطت أذنيه . وخلع خوذته فسقط الجليد على الارض ، ثم نفض عن كتفيه ما علق بهما من ثلج ، وقال : « يا لها من مهمة ! »

وسأله هنتر : « هل هناك اضطرابات جديدة ؟ »

ــ هناك اضطرابات دائما !.. أرى أنهم قد عطلوا المولد الكهربائى ثانية ، أما المنجم فأظن أننى عملت على اقرار النظام به فترة من الزمن

وسأله هنتر : « وماذا صادفك من المتاعب هناك ؟ »

ــ نفس المتاعب التى تصادفنى عادة .. البطء فى العمل ، وتحطيم سيارة نقل . على أننى رأيت الذى حطمها فاطلقت عليه النار . أعتقد أننى وجدت حلا لهذه المشكلة الآن يا ماجور . سأجعل كل رجل يستخرج قدرا معينا من الفحم . اننى لا أستطيع أن أعاقب الرجال بحرمانهم من القوت والا تعذر عليهم العمل ، ولكننى توصلت الى حل فيه العلاج الناجع . اذا امتنع خروج الفحم أمتنع أنا عن تزويد العائلات بالطعام . وسنجعل الرجال يأكلون عند المنجم لكى لايقاسموا أسراتهم طعامهم . هذا هو العلاج الشافى ولا شك . فاذا لم يعملوا حرم أطفالهم من الطعام . ولقد قلت لهم هذا لتوى !

ــ وماذا قالوا ؟

فضاقت عينا لوفت فى قسوة وهو يجيبه : « قالوا ؟ .. وماذا يقولون دائما ؟ .. لا شيء ! .. لا شيء البتة ! ولكننا سنرى ما اذا كان الفحم يخرج الآن من باطن الارض ! » .. وخلع معطفه ونفضه . ثم وقع نظره على الباب المفضى من الحديقة الى البهو فوجده منفرجا قليلا ، فتسلل فى خفة اليه وفتحه فجأة ثم عاد وأغلقه ، وقال : « ظننت أننى أحكمت اغلاق هذا الباب ! » .. فقال هنتر : « أجل .. انك أغلقته فعلا ! »

* * *

• وكان براكل ماضيا فى تقليب صفحات مجلته المصورة ، فقال وقد عاد صوته طبيعيا كما كان : « اننا نستعمل فى الشرق مدافع ضخمة .. ولكننى لم أر مدفعا منها . هل رأيتها أنت يا كابتن ؟ » .. فأجاب الكابتن لوفت : « أجل . بل رأيتها تنطلق . انها لمدهشة ، فلا شيء يستطيع أن يصمد أمامها ! »

وقال توندر : « هل تصلك أنباء كثيرة من الوطن ياكابتن؟» ، فأجاب لوفت : « تصلنى بقدر محدود ! »

ـ أكل شيء على ما يرام هناك ؟

فقال لوفت : « **بل كل شيء رائع ، فالجيش يتقدم فى كل مكان ! »**

ـ ألم تقع الهزيمة بعد بالبريطانيين ؟

ـ **انهم يهزمون فى كل موقعة !**

ـ ولكنهم ما زالوا يقاتلون ؟

ـ **ان قتالهم لا يعدو أن يكون بضع غارات جوية !**

ـ والروس ؟

ـ **لقد انتهى أمرهم !**

فسأله توندر فى اصرار : « ولكنهم مايزالون يقاتلون ؟ »

ـ ليس أكثر من بعض المناوشات !

فقال توندر : « اذن فقد انتصرنا تقريبا ياكابتن ؟ »

ــ **أجل انتصرنا !**

ونظر اليه توندر نظرة الفاحص المدقق وقال: « وانت تصدق هذا .. أليس كذلك يا كابتن ؟ » . فقطع براكل الحديث قائلا : « لا تدعه يبدأ هذا من جديد ! » .. وقال لوفت لتوندر فى لهجة تنطوى على اللوم والتعنيف : « لست أدرى ماذا تعنى » .. فأجاب توندر بقوله : « أقصد هذا : هل سنعود الي ديارنا قريبا ؟ » .. فقال هنتر : « ان اعادة التنظيم تستغرق بعض الوقت ، ولايمكن تنفيذ النظام الجديد فى يوم .. أليس كذلك؟» .. فقال توندر : « بل قد لا يمكن تنفيذه فى حياتنا كلها ! »

وقال براكل : « لاتدعه يبدأ هذا من جديد ! » .. فسار لوفت حتى اقترب كثيرا من توندر وقال له : « ان لهجتك فى السؤال لا تروق لى أيها الملازم ، فلست أستطيب لهجة تنم عن الشك والريبة ! »

فنظر اليه هنتر وقال : « لاتقسو عليه يالوفت ، فهو متعب ، وقد نال الارهاق منا جميعا »

فأجاب لوفت بقوله : « وأنا أيضا متعب ، ولكننى لا أدع لشكوك الخيانة سبيلا الى نفسى ! » . فقال هنتر : « قلت لك لاتدفعه الى الجنون ! .. هل تعرف اين ذهب الكولونيل ؟ » ، فقال لوفت : « انه يكتب تقريره ، ويطلب النجدات .. انها لمهمة أكبر مما كنا نظن ! » . فتساءل براكل فى لهفة : « هل سيفلح فى الحصول عليها .. تلك النجدات ؟ »

ــ وكيف لى أن أعرف ؟

وابتسم توندر قائلا : « النجدات ! » .. ثم أردف يقول فى رقة : « أو لعله يطلب من يحل محلنا ، فنستطيع عندئذ العودة الى الوطن وقضاء بعض الوقت فيه » .. ثم قال ومازالت الابتسامة على شفتيه : **« ولعلنى أستطيع السير فى الشارع فيرحب بى الناس ويقولون هاكم جنديا ، ويستخفهم الطرب**

من أجلى ، وأدخل أنا الفرح والسرور الى قلوبهم .. وسيلتف حولى الاصدقاء ، وسيكون فى استطاعتى أن أدير ظهرى لكل شخص دون أن أخشى شيئا ! »

فقال براكل : « لا تبدأ هذا من جديد ! .. لا تدعه يفلت زمام أعصابه ثانية ! » .. وقال لوفت فى اشمئزاز : « كفانا المتاعب التى نلاقيها الآن ، فلا تزيدها بدفع أركان الحرب الى الجنون ! »

ولكن توندر استطرد يقول : « أتظن أنه سيأتى من يحل محلنا ياكابتن ؟ »

ـ ولكنك قلت ان ذلك ممكن !

ـ قلت اننى لا أعلم !

ـ لقد غزونا نصف العالم ، ويجب أن نسيطر على النظام فيه فترة من الوقت .. انك تعلم هذا !

فتساءل توندر : « والنصف الآخر ؟ » .. فأجاب لوفت قائلا : « سيقاتل فى استماتة فترة من الزمن »

ـ اذن يجب أن ينتشر جنودنا فى أرجاء الارض كلها ! !

فأجاب لوفت : « لفترة وجيزة من الزمن ! » .. وهنا قال براكل فى انفعال : « ليتك تحمله على السكوت .. ليتك تستطيع اسكاته . دعه يسكت »

وأخرج توندر منديله وتمخط ، ثم اخذ يتحدث كما يتحدث المخبول ، وضحك ضحكة تنم عن الحيرة والارتباك ، ثم قال : « لقد رأيت حلما عجيبا .. أعتقد أنه كان حلما ، وربما كان فكرة .. أجل ، قد يكون حلما ، وقد يكون فكرة ! » .. فهتف براكل : « أسكته يا كابتن ! » . ولكن توندر قال متسائلا : « هل تم لنا غزو هذه البلاد يا كابتن ؟ » .. فقال لوفت : « طبعا ! »

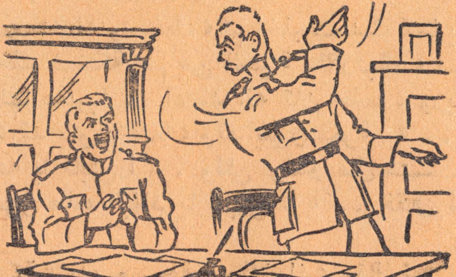
وشابت ضحكة توندر مسحة من الخبل ، وقال : « غزوناها ونخاف ؟ .. غزوناها ونحن محاصرون ؟ » .. وارتفعت

ضحكته مجلجلة وهو يقول : « لقد رأيت حلما ، أو لعله فكرة .. رأيت فى مثل ما يرى النائم أننى فى ذلك الجليد مع الاشباح السوداء والوجوه التى وراء الابواب .. الوجوه الباردة التى خلف الستائر .. لعلها فكرة أو قديكون حلما !» .. فصرخ براكل : « أسكتوه ! » . ولكن توندر استرسل قائلا : « حلمت بأن الزعيم مجنون ! »

وأطلق لوفت وهنتر ضحكة مشتركة ، وقال لوفت : « لقد تبين الاعداء مدى جنونه .. سأكتب هذا الخبر الى الوطن ، وستنشره الصحف . لقد علم الاعداء مدى جنون الزعيم ! »

واستمر توندر فى ضحكه وهو يقول : « غزو فى أثر غزو ، وتوغل فى العسل الاسود ! » ، وغص حلقه بالضحك ، فسعل فى منديله وهو يقول : « ربما كان الزعيم مجنونا ، فالذباب يتغلب على ورق صيد الذباب ! .. لقد استولى الذباب على مائتى ميل من ورق صيد الذباب الجديد ! » .. وأخذت الهستيريا تطغى على ضحكته ، فمال براكل عليه وهزه بيده السليمة قائلا : « كفى ! كفى ! ليس هذا من حقك ! »

وأخذ لوفت يدرك رويدا أن الضحكة باتت لونا من الهياج والخبل ، فاقترب من توندر وصفعه ، ثم قال : « كفى أيها



الملازم ! » .. ولكن توندر مضى فى الضحك ، فصفعه ثانية وقال : « كف عن الضحك أيها الملازم ! أتسمعنى ؟ »

وكف توندر عن الضحك ، وسكنت الحركة فى الغرفة ، فيما عدا أزيز المصابيح . ونظر توندر فى دهشة الى يده ، وتحسس بها الخدوش التى أصابت وجهه ، ثم عاد ينظر الى يده .. وطأطأ برأسه صوب المائدة وهو يقول : « أريد العودة الى الوطن ! »

الفصل السادس

• **كان** ثمة شارع صغير قريب من ميدان البلدة،اختلطت فيه البيوت ذات السقوف المحدودبة بالمتاجر والحوانيت الصغيرة . وكان الجليد قد أزيل عن الشارع والرصيفين ، ولكنه ظل مكدسا على الاسوار وأسطح البيوت ، وقد أخذت الرياح تدفعه على نوافذ البيوت الصغيرة المغلقة المصاريع . كما شقت الطرق فى أفنية البيوت . وكانت الليلة مظلمة باردة ، وقد حجب الضوء حتى لا يتسرب من النوافذ فتراه قاذفات القنابل وتهتدى به .. كما كانت الشوارع مقفرة من المارة ، اذ أن أوامر حظر التجول كانت تنفذ تنفيذا صارما . وبدت البيوت كأنها كتل سوداء تقوم على الجليد . وأخذت الداورية المؤلفة من ستة رجال تقطع الشارع بين الحين والحين متلصصة ، تختلس النظر ، وقد حمل كل رجل من أفرادها مشعلا كهربائيا طويلا ، فكان لوقع أقدامهم صدى يتردد فى الشارع رغم حرصهم ، ولأحذيتهم صريف يسمع على الجليد الجامد .. وكانوا يبدون مجرد أجسام غاصت فى المعاطف السميكة ، كما كانت تحت خوذاتهم قلنسوات من الصوف نسجت باليد ، وانسدلت على الآذان ثم انسابت فغطت الذقون والافواه . وسقط فى تلك الليلة قليل من الجليد .. مجرد كمية بسيطة ، تناثرت كحبات الارز !

وكان رجال الداورية يتحدثون وهم يسيرون .. يتحدثون فى أمور طال بهم الشوق اليها ، كاللحم والمرق الساخن ودسم الزبد وجمال الفتيات واشراق ابتساماتهن وشفاههن وعيونهن .. كانوا يتحدثون فى هذه الامور ، وكانوا يتكلمون أحيانا عن مقتهم لما كانوا يؤدون من اعمال ، وما كان يكتنفهم من الوحدة !

وكان ثمة منزل صغير محدودب السقف يقع الى جوار

متجر الحديد ، ويشبه المنازل الاخرى ، كما كان يعلوه الجليد مثلها . ولم يكن ينبعث أى ضوء من نوافذه المغلقة ، كما أن أبوابه المتينة ، المنيعة ، كانت مغلقة غلقا محــكما .. أما فى الداخل فكان ثمة مصباح مضاء فى غرفة الجلوس الصغيرة . وكان الباب المؤدى الى غرفة النوم مفتوحا ، والباب المـؤدى الى المطبخ مفتوحا ، بينما استقرت فى الجدار الخلفى مدفأة من الحديد تشتمل على فحم انبعثت منه نار صغيرة .. وكانت الغرفة دافئة ، بادية الفقر ، ولكنها مريحة ، تغطى أرضـيتها سجادة بالية ، ويكسو جدرانها ورق بنى ضارب الى الحمرة ، طبعت عليه زهرة الزنبق العتيقة بلون ذهبى . وعلى الجدار الخلفى كانت ثمة صورتان ، احداهما لسمكة ميتة على طبق من الاعشاب ، والاخرى لطائرميت على فرع من شجر الشربين . أما الجدار الايمن فكان يحمل صورة للسيد المسيح وهو يسير على الامواج صوب الصيادين الذين تملكهم اليأس ! وكان فى الغرفة مقعدان مستقيما الظهر ، وأريكة تغطيها ملاءة ناصعة البياض ، بينما استقرت فى وسط الغرفة منضدة مستديرة صغيرة وضع عليها مصباح يشتعل بالكيروسين ، عليه مظلة مستديرة رسمت عليها زهور .. وكان الضوء فى الغــرفة دافئا ناعما . والى جانب المدفأة ، قام الباب الداخلى الذى كان يفضى من الباب الخارجى المنيع الى الغرفة ، عبر الدهليز !

* * *

• **وكانت** مولى موردن تجلس وحيدة فى مقعد متأرجح مبطن بالوسائد ، بجوار المنضدة فى الغرفة ، وقد راحت تفك الصوف من صديرية زرقاء قديمــة وتلفه على بكرة ، حتى أصبح كرة كبيرة ضخمة . وعلى المنضدة استقر الغزل الذى كانت تنسجه ، وقد غرست فيه الابرتان ، والى جانبه مقص كبير .. كذلك كانت نظارتها على المنضدة بجوارها ، فلم تكن

بها حاجة اليها فى شغلها . وكان شعر مولى الذهبى مرفوعا الى قمة رأسها ، وقد رشقت فيه شريطا بشكل (فيونكة) .. كانت شابة أنيقة جميلة ، ذات خفة وسرعة فى فك خيوط الصوف . وكانت ترمق الباب المؤدى الى الدهليز ــ من حين الى آخر ــ وهى تشتغل ، بينما مضت الرياح تصفر فى المدخنة صفيرا هادئا لطيفا . بيد أنها كانت ليلة هادئة على وجه عام ، طواها الجليد فى طياته !

وتوقفت مولى فجأة عن عملها ، وسكنت يداها ، ونظرت الى الباب وهى تصيخ السمع ، فاذا بوقع أقدام رجال الداورية يمر بالبيت ، وأصواتهم تصل الى أذنيها خافتة ، ثم ما لبثت ان اضمحلت وتلاشت . وفكت مولى خيوطا جديدة لفتها حول البكرة ، ثم عادت فتوقفت ، اذ سمعت حفيفا عند الباب ثم تلته ثلاث طرقات قصار .. ووضعت مولى شغلها ، وقصدت الباب ، وقالت : « نعم ؟ »

وأعملت المفتاح فى القفل ، وفتحت الباب ، فدلف الى الداخل شخص تدثر بعباءة ثقيلة .. واذا بها آنى الطاهية .. وكانت حمراء العينين ، وقد التفت بكثير من الوشاحات . ومرقت من الباب بسرعة كأنها قد تمرست على المروق من الابواب ، وألفت اغلاقها خلفها .. ووقفت حمراء الانف ، تخن وتتنفس بعناء ، وهى تلقى نظرات سريعة على الغرفة . وما لبثت مولى أن قالت : « طاب مساؤك يا آنى ، لم أكن أتوقع حضورك الليلة . اخلعى ملابسك الخارجية ، وتعالى خذى قسطا من الدفء ، فالطقس بارد فى الخارج ! » . فقالت آنى : « لقد جاء الجنود بالشتاء مبكرا .. كان أبى يقول دائما ان الحرب تأتى معها بالطقس الردىء ، أو ان الطقس الردىء يأتى معه بالحرب ، لا أذكر أيهما ! »

ــ اخلعى ملابسك الخارجية وتعالى الى المدفأة

فقالت آنى فى لهجة حملتها أهمية ما ستقول : « لا أستطيع

هــذا ، فانهم قادمون » .. وســألتها مولى : « من هم القادمون ؟ » .. فأجابت آنى : « صاحب السعادة والطبيب والاخوان أندرس »

وتساءلت مولى قائلة : « هنا ؟ ولماذا ؟ » .. فمدت آنى اليها يدها ، وقد انقبضت على لفة صغيرة ، وقالت : « اليك هذه ، فقد سرقتها من طبق الكولونيل . انه لحم ! »

ونزعت مولى الغلاف عن قطعة اللحم ووضعتها فى فمها ، ثم قالت وهى تلوكها : « هل تناولت شيئا من هذا اللحم ؟ » .. فأجابت آنى بقولها : « ألست أنا التى أطهيه ؟ اننى أتنــاول بعض ما أطهى دائما ! »

— ومتى يأتون ؟

فجذبت « آنى » الهواء خلال أنفــها « المزكوم » وهى تقول : « ان الاخوين اندرس سيبحران الى انجلترا ، فانهمـا مكرهان على الرحيل ، وهما مختبئان الآن » .. فتساءلت مولى : « حقا ؟ ولم ؟ »

— لقد قتل أخوهما جاك اليوم جزاء تحطيمه تلك السيارة الصـغيرة ، والجنود يبحثون الآن عن بقية أفراد الاسرة .. وأنت تعلمين ما قد يفعلون بهم !

وأجابت مولى قائلة : « أجل ، اننى أعلم ماذا يفعلون .. اجلسى يا آنى ! » .. فقالت الطاهية : « ان وقتى ضيق ، اذ يجب على أن أعود لأطمئن صاحب السعادة الى أن كل شىء بخير هنا ! » .. فسألتها مولى : « هل رآك أحد قادمة ؟ » .. واذ ذاك ابتسمت آنى فى زهو وخيلاء ، وقالت : « كلا ، فاننى أجيد التسلل تماما »

— وكيف سيخرج العمدة ؟

وضحكت آنى وهى تقــول : **« سيحتل جوزيف فراش العمدة خشية أن يسعوا للتحقق من وجوده .. بل سيرتدى قميص نوم العمدة ، ويتمدد الى جوار السيدة ! »** ، ثم أطلقت

ضحكة أخرى وقالت: « يجدر بجوزيف أن يلتزم أقصى درجات السكون فى رقاده ! »

وقالت مولى : « انه لمن البلاء الاقلاع فى البحر فى مثل هذه الليلة ! »

— ولكنه أفضل من الاعدام رميا بالرصاص !

— أجل ، انك على حق .. ولماذا يأتى العمدة الى هنا ؟

— لست أدرى .. لعله يريد محادثة الاخوين أندرس ! .. يجب أن أنصرف الآن ، فما جئت الا لأخبرك !

وسألتها مولى : « ومتى يأتون ؟ » .. فأجابت آنى قائلة : « بعد نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة .. وسآتى أنا أولا ، اذ ليس هناك من يهتم بالطاهيات المسنات ! » .. ودلفت الى الباب ثم التفتت فى منتصف الطريق ، وكأنها تؤاخذ مولى ؛ كما لو كانت هى التى نطقت بالعبارة الاخيرة . وقالت : « لم تتقدم بى السن الى هذا الحد ! » ، ثم انفلتت من الباب وأغلقته خلفها

***

• **واستمرت** مولى تشتغل بالأبرة برهة ، ثم نهضت وذهبت الى الموقد ، فرفعت عنه الغطاء .. وأضاء وهج النار وجهها ، بينما حركت الفتاة النار وأضافت اليها بعض قطع الفحم ثم أغلقت الموقد كما كان . وقبل أن تصل الى مقعدها سمعت طرقا على الباب الخارجى ، فعبرت الغرفة وقالت تحدث نفسها : « ترى ماذا نسيت آنى ؟ » . وقطعت الدهليز وهى تقول : « ماذا تريدين ؟ » .. وأجابها صوت رجل ، ففتحت الباب ، واذا بها تسمع رجلا يقول : « اننى لا أقصد بك شرا ، اننى لا أقصد بك شرا » .. فتراجعت مولى الى الغرفة ، بينما تبعها الملازم توندر . فقالت مولى : « من أنت ؟ وماذا تريد ؟ ليس لك حق الدخول الى هنا . ماذا تريد ؟ »

وكان الملازم توندر يرتدى معطفه الرمادى الكبير . ودخل الغرفة ، وخلع خوذته ، ثم قال متوسلا : « لا أقصد بك شرا ، أرجوك السماح لى بالدخول ! » .. فقالت مولى :«وماذاتبغى؟» .. وأغلقت الباب خلفه ، فقال : « انما أريد أن أتكلم ياآنستى ، أريد أن أسمعك وأنت تتكلمين ، هذا كل ما أبغيه ! » .. فهبت مولى تسأله : « أتفرض نفسك على ؟ »

ـ كلا ياآنستى ، وانما دعينى أبقى برهة ، وسأنصرف من تلقاء نفسى !

ـ ما الذى تريده ؟

وحاول توندر أن يشرح لها الامر : **« أيمكنك أن تفهمى هذا؟ أيمكنك أن تؤمنى به ؟.. ألا يمكننا أن ننسى هذه الحرب برهة؟ برهة وجيزة !.. ألا يمكننا أن نتحدث كما يتحدث غيرنا من الناس برهة وجيزة .. معا ؟ ! »**

ونظرت اليه مولى طويلا ، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة وقالت : « انك لا تعرفنى ، أم تراك تعرفنى ؟ » .. فأجاب : « لقد شاهدتك فى البلدة ، وأعرف أنك جميلة ، وأعرف اننى أتوق الى محادثتك ! » .. فقالت مولى فى لهجة رقيقة ، والابتسامة ماتزال تداعب شفتيها : « انك لا تعلم من أنا » ، ثم جلست فى مقعدها بينما وقف توندر كأنه الطفل تبدو عليه الحيرة والارتباك . وأردفت مولى تقول فى هدوء : « انك تشعر بالوحدة ، هو هذا .. اليس كذلك ؟ »

ولعق توندر شفتيه ، وأخذ يقول فى جد : «أجل هو هذا .. انك تدركين ! كنت أعلم أنك ستدركين ، بل كنت أحس أنك ستدفعين الى هذا دفعا ! » ، وانطلقت الكلمات من فمه يزاحم بعضها بعضا : **« انني وحيد حتى لاشعر بالمرض من الوحدة .. انني وحيد في هذا الهدوء الشامل وهذا الحقد الجامح ! »** .. واسترسل فى توسل وابتهال : « الا نستطيع أن نتحدث برهة وجيزة ؟ »

والتقطت مولى شغلها ، وألقت نظرة عاجلة على البـاب الامامى ، ثم قالت : « يمكنك أن تبقى ربع ساعة على الاكثر.. اجلس قليلا أيها الملازم ! » .. وعادت تلقى نظرة أخرى على الباب ، فسرى الى آذانهما صوت صريف بعض أخشاب البيت، واذا بأعصـاب توندر تتوتر وهو يسألها : « أيوجد أحد فى المنزل ؟ »

ـ كلا ، ولكن الجليد قد ثقل على السقف ، ولم يعد لى رجل يدفعه الى أسفل !

فقال توندر فى رقة : « ومن الذى حرمك منه؟ أهو عمل من صنعنا ؟ » .. واومأت مولى برأسها، وقالت وهى تنظر بعيدا : « نعم » . فقال وهو يجلس : « اننى آسف » ، ثم استطرد بعد لحظة يقول : « ليتنى أستطيع شيئا . سأعمل على دفع الجليد عن السقف ! » .. فقالت مولى : « كلا ، كلا ! »

ـ ولم لا ؟

ـ لئلا يعتقد الناس أننى انضممت اليكم فيطردوننى ، وأنا لا أريد أن أطرد !

وقال توندر : « أجل .. اننى لادرك تأثير هذا ، فانكم جميعا تكرهوننا ، ولكننى سأسهر عليك اذا سمحت بذلك ! »

* * *

• **وأدركت** مولى انها استعادت السيطرة على نفسها فى تلك الاثناء ، فضاقت عيناها فى شىء من القسوة وقالت : « لماذا تسألنى ؟ انك الغازى ، ورجالك لا يســألون بل يأخذون مايريدون ! » .. فقال توندر : « ليس هذا ما أريد ، ولا هـذا هو السبيل الذى أسلكه لانال ما أريد ! »

وضحكت مولى وما زالت لهجتها تنبىء بالقسوة : «تريدنى أن أعجب بك .. أليس كذلك أيها الملازم ؟ » .. فقال ببساطة : « أجل » . ورفع رأسه ثم أردف يقول : « انك لشديدة الفتنة»

شديدة الدفء ، وشعرك لامع متألق ! انني لم أر عطفا يفيض من وجه امرأة منذ أمد بعيد ! »

فسألته : « وهل ترى عطفا فى وجهى ؟ » .. فحدق فيها ثم قال : « أريد أن أراه » .. وخفضت بصرهـا آخر الامر وقالت : « انك تطارحنى الغرام .. أليس كذلك أيها الملازم ؟ » .. فأجابها وهو لا يدرى ما يقول : « أريدك أن تعجبى بى !.. لا شك فى اننى أريد أن تعجبى بى .. بل لا جدال فى اننى أريد مشاهدة هذا فى عينيك !.. لقد رأيتك فى الطرق ، وراقبتك وأنت تمرين بى ، وأصدرت الاوامر بأن لا يعاكسك أحد ، فهل ثمة من عاكسك ؟ »

وأجابته مولى فى هدوء وسكينة : « شكرا لك ، كلا لم يعاكسنى أحد » .. فتدفقت الكلمات من فمه وهو يقول : « بل اننى كتبت قصيدة لك ! أتحبين أن تطلعى على قصيدتى ؟ » .. فسألته متهكمة : « أهى قصيدة طويلة ؟ ان عليك أن ترحل بعد فترة وجيزة » .. فأجاب : « كلا ، انها قصيدة صغيرة جدا .. قصيدة غاية فى الايجاز » . ودس يده فى جيب سترته فأخرج ورقة قدمها اليها ، فمالت بقرب المصباح ، ووضعت نظارتها على عينيها ، وشرعت تقرأ فى هدوء :

ان عينيك وهما فى زرقتهما العميقة
قد استولتا على ، ولن تفارقانى !
ومنهما انبثق نبع من الافكار السماوية
يندفع ويتدفق على قلبى !

وطوت الورقة ووضعتها فى حجرها ، ثم سألته : « هل كتبت أنت هذه القصيدة أيها الملازم ؟ »

ــ أجل !

فسألته ، وقد شاب لهجتها شىء من التقريع : « وكتبتها الى ؟ » .. فأجابها تونذر وقد أخذ القلق يتملكه : « أجل ! » .. فحدقت فيه ثم ابتسمت وقالت : « انك لم تكتب هذه القصيدة

أيها الملازم .. أليس كذلك ؟ » ، فابتسم ابتسامة الطفل الذى افتضح كذبه وقال : « كلا »

وسألته مولى : « أتعرف ناظمها ؟ » ، فقال توندر : «أجل ، فهو هيلينى .. لقد أحببت هذه القصيدة دائما !» .. وضحك وقد اعتراه الخجل ، فضحكت مولى معه ، ووجدا نفسيهما على حين بغتة يضحكان معا ، ثم كف توندر عن الضحك على حين فجأة أيضا ، وخيم الحزن على عينيه وهو يقول : « لم أضحك هكذا منذ وقت لا تعيه ذاكرتى ! » ، ثم استرسل يقول: « لقد أخبرونا بأن الناس سيحبوننا ، وسيعجبون بنا ، ولكن الحال ليست كما أخبرونا ، فالناس يكرهوننا!»،ثم غير الموضوع كأنه يقاوم الزمن : « انك لفاتنة ، بل انك فى جمال الابتسامة المشرقة ! »

وقالت مولى : « لقد بدأت تطارحنى الغرام أيها الملازم ، ويجب أن تنصرف بعد لحظة ! » .. فقال توندر : « لعلنى أريد أن أطارحك الغرام فعلا ، اذ ليس للرجل غنى عن الحب ، واذا حرم الحب مات ،اذ تذبل احشاؤه ويصبح صدره وكأنه الشظية الجافة .. اننى وحيد ! » .. ونهضت مولى عن مقعدها ونظرت بعصبية الى الباب ، ثم سارت الى الموقد ، ولما عادت كانت ملامحها قد اكتسبت قسوة وصرامة ، ولاحت الرغبة فى الانتقام فى عينيها ، وقالت له : **« أتريد أن تشاركنى فراشى أيها الملازم ؟ »**

ـ لم أقل هذا ! .. لماذا تتكلمين بهذه اللهجة ؟

وأجابت مولى بلهجة انطوت على القسوة : **« لعلنى أحاول أن أحملك على الاشمئزاز منى ، فلقد تزوجت مرة ، ومات زوجى ، فها أنت ترى اننى لست بكرا !»**..وشاعت المرارة فى صوتها . فقال توندر : « انما أريد أن تولينى ودك ! » .. فقالت مولى : **« اننى لادرك هذا ، فأنت رجل متمدين ، وتعرف أن**

مطارحة الحب لا تكون أتم وأوفى وأبهج الا اذا اقترنت بالود أيضا ! »

وهتف توندر يقول : « لاتتحدثى هكذا ! أرجوك أن لا تتحدثى هكذا ! » .. فرمقت مولى الباب بنظرة سريعة وقالت: « نحن قوم غلبنا على أمرنا أيها الملازم . لقد منعتم عنا الطعام ، وأنا جائعة ، وسأودك أكثر اذا أنت أطعمتنى » .. فهتف توندر : « ماالذى تقولين ؟ »

ـ هل أبعث فى نفسك الاشمئزاز منى ؟ ربما كنت أحاول هذا .. ان أجرى سجقتان !

وصرخ توندر قائلا : « لا تسترسلى فى هذا الحديث »

ـ وماذا كانت عليه حال فتياتكم بعد الحرب الاخيرة ؟ كان بوسع الرجل أن يختار من بينهن من تروق له لقاء بيضة أو كسرة خبز .. أفتريد أن تنالنى دون مقابل أيها الملازم ؟ ! أترى أن الاجر جد مرتفع ؟

فأجابها قائلا : « لقد خدعتنى لحظة ، ولكنك تكرهيننى أنت الأخرى .. أليس كذلك ؟ كان يخالجنى الشك فى هذا . »

فقالت : **« كلا ، اننى لا أكرهك ، ولكننى جائعة و .. وأكرهك! »**

وأجابها توندر بقوله : « سأعطيك كل ما تحتاجين اليه ، ولكن .. »

فقاطعته قائلة : **« أتريد أن تطلق على اسما آخر ؟ أنت لاتريد مومسا .. أهذا ما تعنى ؟ »**

فأجابها توندر : « لا أدرى ماالذى أعنى .. فقد جعلت الشىء الذى أبغيه يبدو مثقلا بالكراهية ! »

فضحكت مولى وقالت : **« ليس الجوع بالشىء المستحب . ان سجقتين ، سجقتين كبيرتين دسمتين قد تصبحان ـ مع الجوع ـ أغلى ما فى هذا العالم ! »**

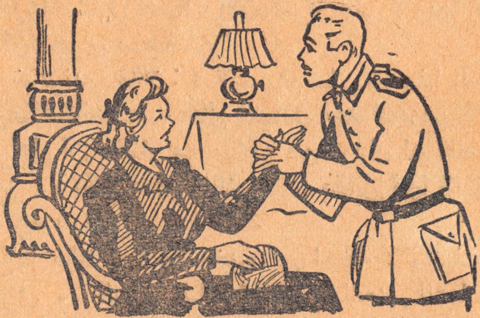
فقال لها : « لا تتفوهى بهذه العبارات .. أرجوك ألا تفعلى ! »

ـ لم لا ؟ انها لحقيقة صادقة !

ـ لا ، انها ليست صادقة !.. لا يمكن أن تكون صادقة !

وتطلعت اليه لحظة ، ثم جلست وأخذت تحدق في حجرها ، وقالت : « كلا .. انها ليست صادقة .. فأنا لا أكرهك ، بل انني أشعر بالوحدة أنا الاخرى.. والجليد يثقل على السقف!»

فنهض توندر واقترب منها ، وضم احدى يديها بين يديه وقال في رفق : « أرجوك أن لاتكرهيني ، فما أنا الا ملازم ..



انني لم أطلب المجيء الى هنا .. ولا اخترت أنت أن تكوني من أعدائي .. انما أنا رجل ، ولست غازيا ! »

وطوقت أصابع مولي يديه لحظة ، ثم قالت في رقة : « أعرف هذا ، أجل أعرفه ! » .. فقال توندر : « ان لنا بعض الحق في الحياة وسط كل هذا الموت ! » .. فرفعت يدها الى خده لحظة ، ثم قالت : « أجل ! » .. وقال : « لسوف أسهر عليك ، فان لنا بعض الحق في الحياة وسط كل هذا الاغتيال » .. واستقرت يده على كتفها.. وعلى حين غرة ، تصلبت أطرافها واتسعت عيناها وحملقتا كأنهما رأتا شبحا ، فتراخت يده عن كتفها ، ثم سألها : « ما الخبر ؟ ماذا جرى ؟ » ، وكانت عيناها تحدقان الى الامام ، فكرر قوله : « ما الخبر ؟ »

وتحدثت مولى وكأنها انتقلت الى عالم آخر بسحر غريب: « لقد عاونته على ارتداء ملابسه كأنه طفل يذهب الى المدرسة لاول مرة .. وكان خائفا، فزررت له قميصه، وحاولت أن أسرى عنه، ولكنه كان فى حال يتعذر معها التسرية .. كان خائفا ! » .. فهتف توندر: « ماذا تقولين ؟ »

وبدا على مولى انها تصف منظرا بدا لعينيها، فاستطردت تقول: « لست أدرى لماذا تركوه يعود الى الدار .. وكان حائرا مرتبكا .. لم يكن يعلم ماذا يجرى، بل انه لم يقبلنى عندما رحل، فقد كان خائفا .. وكان شجاعا جدا !.. كأنه طفل يذهب الى المدرسة لاول مرة ! »

فنهض توندر وقال: « هل كان هذا زوجك ؟ » .. فأجابت مولى: « **أجل، كان هو زوجي ! .. وذهبت الى العمدة، ولكنه كان عاجزا، لاحول له ولا قوة .. ثم سار زوجي فى خطى بطيئة مهتزة .. وأخذتموه وأطلقتم عليه الرصاص فقتلتموه . كانت غرابة الامر وقتئذ تفوق فظاعته، وكدت أن لا أصدقه فى ذلك الحين !** »... فعاد توندر يتساءل: « زوجك ؟ ! »

ـ أجل ! .. على اننى أصبحت الآن أصدق ماحدث، اذ يخيم السكون على المنزل . اننى أصدق الآن ما حدث، اذ يتراكم الجليد على السقف .. بل وأعرف أنه حقيقة، فى الوحدة التى ألاقيها فى الفراش الذى لايكمل دفئه قبل أن ينبلج الصبح !

ووقف توندر أمامها وقد لاحت أمارات التعاسة على وجهه، وقال: « طابت ليلتك، فليحفظك الله، هل أعود ؟ » .. فتطلعت مولى الى الجدار واستعادت ذكرياتها ثم قالت: «لست أدرى»

ـ سأعود !

ـ لست أدرى

فنظر اليها ثم دلف الى الخارج فى هدوء ، ومازالت مولى تحملق فى الجدار ، وتتمتم : « فليحفظنى الله ! »

* * *

• **وظلت** مولى برهة تحملق فى الحائط ، ثم فتح البـــاب فى هدوء ودخلت « آنى » .. ولم تشعر بها مولى ، بل انها لم ترها ! .. وقالت آنى تؤنبها : « لقدكان الباب مفتوحا » .. فأدارت مولى نظراتها اليها ومازالت عيناها على اتساعهما ، وقالت : « أجل ، أجل يا آنى »

ـ كان الباب مفتوحا ، وقد خرج منه رجل . لقد رأيته .. كان يبدو كالجندى !

وقالت مولى : **« أجل يا آنى »**

ـ أكان الذى هنا جنديا ؟

ـ أجل ، كان جنديا !

وسألتها آنى وقد ثارت شكوكها : « **ماذا جاء يفعل هنا ؟** »

ـ جاء يطارحنى الغرام !

وقالت آنى : « ماذا تفعلين ياسيدتى ؟ .. **أتراك انضممت** الى صفوفهم ؟ هل أنت معهم مثل كوريل ؟ »

ـ كلا ، لست معهم يا آنى

وقالت آنى : « اذا عادوا والعمدة هنا ، فسيقع عليـــك وزر أى مكروه يحدث .. سيكون الذنب ذنبك ! »

ـ لن يعود .. لن أدعه يعود !

ولكن الشكوك لم تزايل آنى ، فقالت : « هل أخبرهم أن يأتوا الآن ؟ . أتظنين أن المكان مأمون ؟ »

ـ أجل ، انه مأمون . أين هم ؟

فقالت آنى : « انهم فى الخارج ، خلف السياج »

ـ دعيهم يدخلون !

وخرجت آنى ، فنهضت مولى ونسقت شعرها ، وهزت رأسها محاولة أن توقف نفسها من سباتها .. وسمع صوت

ضئيل فى الدهليز ، ثم دخل شابان طويلان أشقران ، يرتديان سترتين فى لون الحمص ، وصديريتين سوداوين ، وقبعتين مصنوعتين من الجوارب استقرتا على رأسيهما .. وكانت القوة بادية عليهما ، وقد لوحتهما الرياح .. وكان النـاظر اليهمـا يحسبهما توأمين . ذانك هما : ويل اندرس، وتوم اندرس، صيادا السمك

ـ طاب مساؤك يامولى . هل سمعت الخبر ؟

ـ لقد نقلته آنى الى .. ان الرحيل فى ليلة كهذه لامر شاق !

فقال توم : « انها لافضل من الليلة الصافية ، فالطائرات ترى الشخص فى الليلة الصافيـة .. ماذا يريد العمـدة يامولى ؟ »

ـ لست أدرى ، ولقد نمى الى ما وقع لاخيك ، واننى لآسفة !

وساد الصمت بين الاثنين ، وتملكتهما الحيرة ، ثم قال توم : « انك أدرى من الكثيرين بوقع هذا الامر ! »

ـ أجل ، اننى أعرف وقعه !

وجاءت آنى الى الباب ثانية ، وقالت تهمس فى صـوت أجش : « لقد جاءا ! » .. ودخل العمدة أوردن والدكتـور وينتر ، فخلعا معطفيهما وقبعتيهما ووضعاها على الاريكة . وذهب أوردن الى مولى وطبع قبلة على جبينها ، وهو يقول : « طاب مساؤك ياعزيزتى » .. ثم التفت الى آنى وقال : « قفى فى الدهليز يا آنى ، واطرقى الباب طرقة عند مرور الداورية ، وأخرى عند انصرافها ، ثم طرقتين فى حالة الخطر ، ويمكنك أن تتركى الباب الخارجى مفتوحا قليلا حتى اذا قدم أحـد سمعته »

فأجابت آنى قائلة : « سمعا وطاعة ياسيدى » . وذهبت الي الدهليز بعد أن أغلقت باب الغرفة خلفها

وكان الدكتور وينتر عند المدفأة ، يلتمس الدفء ، فقال : « بلغنى انكما راحلان الليلة يابنى » .. فقال توم : « اننامكرهان على الرحيل » .. وأومأ أوردن وهو يقول : « أجل ، أعرف هذا ، وقد علمنا أنكما ستأخذان المستركوريل معكما» . وضحك توم ضحكة مريرة وهو يقدل : «**لقد خيل الينا أن هذا هو الصواب ، فاننا سنأخذ قاربه ، ولا نستطيع أن نتركه هو هنا ، اذ ليس من الخير مشاهدته يمرح فى الشوارع !** » .. فقال أوردن فى لهجة تنم عن الحزن والاسى : « ليته رحل! .. ولكن من الخطر عليكما أن تأخذاه معكما » .. فردد ويل قول أخيه: « ليس من الخير مشاهدته فى الشوارع .. ليس من الخير للناس أن يروه هنا »

وسألهما وينتر قائلا : « هل يمكنكما أخذه ؟ أليس هو على شىء من الحرص ؟ »

ــ بل انه حريص بعض الشىء . على أنه الف العودة الى منزله فى الساعة الثانية عشرة ، وسنكون خلف السور ،وأعتقد اننا نستطيع نقله من حديقته الى الماء ، فان قاربه يرسو هناك، وقد ذهبنا الى القارب اليوم وأعددناه للرحيل

وعاد أوردن يقول : « كنتأتمنى لو أن الظروف لم تكرهكما على هذا ، فان فيه مزيدامن الخطر ، اذ أن الداورية قد تشعر بكما لو انه أثار أية ضجة » .. فقال توم : « انه لن يثير ضجة ، ومن الخير أن يختفى فى البحر ، فان بعض أهل البلدة قد يقضون عليه ، فتقع حوادث قتل كثيرة .. كلا ! من الافضل أن يخرج الى البحر ! »

والتقطت مولى شغلها وقالت : « هل ستلقيان به الى البحر ؟ » .. فسرت حمرة الخجل فى وجه ويل وهو يقول : « سيخرج الى البحر ياسيدتى ! » .. ثم التفت الى العمدة متسائلا : « أكنت تريد مقابلتنا ياسيدى ؟ »

ــ أجل ، أريد محادثتكما .. لقد حاولت أنا والدكتور

وينتر أن نفكر .. فقد كثر الحديث عن العدل والظلم والغزو. لقد تعرض شعبنا للغزو ، ولكنني لا أعتقد أنه غلب على أمره!»

* * *

• وسمعت طرقة حادة على الباب ، فخيم السكون على الغرفة . وتوقفت ابرتا مولى عن عملهما ، وظلت يد العمدة ممدودة فى الهواء ! وكان توم يحك أذنه ، فترك يده حيث هى ، وكف عن الحك ! .. وظل كل من فى الغرفة بلا حراك ،وتحولت الاعين كلها صوب الباب . وجاء صوت وقع أقدام الداورية خافتا ، ثم أخذ يشتد شيئا فشيئا . وسمعوا صريف أحذية رجالها على الجليد ، وصوت حديثهم وهم يمرون .. ومالبثوا أن جاوزوا الباب ، ثم أخذ وقع أقدام الرجال يخف رويدا وهم يبتعدون .. وسمعت طرقة أخرى على الباب ،فتنفس كل من فى الغرفة الصعداء !

وقال أوردن : « لابد أن الطقس بارد فى الخارج لا تقوى عليه آنى » ، ثم أخذ معطفه من فوق الاريكة وفتح البـاب الداخلى ، ومد يده بالمعطف قائلا : « ضعى هذا حول كتفيك يا آنى ! » .. ثم أغلق الباب وهو يقول : « لست ادرى ماذا كنت أفعل بدونها ، فانها تذهب الى كل مكان ، وترى وتسمع كل شيء ! »

وقال توم : « يجب أن نرحل فى الحال ياسيدى » .. فقال وينتر : « ليتكما لاتفكران فى كوريل » .. فقال الشاب : « لا نستطيع هذا ، فليس من الخير مشاهدته فى الشوارع !»، ونظر متسائلا الى العمدة أوردن ، فشرع هذا يقول ببطء : « أريد أن يكون حديثى معكما بسيطا واضحا .. هذه بلدة صغيرة ، والعدل والظلم فيها يتمثلان فى أمور بسيطة .. فلقد أعدم أخوكما وأعدم ألكس موردن أيضا .. وكان هـذا الاعدام وذلك باسم الانتقام من خائن . وقد ثارت ثائرة الناس غضبا وحقدا ، ولا سبيل لهم الى رد العدوان ، ولكن كل هذا

على قدر محدود .. انه شعب ضد شعب ، وليست فكرة ضد فكرة ! »

وقال وينتر : « **من الغريب أن يفكر طبيب فى الابادة والافناء، ولكننى أعتقد أن كل من غزيت أرضه تستبد به الرغبة فى المقاومة .. اننا قوم عزل ، ولاتكفى روحنا المعنوية ولاأجسامنا .. فان الروح المعنوية لرجل أعزل سرعان ما يدركها الضعف ويتطرق اليها الوهن !** »

وتساءل ويل أندرس قائلا : « فيم كل هذا ياسيدى ؟ ماذا تريد منا ؟ » .. فقال أوردن : « نريد قتالهم ولا نستطيع الى هذا سبيلا .. انهم يحاربون الناس بالجوع الآن ، والجوع يورث الضعف . انكما ستبحران الى انجلترا ، ولعلكما لن تجدا اذنا صاغية ، ولكن انقلا اليهم عنا ـ نحن أهل هذه البلدة الصغيرة ـ اننا فى حاجة الى السلاح ! »

وسأل توم : « أتريدون بنادق ؟ »

وسمعت طرقة سريعة على الباب ، فجمد كل من كان فى الغرفة حيث هو . وجاء من الخارج صوت وقع أقدام الداورية مرة أخرى ، ولكنهم كانوا يسرعون الخطى فى هذه المرة ، بل يركضون . وأسرع ويل صوب الباب .. وحاذت خطى الرجال المسرعين باب البيت ، وسمعت أوامر مبهمة ، ثم هرعت الخطى فى طريقها ، وطرق الباب طرقة أخرى

وقالت مولى : « لابد أنهم يطاردون شخصا ، ترى من يكون هذه المرة ؟ » .. فقال توم فى قلق : « لقد حان موعد رحيلنا . أتريدون بنادق ياسيدى ؟ هل نطلب البنادق ؟ »

ـ كلا ، بل اشرح لهم الموقف كما هو عليه الآن . قل لهم اننا مراقبون ، وان أية حركة نقوم بها تقابل بالانتقام ، وان بودنا الحصول على أسلحة بسيطة .. أسلحة سرية تستخدم خفية ، كالمفرقعات والديناميت ، لنسف السكة الحديدية .. والقنابل اليدوية اذا أمكن .. بل والسم أيضا ! . ثم أردف

يقول والغضب يتملكه : « **ليست هذه حربا شريفة ، بل هى حرب خداع وقتل ، فلنحارب بالوسائل التى حوربنا بها .. فلتلق قاذفات القنابل البريطانية قنابلها على المصانع ، ولكن فلتلق الينا نحن أيضا بقنابل صغيرة نستعملها ونخفيهاونضعها سرا تحت الخطوط الحديدية وتحت الصهاريج ، وبذلك يتم تسليحنا .. تسليحنا خفية ، ولن يعلم الغازى قط من منا المسلح ! فلتأت لنا قاذفات القنابل بأسلحة بسيطة ، وسنعرف كيف نستخدمها** »

وهتف وينتر يقول : « لن يعرفوا من أين تنزل بهم الضربات .. لن يعرف الجنود ولا الداوريات مطلقا من منا المسلح » .. فمسح توم جبهته وقال : « سننقل اليهم هذا ياسيدى ، اذا أفلحنا فى الهرب . ولكننى سمعت ان الذين يتولون الحكم فى انجلترا رجال لايهتمون بتسليح عامةالشعب» .. فحملق أوردن فيه وقال : « لم أفكر فى هذا ، وليس لنا الا أن ننتظر ما سوف يقولون .. ولو أن مثل هؤلاء القوم لايزالون يحكمون انجلترا وأمريكا ، فقل على العالم السلام!.. انقل اليهم ما قلنا اذا استمعوا اليك ! .. يجب أن نحصل على معاونة ، وما أن تصلنا .. » ، ثم قست ملامح وجهه وأردف يقول : « اذا وصلتنا فسنعاون أنفسنا ! »

وقال وينتر : « ليتهم يعطوننا حتى الديناميت لنخفيه .. لندفنه فى الارض حتى يكون فى متناول أيدينا عند الحاجة .. ولن يعرف الغازى الراحة بعد هذا قط ! .. سننسف مخازن مؤنه وذخائره »

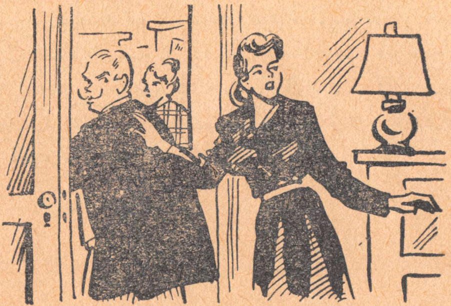
* * *

• **وطفت** على الغرفة موجة من الحمية والحماس ، فقالت مولى فى شدة وعنف : « **اجل ، نستطيع بذلك أن نقض**

مضاجعه ، وأن نتلف أعصابه ، ونجعل من يقينه شكا وريبة!»
وسأل ويل فى هدوء : « أهذا كل ماتطلب ياسيدى ؟ » ..
فأومأ أوردن برأسه وقال : « نعم ، هذا هو لب الموضوع »
ـ واذا أبوا الاستماع الينا ؟
ـ ماعليك الا المحاولة ، كما ستحاول عبور البحرالليلة !
ـ ألا تريد شيئا آخر ياسيدى ؟
وفتح الباب ودخلت آنى فى هدوء ، بينما مضى أوردن يقول : « هذا كل مافى الامر ، فاذا كان موعد رحيلكما قد حل فلارسل آنى الى الخارج لتطمئن الى سلامة الطريق » .. ثم نظر فرأى أن آنى قد جاءت من الخارج . وقالت آنى : « هناك جندى قادم ، وهو يشبه الجندى الذى كان هنا من قبل .. فقد كان هنا جندى مع مولى قبل الآن »
ونظر الآخرون الى مولى ، بينما قالت آنى : « لقدأغلقت الباب » .. فتساءلت مولى : « ماذا يريد ؟ ما الذى يدعوه الى العودة ؟ »
وسمع صوت طرق رقيق على الباب الخارجى ، فذهب أوردن الى مولى وسألها قائلا : « ما هذا يامولى ؟ هل أنت فى مأزق ؟» .. فأجابته : « كلا ، كلا ! اخرجوا من البابالخلفى .. يمكنكم الخروج من الباب الخلفى . اسرعوا ! اسرعوا الى الخارج ! »
واستمر الطرق على الباب الامامى ، وكان صوت رجل ينادى فى رقة ولطف . وفتحت مولى الباب المؤدى الى المطبخ وقالت : « اسرعوا ! اسرعوا » .. فوقف العمدة أمامها وقال : « هل أنت فى مأزق يامولى ؟ ما أظنك ارتكبت ذنبا ؟ » . فقالت آنى فى لهجة شابها البرود : « يبدو أنه هو نفس الجندى ، فلقد زارها جندى من قبل ! » . وقالتمولى موجهة الحديث الى العمدة : « أجل ، لقد زارني هنا جندى من قبل » ..
فسألها العمدة قائلا : « وماذا كان يريد ؟ »

ـ كان يريد مطارحتى الغرام !

فقال أوردن : « ولكنه لم يتمكن منك ؟ » .. فأجابت : «كلا ، لم يتمكن منى .. والآن اذهبوا ، ولا تخشوا على بأسا» وقال موردن : « اذا كنت فى مأزق يامولى فدعينانساعدك» .. فأجابت قائلة : « لايستطيع أحد معاونتى فى المأزق الذى أنا فيه .. انصرفوا الآن » .. ودفعتهم خارج الباب . ولكن



آنى تخلفت عن الجماعة ، ونظرت الى مولى ثم قالت : « ماذا يريد هذا الجندى ياسيدتى ؟ »

ـ لست أعلم ما الذى يريده !

ـ هل ستقولين له شيئا ؟

فقالت مولى : « كلا » ، ثم عادت فكررت فى ذهول:«كلا» .. وانثنت تقول فى لهجة حادة : « كلا يا آنى ، لن أقول له شيئا ! » .. وعبست آنى فى وجهها وهى تقول : « يحسن بك أن لاتقولى له شيئا ! » ، ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها

واستمر الطرق على الباب الامامى ، وكان من الممكن سماع صوت رجل من خلال الباب ، فذهبت مولى الى المصباح الملقى على المنضدة ، وقد أثقلها الهم والحيرة . ونظرت الى المصباح ، ثم الى المنضدة ، فرأت المقص الكبير الذى كان بجانب

شغلها .. وأمسكته من نصليه ـ فى شرود وذهول ـ فانفلت النصلان من أصابعها حتى أضحت تمسك بالمقص نفسه كأنه السكين ، وقد بدأ الرعب فى عينيها . وعادت تنظر الى المصباح وقد غمر الضوء وجهها ، ثم رفعت المقص ببطء ودسته فى طيات ثوبها

واستمر الطرق على الباب ، وسمعت صوتا يناديها ، فمالت على المصباح لحظة ثم أطفأته فجأة . وغشى الغرفة ظلام دامس ، لا يتخلله سوى بقعة حمراء من الوهج كانت تشع من مدفأة الفحم .. ثم فتحت الباب . وكان صوتها متوترا ، عذبا ، رخيما ، وهى تهتف قائلة : « اننى قادمة أيها الملازم .. اننى قادمة ! »

الفصل السابع

• لم يكن القمر الأبيض ، المضمحل ، يرسل من الضوء ما يكفى لتبديد ظلمة الليل . وكانت الرياح تهمهم على سطح الجليد .. رياح هادئة تصب بانتظام وبدرجة متساوية من مركز القطب البارد ، وقد تساقط الجليد فى غزارة على الارض ، فنشأت عنه طبقة كثيفة جافة هى والرمل سواء بسواء .. واستكنت البيوت فى تجاويف الجليد المتراكم . وكانت النوافذ معتمة ، مغلقة ، وقاية لأهلها من البرد . وما كان ينبعث عن نيران تلك البيوت الا القليل من الدخان ..

وجمد الجليد فى دروب البلدة وتصلب .. وكانت الشوارع مقفرة من المارة ، يخيم عليها سكون لا يعكره الا مرور الداورية التعسة المقرورة .. وساد الظلام المنازل فى تلك الليلة ، وقد تخلف فيها شىء من دفء الصباح . وكان الحراس المعينون عند مدخل المنجم يرقبون السماء ، ويوجهون آلاتهم صوبها ، ويتسمعون الاصوات . **اذ كانت تلك الليلة صافية تصلح لالقاء القنابل . ففى مثل هذه الليـــلة ، كانت تلقى الاسطوانات الفولاذية ذات الزوائد المجنحة ، فتنقض على من كانت تلقى عليهم فى صفير مزعج ، وتنفجر مخلفة الشظايا .. فلقد كانت الارض تبدو واضحة لمن فى السماء ، ولو أن ضوء القمر كان خافتـــا باهتـــا !**

وفى أحد طرفى البلدة ــ بين المنازل الصغيرة ــ كان ثمة كلب يعوى متأثرا بالبرد والوحدة . وأخذ يرفع أنفه الى ربه يشكو اليه ، بعوائه الطويل المرير ، ما آلت اليه حال الدنيا ، وما عاد عليه من جراء ذلك .. وكان مغنيا مدربا له حنجرة كالجرس تعلو فيها الطبقات وتنخفض ! .. وسمع الرجال الســتة الذين يؤلفون الداورية ــ وهم يذرعون الشوارع فاترى العزم

ثابطي الهمة ـ « غناء » هذا الكلب ، فقال أحد الجنود : « يبدو لى أن هذا الكلب يزداد سوءا ليلة بعد ليلة ، وأعتقد أن من واجبنا قتله ! »

وأجابه واحد منهم : « ولماذا ؟ دعه يعوى ، فانه لايزعجنى . لقد كان لى فى الوطن كلب يعوى ، ولم أستطع ترويضه مطلقا ، اذ كانت تغلب عليه الكآبة . ان العواء لا يزعجنى . وقد أخذوا كلبى فيما أخذوا من الكلاب ! » .. وكان الحزن يسود لهجته، فقال الملازم : « ما كان لك ان تقتنى كلابا ، فان الحاجة ماسة الى الطعام الذى قد تغذيها عليه ! »

ـ لست أشكو ، فاننى أعلم ان للضرورة أحكاما ! . **ليس بوسعى ان أنحو فى تفكيرى نحو الزعماء ، ولكننى لا أملك الا العجب من أن بعض الناس هنا يقتنون الكلاب ، مع ان ماعندهم من الطعام يقل عما عندنا .. ومع ذلك فالناس والكلاب هنا غاية فى النحافة والهزال !**

فقال الملازم : « انهم لبلهاء ، ولذلك خسروا المعركة بهذه السرعة .. ان تفكيرهم لا يرقى الى مستوى تفكيرنا » .

وقال الجندى : « ترى أيكون لنا كلاب ثانية بعد أن تضع الحرب أوزارها ؟ .. أعتقد أننا مستطيعون الحصول عليها من أمريكا أو من بلد آخر ، لنبدأ انسالها من جديد ! .. أى نوع من الكلاب فى أمريكا فيما تحسب ؟ »

فأجاب الملازم قائلا : « لست أدرى .. لعلها كلاب مجنونة ككل شىء عندهم هناك ! » ، ثم أردف يقول : « وعلى كل فقد لا يكون للكلاب أى نفع ، فحرى بنا ان لا نفكر فيها الا بقدر ما يلزمنا منها لأعمال البوليس » .. فقال الجندى : « قد يكون الامر كما تقول ، فقد علمت أن الزعيم لا يحب الكلاب ، وقد سمعت أنه يصاب بالسعال والعطاس اذا اقتربت منه ! »

.. فقال الملازم : « انك تسمع أشياء كثيرة ! انصتوا ! »

وتوقفت الداورية فى سيرها .. وطرق آذانهم صوت أزيز

الطائرات قادما من بعيد ، فقال الملازم : « ها هى قد جاءت !.. حسننا ، لا يوجد أى ضوء .. ألم ينقض اسبوعان منذ جاءت الطائرات آخر مرة ؟ » .. فأجاب الجندى : « بل اثنا عشر يوما »

وسمع الحراس الذين كانوا فى المنجم أزيز الطائرات العالية، فقال جاويش : « انها تطير على ارتفاع شاهق ! » .. فطوح الكابتن لوفت رأسه الى الوراء حتى يستطيع أن يرى من تحت حافة خوذته ، ثم قال : « أعتقد أنها تطير على ارتفاع يزيد على ٢٠٫٠٠٠ قدم ، وربما كانت تحلق فوق رؤوسنا الآن ! » .. فأنصت الجاويش قليلا ثم قال : « ليس عددها كبيرا جدا ، ولا أعتقد أن عددها يزيد على ثلاثة . هل أخطر المدفعية ؟ »

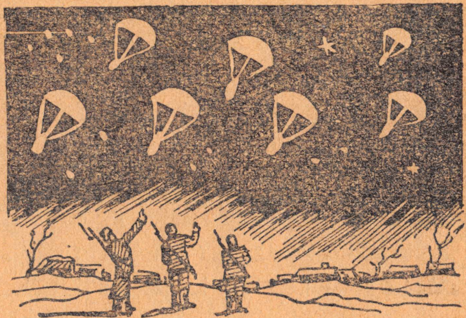
ـ كلا ، بل اطمئن الى أن رجالها ساهرون ، ثم استدع الكولونيل لانسر . بل . . لا ، لا تستدعه ، فقد لا تأتى الطائرات الى هنا .. انها فوقنا تقريبا ولم تبدأ فى الانقضاض بعد !

ـ يبدو لى أنها تدور فى دوائر ، ولا أعتقد أن عددها يزيد على اثنتين

وسمع الناس وهم فى أسرتهم أصوات الطائرات ، ففرقوا فى أطواء الاسرة يصيخون السمع . وأيقظ الصوت الضئيل الكولونيل لانسر فى قصر العمدة ، فانقلب على ظهره ينظر الى السقف المظلم بعينين مفتوحتين ، وقد حبس أنفاسه ليسمع جيدا ، ولكن قلبه أخذ ينبض بقوة حتى استحال عليه السمع جيدا .. وسمع العمدة أوردن أزيز الطائرات فى نومه ، فنسج خياله منها حلما ، وأخذ يتحرك ويهمس فى نومه !

وكانت قاذفتا القنابل فى لون الطين ، وقد راحتا تحومان وتدوران على ارتفاع كبير ، وقد أغلقتا صمام النفس فى محركاتهما ، واخذتا تحلقان فى الجو وهما تحومان فى دوائر .. وتساقطت من بطن كل منهما أشياء صغيرة جدا .. مئات

من هذه الاشياء ، الواحد منها فى أثر الآخر .. وقد سبحت الاشياء فى الجو بضعة أقدام ، ثم انفتحت مظلات صغيرة متصلة بها ، أخذت تتهادى فى هبوطها فى سكون ، حاملة طرودا صغيرة الى الارض التى تحتها . ثم فتحت الطائرتان صمام النفس مرة أخرى ، فارتفعتا فى الجو ، وما لبثتا أن أغلقتا



باب النفس وعادتا لتحويمهما فألقتا مزيدا من تلك الطرود الصغيرة ، ثم استدارتا وعادتا من حيث جاءتا !

***

• وسبحت المظلات الصغيرة فى الفضاء كأنها زغب الحسك ، فحملها الريح وتكفل بتوزيعها .. وظلت تسبح ببطء حتى استقرت آخر الامر على الارض فى رفق وهوادة ، حتى ان طرود الديناميت التى يبلغ طولها عشر بوصات كانت تقف مستقيمة أحيانا فى الجليد ، تحيط بها مظلاتها الصغيرة . . وكانت تبدو سمراء اللون بالنسبة للجليد ، وقد هبطت فى الحقول البيضاء وفى غابات الجبال وفى الاشجار ، وتدلت من فروعها . واستقر بعضها على سقوف منازل البلدة الصغيرة ، والبعض فى أفنية البيوت الامامية الصغيرة .. بل ان طردا منها

استقر على قمة رأس تمثال القرية الذى يمثل القديس « ألبرت » الرسول

وهبطت مظلة صغيرة من هذه المظلات فى الشارع أمام الداورية ، فقال الجاويش : « حذار ! انها قنبلة زمنية ! » .. فقال أحد الجنود : « انها ليست كبيرة ! »

ــ حسنا ، لا تقترب منها !

وأخرج الجاويش مشعله الكهربائى وسلطه على هذا الشىء ، فاذا به مظلة صغيرة لا يزيد حجمها على حجم المنديل ، ذات لون أزرق فاتح ، يتدلى منها طرد لف بورق أزرق .. وقال الجاويش : « حذار ان يلمسها أحدكم ! .. اذهب انت ياهارى الى المنجم وادع الكابتن ، بينما نرقب نحن هذا الشىء اللعين ! »

وبزغ الفجر المتأخر ، وخرج الناس من بيوتهم فى الريف ، فشاهدوا البقع الزرقاءعلى الجليد .. وذهبوا اليها والتقطوها، ثم فكوا الورق الذى لفت به وقرأوا الكلمات المطبوعة .. ورأوا الهدية . وسرعان ما أصبح كل من وجد طردا من هذا القبيل كتوما ، يحرص على سره حرصه على نفسه ، فيخفى الأنبوبة الطويلة تحت سترته ، ويذهب الى مكان سرى فيخفيها فيه . وسمع الاطفال نبأ الهدية ، فأخذوا ينقبون عنها تنقيبهم عن بيض عيد الفصح ، فاذا وفق طفل الى المظلة الزرقاء،اندفع الى الهدية وفتحها ثم أخفى الانبوبة وحدث والديه بأمرها .. وتملك الخوف بعض الناس ، فسلموا الانابيب الى السلطات العسكرية ، ولكنهم لم يكونوا كثيرين .. وهرع الجنود هم الآخرون الى البلدة ينقبون عن هذه المظلات الصغيرة تنقيب الاطفال عن بيض عيد الفصح ، بيد أنهم لم يوفقوا توفيق الاطفال !

أما فى غرفة الاستقبال بقصر العمدة ، فقد ظلت مائدة الطعام ــ وحولها المقاعد ــ كما كانت يوم اعدم « الكس موردن » . بيد ان الغرفة لم تعد تحتفظ بالفتنة التى كانت

لها عندما كان القصر قصر العمدة ، وقد بدت الجدران جرداء ، اذ حرمت من المقاعد التى كانت مسندة اليها .. وخلعت المائدة على الغرفة ، بالاوراق المبعثرة عليها ، منظر المكتب التجارى ! ودقت الساعة التى على رف المدفأة التاسعة . وكان اليوم مظلما ، تخيم عليه الغيوم .. فقد جاء الفجر معه بغيوم الجليد الثقيلة !

وخرجت آنى من غرفة العمدة ، وهرعت الى المائدة فرمقت الاوراق التى كانت عليها . ودخل الكابتن لوفت ، فوقف فى مدخل الباب عندما رأى آنى ، وسألها قائلا : « ماذا تفعلين هنا ؟» .. فأجابت آنى عابسة متجهمة : **« نعم يا سيدى »**

ـ أقول ماذا تفعلين هنا ؟

ـ **فكرت فى أن أنظف هذه الغرفة يا سيدى !**

ـ دعك من هذا الآن ، وانصرفى الى حال سبيلك !

فقالت آنى : **« سمعا وطاعة يا سيدى »** . وانتظرت حتى أفسح لها ، ثم انطلقت خارجة لا تلوى على شىء .. واذ ذاك استدار الكابتن لوفت فى مدخل الباب وقال : « حسنا ، ائت بها » . فخف جندى من خلال الباب القائم خلفه ، وقد علق بندقيته على كتفه ، وحمل بين يديه عددا من الطرود الزرقاء ، وقد تدلت من أطرافها قطع الدوبارة الصغيرة والقماش الازرق

وقال لوفت : « ضعها على المائدة » . فصدع الجندى بما أمر به ، ووضعها على المائدة فى حرص وحذر . فقال لوفت : « والآن ، اذهب الى الكولونيل لانسر فى الطابق الاعلى ، وقل له اننى جئت ومعى .. الاشياء ! » ، فدار الجندى على عقبيه وبارح الغرفة

وذهب لوفت الى المائدة فالتقط طردا من هذه الطرود . وارتسمت على وجهه علائم النفور والكراهية ! .. وأمسك بالمظلة الزرقاء الصغيرة ، ورفعها فوق رأسه ، ثم ألقى بها ، فانفتحت وسبحت فى الجو حتى استقرت على الأرض . ثم

التقط الطرد ثانية وشرع يفحصه . وما لبث الكولونيل ان جاء مسرعا الى الغرفة ، وفى أعقابه الماجور هنتر .. وكان يحمل فى يده قطعة مربعة من الورق الاصفر . وقال لانسر : « طاب صباحك يا كابتن ! » .. وذهب الى رأس المائدة وجلس ، وأخذ ينظر برهة الى الكومة الصغيرة من الانابيب ، ثم التقط احداها وأمسك بها فى يده ، وقال : « اجلس يا هنتر . هل فحصت هذه ؟ »

وجذب هنتر مقعدا جلس عليه ، ثم نظر فى الورقة الصفراء التى فى يده ، وقال : « لم أفحصها جيدا . **لقد نسف خط السكة الحديدية فى ثلاثة مواضع ، كلها فى مسافة عشرة أميال** » .. فقال لانسر : « انظر اليها وحاول أن تكون رأيا عنها ! »

فمد هنتر يده وأخذ انبوبة نزع عنها غلافها الخارجى ، فوجد طردا صفيرا الى جوار الانبوبة . وأخرج هنتر سكينا وأحدث شقا فى الانبوبة — وكان الكابتن لوفت يقف وراءه يشاهده — وتشمم الشق ، ثم دعك أصابعه معا وقال: «ان هذا لسخف ، فانه لديناميت تجارى ، ولا أعلم نسبة ما فيه من نيتروجليسرين حتى اختبره » . ثم نظر الى طرف الانبوبة واسترسل يقول : « ان لها غطاء الديناميت المعتاد ، وفلمينات الزئبق — وهى الفضة المتفجرة — ثم فتيل يستغرق اشعاله نحو الدقيقة فيما أظن » .. وألقى بالانبوبة على المائدة ثانية وهو يقول : « انها لغاية فى الرخص والبساطة ! »

ونظر الكولونيل الى لوفت وقال : « كم تظن ألقى من هذه الانابيب ؟ » .. فأجاب لوفت بقوله : « لست أدرى يا سيدى ، فقد جمعنا منها نحو الخمسين ، ونحو تسعين مظلة مما تلقى به الانابيب . والناس — لبعض الاسباب — يأخذون الانابيب ويتركون المظلات .. ولعل هناك عددا كبيرا لم نعثر عليه بعد! »

ولوح لانسر بيده وهو يقول : « **ليس للامر أية أهمية فى الواقع ، فليلقوا ما يشاءون من الانابيب ، فليس فى استطاعتنا**

ان نحول دونهم ودون القائها ، ولا نستطيع استعمالها ضدهم أيضا .. وهم بهذا لايكونون قد هزموا أحدا ! »، فقال لوفت فى قسوة وعنف : « نستطيع أن نمحوهم من على وجه الارض! »

وكان هنتر ينتزع الغطاء النحاسى لاحدى هذه الانابيب ، وقال لانسر : « أجل ، نستطيع أن نفعل هذا . هل نظرت الى هذا الغلاف يا هنتر ؟ »

ـ كلا ، فلم يتسع لى الوقت بعد

فقال الكولونيل لانسر : « انه لعمل شيطانى ، فالغلاف أزرق لكى تسهل رؤيته ، فاذا نزعت الغلاف الخارجى وجدت ... »، والتقط الطرد الصغير، واستأنف يقول: « قطعة من الشيكولاته، سيبحث عنها الكل .. أراهن أن جنودنا يسرقون الشيكولاتة، بل سيبحث عنها الأطفال بحثهم عن بيض عيد الفصح ! »

* * *

• ودخل جندى وضع قطعة مربعة من الورق الأصفر أمام الكولونيل وانسحب . ورمقها لانسر ، ثم ضحك ضحكة أجشة وهو يقول : « هذا لك ياهنتر .. انهما كسران آخران فى خطك الحديدى »

ورفع هنتر رأسه عن الغطاء النحاسى الذى كان مكبا على فحصه ، وسأل الكولونيل قائلا : « هل كان القاء هذه الانابيب عاما ؟ .. هل ألقوها فى كل مكان ؟ » .. وظهرت الدهشـــة على وجه لانسر وهو يجيب قائلا : « هذا هو الشىء الغريب .. فقد اتصلت بالعاصمة فعلمت أنهم لم يلقوا هذه الانابيب الا هنا »

وسأله هنتر : « وما رأيك فى هذا ؟ » .. فقال: « يتعذر على أن أبدى رأيا .. لقد اختاروا هذا المكان للتجربة ، فاذا نجحـوا هنا استخدموا هذه الوسيلة فى كل مكان آخر ، واذا لم تفلح هنا ، عدلوا عنها ! » .. فسأله هنتر : « وماذا أنت فاعل ؟ »

– لقد أمرتنى العاصمة بأن أقاوم هذه الحركة بغير رحمة حتى لا يعودوا لالقاء هذه الأنابيب فى أى مكان آخر !

وقال هنتر وقد شاب لهجته الحزن : « كيف سأصلح خمسة كسور فى الخط الحديدى؟.. ليس عندى الآن قضبان لخمسة كسور » .. فأجاب لانسر :«أعتقد ان عليك أن تنزع بعض قضبان خطوط التخزين القديمة ! »

وألقى الماجور هنتر الانبوبة التى مزقها على كومة الانابيب ، بينما قال لوفت :« **يجب أن نتخذ اجراءا سريعا يا سيدى .. يجب أن نقبض على الناس الذين يلتقطون هذه الاشياء ، وأن نعاقبهم قبل أن يقدموا على استعمالها .. ويجب أن نسرع حتى لا يظن هؤلاء الناس اننا ضعفاء !** »

وكان لانسر يبتسم ، فقال : « على رسلك يا كابتن، فلنفحص ما أمامنا أولا ثم نفكر فى أنواع العلاج » .. وأخذ طردا جديدا من الكومة وفض غلافه ، ثم تناول قطعة الشيكولاتة الصغيرة وذاقها ، وقال : « ان هذا لعمل شيطانى ، والشيكولاتة من النوع الجيد ، حتى اننى لاأستطيع مقاومة اغرائها .. انها لدى بمثابة اللقية التى تسوقها المصادفات ! » .ثم تناول الديناميت وقال : « ما رأيك فى هذا حقا يا هنتر ؟ »

– عين ماقلته لك ، وهو أن الديناميت ذا الغطاء والفتيل الذى يستغرق دقيقة واحدة ، رخيص جدا .. وفعال جدا للمهام الصغيرة . وهو جيد اذا عرفت كيف تستعمله ، ردىء اذا لم تعرف ! » .وأخذلانسر يدرس الكلمات المكتوبة داخل الغلاف ، ثم سأل هنتر قائلا : « هل قرأت هذا ؟ » .. فأجاب هنتر : « ألقيت عليه نظرة فقط ! » . واذ ذاك قال لانسر : « لقد قرأته أنا ، وأريدك أن تنصت الى جيدا » . ثم أخذ يقرأ من الورقة : « **الى القوم الذين لا يقهرون : اخفوا هذا ولا تفضحوا أنفسكم ، فستحتاجون اليه فيما بعد ! .. انها هدية من أصدقائكم اليكم ، ومنكم الى غازى بلادكم ! .. لاتحاولوا**

أن تستخدموها فى الاعمال الكبيرة ».. وتحول يقرأ بعد ذلك فقرات من المنشور : « اليك بيان الاعمال : خطوط السكة الحديدية الممتدة فى الريف .. والعمل ليلا .. وتعطيل وسائل النقل ! .. واليك هذا الآن : تعليمات بشأن الخطوط الحديدية ..ضع أنبوبة تحت الخط بقرب التوصيلة تماما ، واحكم شدها برباط ، ثم غطها بالطين أو بالجليد الجامد حتى تثبت مكانها . فاذا أشعلت الفتيل ، فان الديناميت ينفجر بعد أن تعد الى الستين .. عدا بطيئا ! »

ثم رفع لانسر رأسه الى هنتر ، فقال هذا ببساطة : « انها لطريقة فعالة » . وعاد لانسر ينظر فى ورقته ويقرأ منها بعض الفقرات : « الجسور : اضعفها ولا تدمرها ! .. وهاك أيضا : أعمدة التلغراف ، وكذلك « البرابخ » .. وعربات الشحن !» .. ووضع لانسر ورقة التعليمات الزرقاء على المائدة وقال : « هاك كل ما يهمنا من الامر ! » .. فقال لوفت وقد شاب لهجته الغيظ : « يجب أن نفعل شيئا .. لا بد أن هناك طريقة لعلاج هذه الحال .. ماذا تقول القيادة ؟ » .. فزم لانسر شفتيه ، وعبثت أصابعه باحدى الانابيب ، ثم قال : « كنت أستطيع أن أخبرك بما عساهم أن يقولوه قبل ان ينطقوا به .. ستصدر الى الاوامر بوضع الفخاخ المزيفة ، ووضع السم فى الشيكولاته ! » .. ثم سكت لحظة وأردف يقول : **«اننى رجل أمين ومخلص يا هنتر ، ولكننى عندما أسمع أحيانا الافكار النيرة التى تصدر عن القيادة ، أتمنى لو أننى كنت مدنيا .. بل مدنيا مسنا ، كسيحا ! .. انهم يعتقدون دائما انهم يتعاملون مع قوم أغبياء .. لست أقول ان هذا مقياس ذكائهم .. ألا ترى ذلك ؟ »**

وبدا المرح على هنتر وهو يقول : « أهذا رأيك ؟ »

فأجاب لانسر بحدة : « كلا ، ولكن ما الذى سيحدث ؟ .. سيلتقط رجل أحد هذه الفخاخ فينسف ويتمزق اربا .. وقد

يأكل طفل الشيكولاتة فيموت متسمما بالزرنيخ ، ثم ماذا ؟ »
.. ونظر الى يديه وأضاف قائلا : ((**سيحركونها بالعصى الطويلة أو بالحبال قبل أن يلمسوها ، وسيلقون بقطع الشيكولاتة الى القطط أولا ليعرفوا تأثيرها عليها .. الحق ان هؤلاء قوم أذكياء يا ماجور ، ولن يلدغوا من الفخاخ الزائفة مرتين !))**

وتنحنح لوفت وقال : « ان هذا حديث داعية من دعاة الهزيمة ياسيدى .. يجب أن نفعل شيئا ! ولماذا تفترض أن هذه الانابيب لم تلق الا هنا يا سيدى ؟ » . فأجاب لانسر بقوله : « لأحد سببين : أما ان هذه البلدة قد اختيرت جزافا ، أو أن ثمة اتصالا بين هذه البلدة والخارج .. فنحن نعلم أن بعض الشبان قد تمكنوا من الفرار »

وكرر لوفت يقول فى لهجة تنم عن الكآبة والملل :« يجب أن نفعل شيئا يا سيدى ! » .. فالتفت اليه لانسر قائلا : « أعتقد اننى سأوصى باختيارك فى هيئة أركان الحرب العليا ، فأنت تتوق للعمل حتى قبل أن تعرف كنه المشكلة ! .. ان هذا نوع جديد من الغزو ، فقد كان من الممكن قبلا تجريد السكان من السلاح وتركهم فى جهالتهم ، أما اليوم فهم يسمعون الاذاعات ، ونحن لا نستطيع منعهم ، بل اننا لا نعثر لمذياعاتهم على أثر ! »

* * *

• **وأطل** جندى برأسه من الباب قائلا : « المستر كوريل يريد مقابلتك ياسيدى » .

فأجاب لانسر بقوله : « قل له ان ينتظر ! » .. واستمر فى حديثه مع لوفت : « انهم يقرأون المنشورات ، وهم يزودون بالاسلحة من الجو ، اليوم بالديناميت ياكابتن ، وربما زودوا بالقنابل اليدوية ثم بالسم ، قريبا ! » فقال لوفت فى قلق : « انهم لم يلقوا بالسم بعد ! »

ـ كلا ، ولكنهم سيفعلون . أيمكنك أن تتخيل مدى ماينال من الروح المعنوية لرجالنا ، بل مدى ماينال من روحك المعنوية أنت ، لو ان الناس كانوا مزودين بتلك الالعاب من السهام الصغيرة .. تلك الاشياء الصغيرة التافهة التى تلقيها على هدف معين ، وقد تكون أطرافها مغمورة فى السيانور .. انها لعب صغيرة ، قاتلة ، صامتة ، لاتسمع صوتها وهى مصوبة اليك ، وتخترق البذة العسكرية دون أن تحدث صوتا .. ثم ماذا تكون عليه الحال اذا عرف رجالنا ان الزرنيخ موجود بوفرة ؟ .. أيمكنهم ، بل أيمكنك أنت أن تأكل وتشرب وأنت مستريح لما تأكل أو تشرب ؟

فقال هنتر بجفاء : « هل تضع أسس حملة الاعداء ياكولونيل ؟ »

ـ كلا ، وانما أنا أحاول التكهن بها !

وقال لوفت : « نحن نجلس هنا ياسيدى لانحرك ساكنا ، فى حين يقتضينا واجبنا أن نبحث عن هذا الديناميت .. واذا كانت ثمة منظمة ربطت بين هؤلاء القوم ، فيجب ان نجد فى البحث عنها وأن نعمل على القضاء عليها ! » .. فأجاب لانسر قائلا : « أجل ، يجب أن نقضى عليها ، وبشدة وعنف فيما أحسب . خذ أنت سرية يالوفت ، وليأخذ براكل سرية أخرى .. كنت أتمنى لو أن عندنا مزيدا من الضباط الصغار . أن توندر لم يكن يرجى منه أقل نفع لنا .. لست أدرى لم لم يفض عن النساء ؟ » . وهنا قال لوفت : « اننى لست مطمئنا لتصرفات الملازم براكل ياسيدى »

ـ ماذا يفعل ؟

ـ انه لايفعل شيئا ، ولكن أعصابه متوترة .. وهو الى هذا كثير الحزن ، كثير الكآبة !

فأجاب لانسر بقوله : « أجل ، أعرف هذا ، وهو أمر تحدثت عنه كثيرا ، ولو لم أكثر الحديث عنه لاصبحت لواءا !

.. لقد دربنا شبابنا على الفوز ، ولا بد لك من الاعتراف بأنهم غاية فى الروعـة فى استخلاص الفوز ، ولكنهم لايعرفون ماذا يعملون عند الهزيمة .. لقد قلنا لهم انهم أذكى واشجع من غيرهم من الشبان ، فصدموا عندما عرفوا أنهم ليسوا أشجع ولا أذكى فى شيء من غيرهم من الشبان ! »

وقال لوفت فى صوت أجش : « ماذا تعنى بالهزيمة ؟ اننا لم نهزم !» .. فتطلع اليه لانسر ببرود لحظة ولم ينبس ببنت شفة . وأخيرا تذبذبت عينا لوفت وقال : « سيدى » .. فقال لانسر : « شكرا لك »

ـ انك لاتطلب هذا من غيرى ياسيدى !

ـ انهم لايفكرون فى الامر ، فلا يعد عـدم مصارحتى لهم بالحقيقة اهانة . أما اذا أخفيت الحقيقة عمن يعلمها فان هذا الاخفاء يعتبر اهانة !

فأجاب لوفت بقوله : « أجل ياسيدى »

ـ هـلم الآن ، وحاول أن تملك زمام براكل .. ابدأوا البحث ، ولا أحب أن تطلقوا النار الا فى الاحوال العلنية .. أتفهمنى ؟

فقال لوفت : « أجل ياسيدى» . ثم أدى التحية العسكرية وبارح الغرفة . فنظر هنتر الى الكولونيل لانسر وقال مداعبا : « ألم تكن قاسيا عليه ؟ »

ـ لقـد اضطررت لهذا ، فان الخوف يملا قلبـه ! ومن الواجب تأديبه عندما يستبد به الخوف والا انهارت أعصابه . ان قـوام حياته التأديب والنظام ، كما أن قوام حياة غـيره العاطفة والحنان ! .. أعتقد انه يحسن بك الذهاب لاصلاح خطوطك الحديدية ، اذ يجدر بك أن تتوقع ان تكون الليلة هى الموعد الذى ينسفونها فيها !

ونهض هنتر وهو يقول : « أجل ، وأعتقد أن القيادة توشك أن تصدر الاوامر من العاصمة »

ـ أجل

ـ وهل هم ...

فقاطعه لانسر بقوله : « **أنت تعرفهم على حقيقتهم .. أنت تعلم كيف يريدون أن يكونوا .. اقبضوا على الزعماء ، اقتلوا الزعماء..خذوا الرهائن ، اقتلوا الرهائن !.. خذوا المزيد من الرهائن ، واقتلوهم !** » ، وكان صوته قد ارتفع ، ولكنه لم يلبث أن انخفض ثانية حتى أصبح همسا وهو يقول : « **والحقد يتزايد والوقيعة بيننا تزداد تأصلا !** » . فقال هنتر فى تردد : « هل حكموا بالموت على واحد ممن تضمنتهم القائمة ؟ » .. وأومأ ايماءة خفيفة صوب مخدع العمدة . ولكن لانسر هز رأسه قائلا : « كلا ، لم يصدر عليهم الحكم بعد ، وهم حتى الآن مقبوض عليهم فقط ! »

فقال هنتر بهدوء : « أتريدنى أن أوصى ياكولونيل ... لعلك مرهق ياكولونيل ، أتسمح لى أن أبلغ السلطات بأنك مرهق ، منهوك القوى ؟ » .. وغطى لانسر عينيه لحظة بيده ، ثم شد كتفيه ، وبدت الصرامة على أسارير وجهه وهو يقول : « لست مدنيا ياهنتر . ان الضباط ينقصوننا وأنت تعلم هذا .. اذهب الى عملك ياماجور ، اذ يجب أن اقابل كوريل » . وابتسم هنتر ، وذهب الى الباب وفتحه ، ثم قال من خارج الباب : « أجل هوهنا » ، ثم التفت وقال للانسر : « انه براكل ، وهو يريد مقابلتك »

فأجابه لانسر قائلا : « دعه يدخل »

***

• **ودخل** براكل ، وقد ارتسمت الكآبة على وجهه ، وقال فى لهجة انطوت على العداء : « سيدى الكولونيل لانسر ، بودى لو .. » ، فقطع عليه لانسر الحديث قائلا : « اجلس ، اجلس واسترح قليلا . كن جنديا مطيعا أيها الملازم »

وسرعان ما زايلت الصلابة براكل ، فتهاوى على مقعد بجوار المائدة ، واستند بمرفقيه عليها وقال : « بودى لو . . . » . فقال لانسر : « لاتتحدث لحظة . انني أدرك حقيقة شعورك . لم تكن تظن أن الامر سينتهى الى هذه الحال ، أليس كذلك ؟ كنت تظن أن الامر سيسير على أحسن حال »

فقال براكل : **« انهم يكرهوننا .. انهم يكرهوننا أشد الكره وأعظمه ! »**

فابتسم لانسر وهو يقول : « أتراني أصيب الحقيقة اذا قلت ان الشبان هم الذين يصبحون جنودا بواسل ، والشبان فى حاجة الى الشابات .. أتراني أصبت كبد الحقيقة ؟ »

ــ أجل ، هذه هى الحقيقة !

فقال لانسر فى عطف : « حسنا ، أهى تكرهك ؟ » .. فنظر اليه براكل فى دهشة وهو يقول : « لست أدرى ياسيدى ، ويخيل الى أحيانا ان شعورها لايجاوز الاسف »

ــ وأنت تشعر بتعاسة كبيرة ؟

ــ ان البلدة لاتروق لى ياسيدى !

ــ كلا ، ولكنك كنت تظن ان الامر لايعدو أن يكون لهوا . أليس كذلك ؟ .. لقد انهارت أعصاب الملازم توندر ، وخرج ، فطعنوه بسكين !.. انني استطيع أن أعيدك الى الوطن ، فهل تود أن تعود الى الوطن وأنت تعلم حاجتنا اليك هنا ؟

فقال براكل والقلق يستبد به : « كلا ياسيدى ، فهذا مالا أوده »

ــ حسنا ، سأصارحك الآن . وأرجو أن تدرك ما أقول : انك لم تعد رجلا .. لم تعد انسانا ، وانما أنت جندى ، فلا أهمية لراحتك .. بل ليست لحياتك أهمية كبيرة أيها الملازم ! واذا امتد بك الاجل ، عشت على ذكرياتك .. وهذه هى كل ماستخرج به تقريبا من الحرب ! وفى الوقت نفسه يجب أن تصدع بالاوامر الصادرة اليك وأن تنفذها ! .. **ستبدو لك**

معظم الاوامر مقيتة بغيضة ، ولكن ليس هذا من شأنك . لن أكذب عليك أيها الملازم .. كان يجب أن يدربوك على هذا ، لا على الشوارع المفروشة بالزهور والرياحين ! .. كان يجب أن يدعموا روحك بالحقائق لا أن يضللوها بالاكاذيب ! .. وأخذ صوته يشتد صرامة وهو يقول : « ولكنك قبلت المهمة أيها الملازم ، فهل أنت مؤديها أم ستتخلى عنها ؟ .. ليس فى وسعنا أن نعنى بروحك ونتعهدها بالتهذيب ! »

فنهض براكل وقال : « شكرا لك ياسيدى » .. واسترسل لانسر يقول : « **اما الفتاة ، أيها الملازم ، فلك أن تغتصبها أو تفرض عليها حمايتك أو تتزوجها ، كل هذا لا أهمية له طالما انك تقتلها عندما تؤمر بذلك !** » .. وقال براكل فى ضيق وملل : « أجل ياسيدى . شكرا لك ياسيدى »

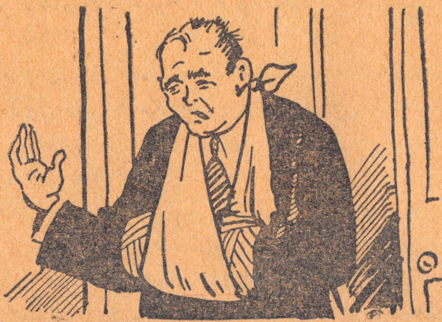
ــ أؤكد لك أن من الخير لك أن تعلم .. أؤكد لك هذا . من الخير لك أن تعلم ! .. انصرف الآن أيها الملازم ، واذا كان كوريل ما زال منتظرا فدعه يدخل

وأخذ لانسر يراقب الملازم براكل وهو يغادر الغرفة ، وما لبث أن أقبل المستر كوريل وقد بدا عليه التغير الشامل ، اذ كانت ذراعه موضوعه فى قالب من الجبس ، كما انه لم يعد كوريل المرح الودود الضاحك ، وانما لاح صارم الملامح ، تعلو وجهه سمات الحزن والالم ، وقد احولت عيناه كأنهما عينا خنزير صغير نفق !

وقال كوريل : « كان يجب أن أحضر قبل الآن ياكولونيل ، ولكن عدم معاونتك جعلتنى أتردد »

فأجاب لانسر : « كنت تنتظر جوابا على تقريرك فيما أذكر »

ــ بل كنت أنتظر شيئا أكثر من هذا بكثير ، فقد أبيت على مركزا من مراكز السلطان ، وقلت عنى اننى غير ذى قيمة ، ولم تدرك اننى كنت فى هذه البلدة قبلك بزمن طويل .. ثم



انك أبقيت العمدة فى منصبه على عكس مانصحتك به !

وأجاب لانسر بقوله : « لولاه لكان من الارجح ان تزيد الاضطرابات على ما هى عليه ! » .. فقال كوريل : «لكل رأيه . ان هذا الرجل زعيم لقوم متمردين ! » .. فأجاب لانسر : « هراء ! ان هو الا رجل بسيط ! » . واذ ذاك أخرج كوريل بيده السليمة دفترا أسود من جيبه الايمن ، وفتحه بأصابعه ، وقال : « لقد نسيت ياكولونيل أن لى مصادرى ، واننى فى هذه البلدة قبلك بزمن طويل .. ومن ثم فاننى أود أن أبلغك ان العمدة أوردن كان على اتصال وثيق بكل ماوقع فى هذه البلدة من حوادث . **وفى الليلة التى قتل فيها الملازم توندر ، كان العمدة فى المنزل الذى ارتكبت فيه جريمة القتل ، فلما هربت الفتاة التى قتلت توندر الى الجبال ، أقامت عند أحد أقاربه . لقد تعقبتها الى هناك ، ولكنها كانت قد لاذت بالفرار . وكان أوردن على علم دائما بهرب من يغادر البلاد من الرجال ، بل انه مد يد المساعدة اليهم ، واننى لقوى الاشتباه فى أن له ضلعا فى قصة تلك المظلات الصغيرة !»**

فأجاب لانسر فى حمية : « ولكنك لاتستطيع اقامة الدليل على هذا »

فقال كوريل : « كـلا ، لا أستطيع اقامة الدليل عليـه . والموضوع الاول أعرفه عن يقين ، أما الثانى فمجرد اشتباه .. فلعلك الآن مستعد أن تنصت الى » .. وأجاب لانسر بهدوء : « وما الذى تقترحه ؟ »

ــ ان اقتراحاتى ياكولونيل أقوى قليلا من أن تكون مجرد اقتراحات .. أن أوردن يجب أن يحتفظ به رهينة الآن ، وأن تتوقف حياته على استتباب السلام فى هذه البلدة ، يجب أن تتوقف حياته على اشعال فتيلة واحدة لعود واحد من أعواد الديناميت !

ودب يده فى جيبه مرة أخرى ، وأخرج دفترا آخر مطويا ، ففتحه ووضعه أمام الكولونيل قائلا : « هذا هو ياسيدى الرد الذى ورد الى من القيادة عن تقريرى . ولعلك تلاحظ انه خولنى بعض السلطان »

ونظر لانسر الى الدفتر الصغير وأجاب فى هدوء : « اذن ، فقد التجأت الى القيادة من وراء ظهرى ؟ » ، وتطلع الى كوريل والكره واضح فى عينيه قائلا : « سمعت أنك جرحت ، فكيف وقع الحادث ؟ » .. فقال كوريل : **« فى الليلة التى قتل فيها الملازم توندر كان قد نصب كمين لخطفى ، وقد أنقذتنى الداورية .. وكان بعض أهل البلدة قد هرب فى قاربى فى تلك الليلة . والآن ياكولونيل .. هل ألح أكثر مما ألححت فى وجوب أخذ العمدة أوردن رهينة ؟ »**

فأجاب لانسر بقوله : « انه هنا ولم يهرب ، فكيف نحتفظ به رهينة أكثر مما فعلنا ؟ »

وفجأة طرق أذن الرجلين صوت انفجار ، فالتفتا الى مصدر الصوت ، وقال كوريل : « هاك ياكولونيل ، وأنت تعلم جيدا أنه اذا نجحت التجربة فسيكون الديناميت فى كل بلد محتل ! »

وكرر لانسر فى هدوء قوله : « وما اقتراحك ؟ »

ــ ماقلته لتوى ، وهو أن تكون حياة أوردن رهينة ضد اندلاع نيران الثورة !

ــ واذا ثاروا وقتلنا أوردن ؟

ــ يأتى اذن دور ذلك الطبيب .. فمع انه لايتولى منصبا، الا انه يتلو العمدة فى السلطان

ــ ولكنه ليس من أصحاب المناصب فى البلدة ؟

ــ انه ينعم بثقة الناس

ــ واذا قتلناه ، فماذا تكون الخطوة التالية ؟

ــ يؤول السلطان الينا ونخمد الثورة . فان التمرد يتحطم اذا قتلنا الزعماء !

وسأله لانسر مداعبا :« أتعتقد هذا حقا ؟»

ــ يجب أن يكون الامر كذلك

وهز لانسر رأسه ببطء ثم نادى يقول : « أيهاالحارس!» . وفتح الباب وظهر جندى على عتبته ، فقال له لانسر : « أيها الحارس ، لقد قبضت على العمدة أوردن وقبضت على الدكتور وينتر ، فعليك الاطمئنان الى قيام الحراسةعلى أوردن ، وعليك أن تأتى بوينتر الى هنا فى الحال ! »

وأجاب الحارس بقوله : « سمعا وطاعة ياسيدى ! »

ونظر لانسر الى كوريل وقال : « أرجو أن تكون واثقا مما أنت مقدم عليه .. أرجو ان تكون واثقا مما أنت مقدم عليه ! »

الفصل الثامن

• **كانت** الانباء تنتشر فى البلدة الصغيرة انتشار النار فى الهشيم .. فقد كانت تنقلها الهمسات فى مداخل البيوت ، والنظرات السريعة ذات المغزى : « لقد ألقى القبض على العمدة» .. وسرت فى البلدة موجة صغيرة هادئة من الابتهاج .. موجة صغيرة فيها قسوة وفيها عنف ، وأخذ الناس يتحدثون سويا فى هدوء ثم يفترقون ، وكان الذين يدخلون منهم المتاجر لشراء حاجتهم من الطعام يميلون لحظة على أصحاب المتاجر ، فيتبادلون واياهم الهمسات !

وكان الناس يؤمون الريف ، ويتوغلون فى الغابات ، بحثا عن الديناميت . وكان الاطفال يعثرون على الديناميت وهم يلعبون فى الجليد ، وكانوا قد تلقوا التعليمات التى يجب عليهم اتباعها ، فكانوا يفتحون الطرود ويأكلون الشيكولاته ، ثم يدفنون الديناميت فى الجليد ويخبرون اهلهم بمكانه !

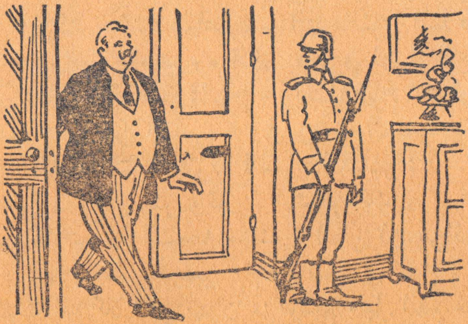
وفى مكان ناء من الريف ، التقط رجل أنبوبة وقرأ التعليمات ، فقال محدثا نفسه : « ترى أهذه صالحة ؟ » ، وأوقف الانبوبة على الجليد وأشعل الفتيل ، واسرع يبتعد عنها ، ثم شرع فى العد ، ولكن عده كان مسرعا ، فقد وصل الى ثمانية وستين قبل أن ينفجر الديناميت ، فقال: «انها صالحة فعلا!» ، وأسرع يبحث عن أنابيت أخرى ! .. وكان الناس يهرعون الى بيوتهم فى أوقات معينة ، وكانهم تلقوا اشارة بذلك ، فتغلق الابواب من خلفهم ، وتقفر الشوارع ، ويخيم عليها السكون . وكان الجنود عند المنجم يفتشون كل عامل فيه تفتيشا دقيقا عند دخوله .. يفتشونه ويعيدون تفتيشه وقد توترت أعصابهم وخشنت لهجتهم واتسمت حركاتهم بالغلظة والقسوة ! .. وكان العمال ينظرون اليهم ببرود ، وقد أومض فى عيونهم لون من الابتهاج الذى

يشوبه الغل والحقد

وفى غرفة الاستقبال بقصر العمدة ، كانت المائدة قد نظفت مما عليها ، ووقف جندى يحرس غرفة نوم العمدة أوردن .. وجثت آنى أمام شباك المدفأة الحديدى تغذى النار بقطع صغيرة من الفحم ، ثم رفعت بصرها الى الحارس الذى كان يقف على باب العمدة أوردن ، وقالت فى لهجة عنيفة صارمة : « ما الذى ستفعلون به ؟ » .. فلم يحر الجندى جوابا ! .. وما لبث الباب الخارجى أن فتح ، ودخل جندى آخر يقود الدكتور وينتر من ذراعه . وأغلق الباب خلف الطبيب ، فوقف هذا مستندا الى الباب داخل الغرفة ، وقال : « هالو آنى ، كيف حال صاحب السعادة ؟ »

واشارت آنى الى غرفة النوم وقالت : « انه هنا » ، فسألها : « أليس مريضا ؟ » .. فأجابت آنى بقولها : « كلا ، لم يكن يبدو عليه المرض . سأحاول أن أنقل اليه نبأحضورك » . وذهبت الى الحارس وخاطبته فى لهجة عاتية مستبدة : « قل لصاحب السعادة ان الدكتور وينتر هنا .. أتسمعنى ؟ »

ولم يجب الحارس ، بل ولم يتحرك ، ولكن الباب فتح من خلفه وأقبل العمدة أوردن فوقف على عتبته ، ثم تجاهل



الحارس وانفلت من جانبه ودلف الى الغرفة . وفكر الحارس لحظة فى أن يعيده الى غرفته ، ولكنه تراجع ولزم مكانه بجوار الباب . وقال أوردن : « شكرا ياآنى ، أرجوك أن لا تبتعدى ، فقد احتاج اليك » .. فأجابت آنى قائلة : « كلا ياسيدى ، لن أبتعد . وهل سيدتى بخير ؟ »

ـ انها تصفف شعرها ، هل تودين مقابلتها يا آنى ؟

فقالت آنى : « أجل ياسيدى » ، وانفلتت هى الاخرى من جانب الحارس ، ودخلت الغرفة وأغلقت الباب . وقال أوردن : « أتريد شيئا يادكتور ؟ » .. فابتسم وينتر فى تهكم وسخرية ، وأشار من فوق كتفه الى حارسه ، وقال : « أعتقد انى مقبوض على ، فلقد جاء بى صديقى هذا الى هنا » .. فقال أوردن : « أعتقد أن هذا كان مقدرا أن يحدث ، ترى ماعساهم ان يفعلوا الآن ؟ »

ونظر الرجلان احدهما الى الآخر نظرة طويلة .. كان كل منهما يعرف مايدور فى خلد الآخر . وقال أوردن ، وكأنه يستأنف حديثا بدأه : « أنت تعلم أنه ما كان فى استطاعتى أن أحول دون هذا لو أردت »

فأجاب وينتر : « أعلم هذا ، ولكنهم هم لايعلمون ! » ، وأردف يعرب عن فكرة كانت تدور فى مخيلته : « **انهم قوم فى دقة الساعة ، وقد حانت ساعتهم . انهم يظنون اننا مثلهم : لنا زعيم واحد ، ورأس واحد .. انهم يعلمون ان الاطاحة بعشرة رؤوس تقضى عليهم القضاء المبرم ، ولكننا قوم أحرار ، لنا من الرؤوس قدر مالنا من الناس ، وفى وقت الشدة ينبت بيننا الزعماء كأنهم النباتات الفطرية السريعة النمو !** » .. ووضع أوردن يده على ذراع وينتر وقال : « شكرا لك . كنت أعلم هذا ، ولكن كان من الخير أن أسمعه منك . أتظن ان عزائم الناس ستخور ؟ » .. وأخذ يفحص وجه وينتر فى قلق ، بينما قال الطبيب مطمئنا : « كلا ، لن تهون عزيمتهم ، بل انهم سيزدادون

قوة على قوتهم ، بالمعاونة الخارجية ! »

* * *

• وساد الصمت فى الغرفة لحظة ، وتحرك الحارس من مكانه قليلا فأصابت بندقيته زرا من أزرار سترته ..

وقال أوردن : « اننى أحدثك يادكتور ، وقد لاأستطيع محادثتك مرة أخرى ، ففى ذهنى بعض الاشياء المخجلة ! » .. ثم سعل وألقى نظرة على الجندى الذى كان يقف جامدا ، فلما لم يبد عليه انه سمع شيئا ، أردف يقول : **« لقد كنت أفكر فى موتى ، فانهم اذا اتبعوا الاجراء المعتاد ، لوجب ان يقتلونى ، ثم لوجب أن يقتلوك ! »** .. فلما سكت وينتر سأله العمدة قائلا : « اليس هـذا صحيحا ؟ » .. فأجاب وينتر بقوله : « نعم ، أعتقد هذا » ، وسار الى أحد المقاعد المذهبة ، وشرع يجلس عليه ، ولكنه لاحظ أن كساء المقعد ممزق ، فربت بأصبعه عليه كأن هذا يصلح من أمره ، ثم جلس فى رفق عليه

واستطرد أوردن يقول : « اننى خائف ، وأنت تعلم هذا! .. وقد فكرت فى بعض الوسائل للهرب حتى أخرج من هذا المأزق .. لقـد فكرت فى الفرار ، وفـكرت فى أن التمس الابقاء على حياتى ! وان الخجل ليتولانى وأنا أذكر كل هذا » .. فقال وينتر وهو ينظر اليه : « ولكنك لم تفعل شيئا من هذا ؟ »

ــ كلا لم أفعل

ــ ولن تفعل ؟

فتردد أوردن وهو يجيب : « كلا ، لن أفعله ، ولكننى فكرت فيه »

وأجاب وينتر فى لطف ورقة : **« أنى لك ان تعلم ان الناس جميعا لايفكرون تفكيرك ؟ أنى لك أن تعلم اننى لم أفكر فيما فكرت فيه أنت ؟ »**

وتساءل أوردن : « ترى لماذا قبضوا عليك أنت أيضا ؟ ..

لابد لهم من قتلك كذلك فيما أعتقد ! » .. فأجاب وينتربقوله : « أعتقد هـذا » ، ثم أخذ يلف ابهاميه الواحـد حول الآخر ، ويرقبهما وهما يدوران ويدوران !

وقال أوردن : « أنت تعرف هذا » .. وسكت برهة ثم أردف يقول : « **أنت تعلم يادكتور انني رجل قليل الشأن ، وهذه بلدة قليلة الشـأن ، ولكن الشرارة التي تنبعث من أمر تافـه الشأن قد تشعل حريقا !.. انني خائف، ويكاد الخوف يقتلني ! وفكرت في كل وسيلة يمكن أن أتوسل بها لانقاذ حياتي .. ثم انقضى كل هذا ، وأصبحت أشعر أحيانا بشيء من الابتهاج ، كما لو كنت قد أصبحت أكبر وأفضل مما كنت !..** أو تعرف فيم كنت أفكر يادكتور ؟ » .. وافتر ثغره عن ابتسامة، وقد تواردت على خاطره الذكريات ، وراح يقول :

« اتذكر درس « الاعتذار » في المدرسة ؟ .. أتذكر سقراط وهو يقول : « سيقول البعض : او لست خجلا ياسقراط من مجرى حياة قد تؤدي بك الى نهاية مبكرة ؟ » .. ان لدي ردا طيبا يصلح له ، ألا وهو : « انكم مخطئون ، فان الرجل الذي يصلح لأي شيء ، يجب أن لايحسب حسـاب حظة في الحيـاة او الموت ، بل يجب أن ينحصر تفكيره فيما اذا كان على حق أو على خطأ فيما يفعل ! »

ثم توقف أوردن محاولا أن يتذكر ، بينما جلس الدكتور وينتر وهو يميل الى الامام وقد أهاجته الذكرى ، وأخذ يتم مانقص من حديث أوردن عن سقراط : «وهو يؤدي دور الرجل الصالح أو الرجل الشرير ! » .. لا أعتقد انك تحفظه ، فماكنت قط طالب علم مجد ، ثم انك أخطأت في الحكم عليه كذلك !

فضحك أوردن وهو يقول : « او تذكر هذا أيضا ؟ »

فقال وينتر في حمية : « أجل ، أذكره جيدا .. وأذكر انك نسيت سطرا أو لفظا ، في يوم الاحتفال بالتخرج .. بل انك نسيت أن تدخـل أطراف قميصك في « البنطلون » ، فظـل

القميص مطلا من الخلف .. وكنت تعجب من ضحكهم » .. فابتسم أوردن لنفسه ، وامتدت يده خفية خلفه ليطمئن الى أن أطراف قميصه ليست متهدلة ، ثم قال :« لقد جعلت من نفسي « سقراط » آخر ، فحملت على مجلس ادارة المدرسة . وما كان أشد حملتي عليهم ! .. لقد كنت أجأر بالتشهير فى وجوههم التى اصطبغت بحمرة قانية !

وقال وينتر : « كانوا يحبسون أنفاسهم حتى لايستغرقوا فى الضحك ، فقد كان ذيل قميصك خارجا » ، فضحك العمدة أوردن وقال : « كم انقضى على هذا الحادث ؟ أربعون عاما ؟! »

ــ بل ستة وأربعون !

***

• وانتقل الحارس المعين على غرفة النوم فى هــدوء الى الحارس القائم على الباب الخارجى ، فأخـذ الاثنان يتحدثان خلسة فى صوت خافت ، وكأنهما طفلان يتحدثان فى مدرسة . قال أحدهما : « منذ متى توليت نوبتك هذه ؟ »

ــ قضيت الليل بطوله فى النوبة ، ولا أكاد أستطيع فتح عينى !

ــ وأنا كذلك . هل اتصلت بزوجتك على الباخرة امس ؟

ــ أجل ! وهى ترسل اليك تحياتها ، وقد قالت انها علمت أنك جريح .. وهى تعتذر لانها لاتكتب كثيرا

ــ قل لها انني بخير

ــ سأفعل ، عندما أكتب اليها !

ورفع العمدة رأسه ونظر الى السقف ، ثم تمتم يقول : « هم ــ م ــ م ! .. ترى أأستطيع أن أتذكر باقى القطعة ؟ » . فأسعفه وينتر بقوله : « والآن أيها الرجال .. » فقال أوردن فى رقة : « والآن أيها الرجال الذين حكمتم على ..

وفي تلك اللحظة دلف الكولونيل لانسر الي الغرفة بهدوء ،

فشد الحارسان من قامتيهما . وسمع لانسر كلمات العمدة ، فوقف مكانه وأخذ ينصت ، بينما تطلع أوردن الى السقف وقد استغرق فى التفكير ، محاولا أن يتذكر هذا النص القديم ، ثم قال : ((**والآن ، ايها الرجال الذين حكمتم على : ان الرغبة لتتملكنى فى ان اتنبأ لكم .. ذلك اننى على وشك الموت ، وفى ساعة الموت يوهب الناس ملكة التنبؤ .. اننى لاتنبأ لكم ، انتم ياقتلتى ، بأنكم بعد موتى مباشرة ..**))

ونهض وينتر وهو يقول : ((رحيلى)) ، فنظر اليه أوردن وقال : ((ماذا ؟))

فأجاب وينتر : ((ان النص هو ((رحيلى)) لا ((موتى)) .. لقد وقعت فى هذا الخطأ قبلا .. لقد ارتكبت هذه الغلطة منذ ستة وأربعين عاما))

ــ كلا ، بل النص ((موتى)) ، أجل، النص هو: ((موتى)) . ثم التفت فوجد الكولونيل لانسر يراقبه ، فقال : ((أليس اللفظ هو موتى ؟)) .. وأجاب الكولونيل لانسر بقوله : ((بل ((رحيلى)) ، ونص العبارة هو : بعد رحيلى مباشرة !))

وقال الدكتور وينتر مصرا : ((أرايت ؟ .. اثنان ضد واحد ! اللفظ هو ((رحيلى)) ، انها نفس الغلطة التى ارتكبتها قبلا))

وحدق أوردن النظر أمامه ، وبدا كأنه ينقب فى ذاكرته يستوحيها باقى القطعة ، وكأنه لايرى شيئا مما كان حوله . وما عتم أن أردف يقول : ((**اننى لأتنبأ لكم ، أنتم ياقتلتى ، بأنكم بعد رحيلى مباشرة ستتلقون من غير بد عقابا أشد هولا من العقاب الذى أنزلتموه بى !**))

وأومأ وينتر برأسه مشجعا ، كما أومأ الكولونيل لانسر ، وكأنهما يحاولان أن يعيناه على التذكر .. بينما استرسل أوردن يقول : ((**لقد قتلتمونى أنا لانكم أردتم أن تهربوا ممن يتهمكم ، وان لاتقدموا حسابا عن حياتكم !**))

وهنا اقتحم الملازم براكل الغرفة ثائرا يقول : « كولونيل لانسر ! » .. فقال الكولونيل : « صه ! » ، ورفع يده ليحول دون استمراره فى الحديث !

واستطرد أوردن يقول فى صوت خافت : « ولكن الامر لن يكون كما ظننتم ، بل انه على النقيض »

ثم أشتد صوته : « لاننى أقول لكم ان عدد من يتهمونكم سيزداد عما هو عليه الآن ! » .. وأشار بيده كالخطيب وهو يسترسل قائلا : **« لسوف يتهمكم أولئك الذين كنت أصدهم عنكم حتى اليوم .. وبما انهم أصغر منى سنا ، فسوف يكونون أكثر تهورا فى معاملتكم ، وسوف يشتد استياؤكم منهم ! »** .. ثم قطب حاجبيه وهو يحاول ان يتذكر مزيدا من مرافعة « سقراط » أمام الذين حاكموه !

وقال الملازم براكل : « لقد وجدنا الديناميت فى حوزة بعض الرجال ياكولونيل » .. فأجابه لانسر بقوله : « صه ! » .. بينما استرسل أوردن فى التلاوة : « اذا ظننتم انكم بقتلكم الناس تستطيعون منع شخص من انتقاد حياتكم الشريرة ، فانكم تخطئون ! » ، ثم قطب حاجبيه ، وفكر قليلا . ورفع بصره الى السقف ، وابتسم فى حيرة وهو يقول : « هذا كل ما أستطيع أن أتذكرة ، لقد غاب عنى الباقى ! »

وقال الدكتور وينتر : « هذا قدر طيب جدا بعد ستة وأربعين عاما .. بل انك لم تكن تحسنه الى هذا الحد منذ ستة وأربعين عاما ! »

وقطع عليه الملازم براكل حديثه قائلا : « وجدنا الديناميت مع بعض الرجال ياكولونيل لانسر »

ــ هل قبضت عليهم ؟

ــ أجل ياسيدى ، فان الكابتن لوفت ..

وقال لانسر : « قل للوفت ان يشدد الحراسة عليهم » ، ثم استعاد وعيه وتقدم فى الغرفة قائلا : « ان هذه الحوادث

يجب أن تمتنع يا أوردن » .. فابتسم العمدة فى عجز وهو يقول : « لايمكن أن تمتنع ياسيدى »

وقال الكولونيل لانسر فى صوت شابه العنف : « لقد قبضت عليك رهينة لحسن سلوك الشعب ، وقد أصدرت أنا هذا الامر ! » .. فأجاب أوردن ببساطة : ((**ولكن هذا لن يحقق امتناع الحوادث .. انك لا تدرك الحقيقة .. اننى اذا أصبحت حائلا دون ارادة الشعب فلن يتردد الشعب فى التصرف دون الرجوع الى !))**

فقال لانسر : « حدثنى صراحة عما تعتقد .. اذا علم الناس اننا سنقتلك لو انهم اشعلوا فتيلا آخر ، فماذا تراهم يفعلون؟ » .. فنظر العمدة الى الدكتور فى حيرة !

❋ ❋ ❋

• **واذ ذاك** فتح باب غرفة النوم ، وخرجت زوجة العمدة تحمل قلادة العمودية وشارة منصبه فى يدها ، وقالت : « لقد نسيت هاتين !»

فقال أوردن : « ماذا ؟ أى نعم » .. وطأطأ رأسه ، فرفعت السيدة القلادة فوق رأسه والبسته اياها ، فقال : « شكرا لك ياعزيزتى »

وأخذت السيدة تشكو قائلة : « انك تنساها دائما ! انك لاتذكرها قط ! » .. فنظر العمدة الى طرف القلادة التى يمسكها فى يده ــ الوسام الذهبى ــ وقد نقشت عليه شارة منصبه .. وألح عليه لانسر فى السؤال وهو يردد : « ماذاتراهم يفعلون ؟»

وأجاب العمدة : ((**لست أدرى ! أظنهم يشعلون الفتيل !**))

ــ هب انك طلبت منهم ان لايفعلوا ؟

فقال وينتر : ((**شاهدت هذا الصباح ياكولونيل صبيا صغيرا يبنى من الجليد هيئة رجل ، فى حين وقف ثلاثة من**

جنودكم البالغين يراقبونه حتى لايقلدصورةزعيمكم ، ومعذلك فانه اتقن الشبه فى الوجه الذى رسمه قبل أن يعمد الجنود الى اتلاف الشكل الذى بناه !»

وتجاهل لانسر الطبيب ، وعاد يردد قائلا للعمدة : « هب انك طلبت اليهم ان لايفعلوا » .. وبدا كأن أوردون يقاوم النوم، وحاول أن يفكر ، ثم مالبث أن قال : « لست رجلا شجاعا جدا ياسيدى ، ولكننى أعتقد أنهم يشعلون الفتيل على كل حال !» .. وبدا كأنه ينتزع الكلمات انتزاعا وهو يردف : « أرجو أن يفعلوا . على انهم سيستاءون اذا طلبت منهم غير ذلك ! »

وتساءلت زوجة العمدة : « فيم كل هذا ؟»

فأجاب العمدة : « الزمى الهدوء قليلا ياعزيزتى »

وألح لانسر فى سؤاله قائلا : « ولكن هل تظن انهم سيشعلونه ؟ »

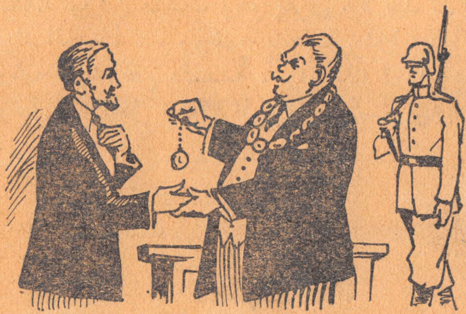
فأجاب العمدة فى زهو وكبرياء : **« أجل،سيشعلونه.ليس لى الخيار فى الحياة أو الموت ياسيدى ، ولكن لى الخيار فى الوسيلة التى أسعى بها الى احدى هاتين الغايتين ! واذا أنا قلت لهم لاتقاتلوا ، فسيشتد بهم الاسف ، ولكنهم سيقاتلون.أمااذا قلت لهم قاتلوا ، فسيستفزهم الطرب ، وأكون أنا الذى لم أوت قدرا كبيرا من الشجاعة ــ قد زدت من شجاعتهم قليلا ! »** ، وابتسم وكأنه يعتذر عما يقول ثم استطرد : « فأنت ترى ان الامر سهل على مادامت نهايتى لن تتغير فى الحالين ! »

فأجاب لانسر بقوله : « اذا قلت نعم فسنقول لهم انك قلت لا ، وسنخبرهم انك التمست الابقاء على حياتك ! » ، فقاطعه وينتر وقد تملكه الغضب : « سيعرفون الحقيقة ، فانكم قوم لاتحافظون على الاسرار ! لقد خانت أحد رجالكم أعصابه ذات ليلة ، وقال ان الذباب قد غلب ورق صيد الذباب على أمره ، فتسربت هذه العبارة الى الامة جمعاء .. بل ان الناس جعلوا

منها أغنية . لقد غلب الذباب ورق صيد الذباب على أمره !..
انكم لاتحافظون على الاسرار ياكولونيل ! »
ورن فى آذانهم صفير مدو من ناحية المنجم ، وهبت لفحة سريعة من الرياح حملت معها الجليد وألقت به على النوافذ ..
وأخذ أوردن يعبث بوسامه الذهبى ، ثم قال فى هدوء:«أرأيت ياسيدى ؟ لاشىء يمكن أن يغير من مجرى الاحوال . ستوردون مورد التهلكة ، وستطردون من البلاد ! » .. ثم قال فى لهجة رقيقة : « **ان الشعب لايحب ان يقهر ياسيدى ، وهكذا لن تستطيعوا أن تغلبوه على أمره . ان الاحرار لايمكن أن يبدأوا حربا ، ولكن ما أن تبدأ الحرب حتى يقاتلوا ولو وقعت بهم الهزيمة . أما قطعان الناس الذين ينساقون لزعيم واحد ، فلا يمكن أن يفعلوا هذا .. ومن ثم فان القطعان هم الذين يفوزون دائما فى المعارك والاشتباكات .. أما الاحرار فهم الذين يفوزون فى نهاية الحروب ! .. ستجد الامر كما أقول ياسيدى !**»
وكان لانسر منتصب القامة ، وقد جمدت اطرافه ، فقال : « ان أوامرى صريحة ، وقد حددت الساعة الحادية عشرة لتنفيذها ، وأخذت الرهائن ، فاذا وقع شىء من حوادث العنف أعدمت الرهائن »
وسأل الدكتور وينتر الكولونيل قائلا : « هل ستنفذ الاوامر وأنت تعلم أن مآلها الى الفشل ؟ »
وكست مسحة من الصرامة وجه لانسر وهو يقول : « سأنفذ أوامرى مهما تكن قسوتها ، ولكننى أعتقد ياسيدى أن تصريحا منك قد ينقذ أرواحا كثيرة » .. وهنا تدخلت السيدة فى الحديث ، وقالت لزوجها فى لهجة استعطاف:«بالله خبرنى فيم كل هذا الهراء »
ـ انه هراء ياعزيزتى !
وأخذت تجادله قائلة : « ولكن لا يمكنهم القبض على العمدة »
.. فابتسم أوردن لها وهو يقول : « **كلا ، لا يمكنهم القبض**

على العمدة ، فالعمدة فكرة تتمثـل الاحرار .. وستفلت من الاعتقال ! »

وسمع من بعيد صوت انفجار رددت صداه الجبال . وما لبث أن ارتد ثانية ، فأطلقت صافرة المنجم انذارا حادا مدويا. ووقف أوردن وقد توترت أعصابه لحظة ، ثم ابتسم .. ودوى صوت انفجار ثان ، أقوى فى هذه المرة دويا وأقرب موقعا ، فنظر العمدة الى ساعته ، ثم تناول الساعةوسلسلتهاووضعهما



فى يد الدكتور وينتر ، وسأله : « ماذا فعل الذباب ؟ »

فأجابه وينتر قائلا : **« لقد غلب الذباب ورق صيد الذباب على أمره ! »**

ونادى أوردن قائلا : « آنى ! » ، ففتح باب غرفة النوم فى الحال . وقال العمـدة : « أكنت تتسمعين الحديث ؟ » .. فأجابت آنى وقد غلبها الخجل : « أجل ياسيدى ! »

ثم دوى صوت انفجار ثالث قريب ، وسمع صوت تكسر الخشب والزجاج . وانفتح الباب القائم خلف الحارسين ، وقال أوردن : « أحب يا آنى أن تبقى مع سيدتك طالما هى فى حاجة اليك ، ولا تتركيها وحدها ! » . ووضع ذراعه حول السيدة ، وطبع قبلة على جبينها ، ثم سار ببطء نحو الباب حيث كان

الملازم براكل ينتظره . والتفت وهو على عتبــة البـاب الى الدكتور وينتر ، وردد ما قاله سقراط فى الزمن الغابر لصديقه كريتو : « اننى مدين لاسكلبيوس (١) بديك ياكريتو(٢)، فهل لك أن تذكر وفاء دينى ! » .. وكانت عبارته مصوغة فى لهجة رقيقة ناعمة .

وأغلق وينتر عينيه لحظة قبل أن يجيبه قائلا : « سأوفى دينك ! »

وضحك أوردن عندئذ وهو يقول : « لقد تذكرت هــذا الدين ، ولم أنسه ! » ، ووضع يده على ذراع براكل ، فجذب الملازم ذراعه بعيدا عن ملمسه . واذ ذاك أومأ وينتر برأســه فى بطء وقال : « أجل ، انك تذكرته ، وسأوفيه أنا ! »

انتهت

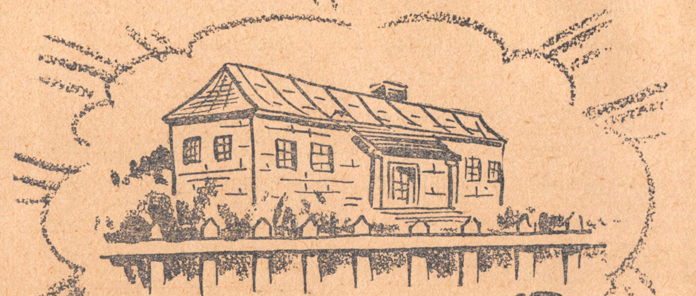
---

(١) كان اسكلبيوس اله الطب والشفاء فى الاساطير الاغريقية ، وتضحى له الديكة

(٢) كان كريتو صديق سقراط ، وقد حاول أن يمهد له سبيل الفرار

البائسان

(عن "تورتيلا فلات")



TORTILLA FLAT

طريقة جديدة .. فى تأليف القصص !

• ابتكر « جون شتاينبيك » طريقة طريفة فى تأليف الروايات .. فهو يجعل من كل فصل فى الرواية قصة قائمة بذاتها ، وفى الوقت ذاته تؤلف الفصول معا قصة كبيرة متماسكة . وفى الصفحات التالية ، نقدم لك فصلين من رواية « تورتيلا فلات » ، التى تعتبر بداية مجد « شتاينبيك » .. وستلمس ان كل فصل منهما يكون قصة تصويرية فكهة ، وان الفصلين معا يكونان قصة كاملة ذات مغزى وحبكة !

ونردف هذين الفصلين باحدى القصص القلائل التى كتبها « شتاينبيك » ونشرها على انها قصص قصيرة مستقلة .. وستلمس فى تلك القصة – عبد زوجته أو « سرج الحصان » ! – روعة أسلوب « شتاينبيك » ، وجمال الفكرة !

(١) دانى

كيف عاد دانى الى وطنه بعد الحرب ليجد نفسه وارثا ،
وكيف آلى على نفســـه ان يكون حاميا للضــــعفاء !

• علم دانى – حين عاد الى الوطن ، بعد أن سرح من الجيش – انه صار وارثا ، ومالكا عقاريا . فان جده الشيخ قد مات ، وخلف له البيتين الصغيرين القائمين على هضبة (تورتيلا)

وعندما علم دانى بهذا الميراث ، أثقل الشعور بالمسئولية – كمالك – قلبه .. فابتاع جالونا من النبيذ الاحمر ، وتجرع معظمه قبل ان يذهب ليتفقد عقاره . واذ ذاك فارقه هم المسئولية ، وطفت على سطح شخصيته أسوأ معالم فطرته ، فراح يصيح ، وحطم بعض المقاعد فى حانة بشــارع (الفارادو) ، وخاض غمار مشاجرتين قصيرتين ، ولكنهما مظفرتان .. ومع ذلك فان أحدا لم يول دانى كثير اهتمام ، فما لبثت ساقاه المقوســتان ،

المترنحتان ، ان حملتاه صوب الميناء ، حيث كان صيادو السمك الايطاليون يتوافدون فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ـ وقد ارتدوا احذية خفيفة من المطاط ـ لينطلقوا الى عرض البحر ..

وتغلب التحمس العنصرى على تعقل دانى ، فراح يتوعد الصيادين ، ويرميهم بأقذع النعوت ، صائحا : « أيها الصقليون .. يا أولاد السفاح ! » .. و « أيها الطغام الوافدون من جزيرة السجن ! » ، و « يا كلاب ، يا سلالة الكلاب ! » .. وراح يضع اصبعه على أنفه ، ويهـز ما تحت وسـطه فى حركات وقحة مستهجنة ! ولكن الصيادين لم يجيبوه بأكثر من ابتسامات راثية ، ثم حركوا مجاذيفهم وهم يقولون : « اهلا بك يا دانى .. متى عدت الى الوطن ؟ .. تعال الليلة ، فلدينا نبيذ جديد ! »

ولم يزد هذا دانى الا هياجا ، فصاح بأعلى صوته يسبهم .. ولـكنهم أجابوه قائلين : « مع السلامة يا دانى .. تعال الليلة ! » ، ثم حركوا مجاديفهم حتى خرجت زوارقهم من المياه الضحلة ، واذ ذاك أداروا محركاتها ، وابتعدوا فى عرض البحر !

ورأى دانى فى مسلكهم اساءة له ، فكر راجعا الى شارع (الفارادو) ، وحطم زجاج نافذتين فى طريقه ، حتى اذا بلغ الصف الثانى من بيوت ذلك الشارع ، تلقفه رجل البوليس . ولما كان دانى يحترم القانون احتراما بالغا ، فقد بادر الى الهدوء . ولولا انه كان قد سرح لتوه من الجيش ـ بعد الانتصار على المـانيا ! ـ لقضى عليه بالسجن ستة أشهر . أما والحال هذه ، فان القاضى اكتفى بأن حكم عليه بالسجن لثلاثين يوما فقط !

ومن ثم ، جلس دانى على فراشه فى سجن مدينة (مونتيرى) شهرا . وكان يرسم أحيانا على الجدران صورا مستهجنة ، بينما يسـترجع ـ فى أحيان أخرى ـ ذكرى خدمته فى الجيش . وثقلت عليه وطأة الوقت وهو يمر متباطئا أثناء وجوده فى سجن المدينة . وكان يزج فى السجن بسكير بين آن وآخر ، ولكن اقامته لم تكن تزيد على ليلة واحدة . وفيما عدا ذلك كانت حرفة الاجرام راكدة السوق فى (مونتيرى) ، فكان دانى وحيدا فى سـجنه أغلب الوقت . ولقد أقض البق مضجعه بعض الشىء فى البداية ، ولـكنه لم يلبث ان انسجم معه بعد ان اعتاد مذاق دمه ، وبعد أن ألف دانى لدغاته !

***

• وبدأ يمارس لعبة ساخرة ، فأمسك ببقة وسحقها فى الجدار ، ثم رسم حولها دائرة بالقلم الرصاص ، وأسماها « العمدة كلو » ! وأمسك بعد ذلك ببقات أخرى ، اطلق عليها اسماء أعضاء مجلس المدينة . ولم ينقض طويل وقت ، حتى ازدان الحائط ببقات مسحوقة تحمل أسماء أعيان المدينة . ثم رسم لها دانى آذانا وذيولا ، وخلع عليها أنوفا وشوارب طويلة ! .. وبهت « تيتو رالف » ـ السجان ـ وأحس باستنكار ، ولكنه لم ينبس بأية شكوى ، لان دانى لم يكن قد ضم الى معرضه القاضى الذى أصدر الحكم عليه ، ولا أحدا من قوة البوليس .. فقد كان عظيم الاحترام للقانون !!

وفى ذات ليلة ، أمضت الوحدة « تيتو رالف » ، فوفد على زنزانة دانى وهو يحمل زجاجتين مليئتين بالنبيذ .. وان هى الا ساعة ، حتى خـــرج ليحضر مزيدا من النبيذ ، فصحبه دانى الى الخارج ، اذ كان جو السجن خاليا من البهجة ! .. ومكثا فى حانة « توريللى » يعبان الخمر عبا ، حتى ألقى بهما توريللى الى الرصيف .. فيمم دانى عقب ذلك شطرغابات الصنوبر، حيث استسلم للنعاس ، بينما اتخذ « تيتو رالف » طريقه عائدا الى السجن وهو يترنح ، وأبلغ المسئولين ان دانى قد هرب !

وعندما أيقظت الشمس الوضاحة دانى حوالى الظهر ، قرر أن يختبىء طيلة النهار ليفلت ممن قد يطاردونه ، ومن ثم أخذ يجرى محتميا بالادغال ، مرسلا بصره خلال الاشجار المنخفضة كما لو كان ثعلبا مطاردا . وعندما هبط المساء ، واطمأن الى انه نجا بجلده من أية مطاردة ، خرج من مخبأه ، وبدأ العمل من أجل « مهمته » ! .. وكانت مهمة صريحة ، اتخذ ســبيله اليها مباشرة . فقد سعى الى الباب الخلفى لاحد المطاعم ، وسأل الطاهى : « هل أجد لديك شيئا من الخبز القديم لكلبى ؟ » . وبينما كان الرجل الطيب يلف له غذاء « الكلب ! » ، سرق دانى شريحتين من لحم الخنزير ، وأربع بيضات ، وقطعة من فخذ الضأن ، وطائرا ذبيحا !

وقال للطاهى وهو يتناول منه كيس الخبز : « لسوف أدفع لك الثمن فيما بعد »

ـ لا داعي لان تدفع ثمنا لفضلات .. انني مضطر لان ألقيهـــا خارج

المطبخ ، اذا انت لم تأخذها !

وارتاح بال دانى اذ ذاك ازاء السرقة .. فقد اعتبر قول الطاهى شاملا لكل ما أخذ ، ومن ثم لم يكن عليه أى جناح أو وزر .. فى الظاهر ، على الاقل!.. وتسلل دانى عائدا الى حانة ((توريللى)) ، حيث استبدل بالبيضات الاربع ، وفخذ الضأن ، والطائر ، ملء كوب ماء من الحساء ، ثم ارتد الى الغابات ، ليبعد عشاءه ..

***

. وكانت الليلة معتمة ، رطبة ، وقد أطبق الضباب على أشجار الصنوبر السوداء التى كانت تقوم كحراس ساهرين على أطراف (مونتيرى) . واندس دانى بين الاشجار ، وأخذ يجرى موغلا فى الغابات ، باحثا عن ملجأ ، فما لبث ان رأى أمامه شبحا آخرا يمضى مهرعا . واذ جهد فى الجرى ليقترب منه ، أدرك من مشيته انه صديقه القديم ((بيلون)) . وكان دانى رجلا كريما سخيا ، ولكنه تذكر انه قد باع كل ما كان معه من طعام ، اللهم الا قطعتى لحم الخنزير ، وكيس الخبز الجاف ، ومن ثم قال لنفسه :

ـ سأتفاضى عن بيلون وأسبقه ، فانه يبدو كرجل امتلأ بطنه بديك رومى وما الى ذلك .. فهو فى غير حاجة الى كرمى !

على ان دانى لم يلبث أن لاحظ ان ((بيلون)) كان يضم طرفى سترته الى صدره فى شغف واعتزاز ، فصاح : ((ايـ .. ه ! بيلون .. أيها الصديق!))

وأوسع بيلون من خطاه ، فجد دانى فى ملاحقته راكضا ، وهو يقول : ((بيلون ، أيها الصديق الصغير ! .. الى أين تراك مسرعا ؟))

ولم يجد بيلون حيلة ازاء أمر لا مفر له منه،فتوقف وانتظر.ولحق به دانى وقد أخذ الاعياء منه ، ولكن لهجته ظلت رقيقة ، حارة ، وهو يقول : ((لقد كنت أبحث عنك يا أعز الاصدقاء من الملائكة الصغار ! .. كنت أبحث عنك ، لأننى أحمل شريحتين من لحم الخنزير ساقهما الله لى ، وكيسا من الخبز الابيض اللذيذ .. فشاركنى هذا الخير يابيلون الصغير العزيز !))

وهز بيلون كتفيه وتمتم فى جفاء : ((وهو كذلك !)) .. وسارا معا موغلين فى الغابة ، وقد استبدت الحيرة ببيلون . على انه لم يلبث فى النهاية ان توقف ، والتفت الى صديقه ، ثم سأله فى أسى : ((صارحنى يا دانى .. كيف

تسنى لك أن تعرف أننى أحمل تحت سترتى زجاجة براندى ؟ »

وصاح دانى : « براندى ؟ .. هل معك براندى ؟ » .. ثم انقلبت لهجته الى دعابة وهو يقول : « لعله لأم عجوز مريضة .. أو لعلك تحتفظ به لمولانا يسوع المسيح عندما يعود الى الارض ثانية ؟! .. ولكننى لست سوى صديق ، فبأى حق أسألك عن غايتك من هذا البراندى ؟ .. بل اننى غير متـأكد من انك تحمل براندى ، على الاطلاق ! .. ثم اننى لست ظامئا ، ولن أمس هذا البراندى . ولكننى أرحب بك لتشاطرنى ما لدى من لحم الخنزير .. أما البراندى ، فهو لك .. انه برانديك ! »

فأجاب بيلون فى حزم : « اننى لا أحجم عن ان أشركك معى فى هـذا البراندى يا دانى .. فلنقتسمه مناصفة ، لأن واجبى يقضى على بأن لا أدعك تشربه كله فتثمل ! »

***

. وتغاضى دانى عن الموضوع فترة ، ولكنه لم يلبث ان قال : « ها هى ذى بقعة خالية من الاعشاب ، فتعال اليها .. وسأنضج لحم الخنزير ، بينما تقدد أنت قطع الخبز التى يحويها هذا الكيس . ضع برانديك هنا يا بيلون .. هذا المكان أنسب ، اذ ييسر لنا السبيل الى مراقبته دون ان يشغل كل منا عن الآخر ! »

وجمعا بعض الاغصان والاوراق فاتخذاها وقودا لنار أشعلاها ، وانضجا عليها لحم الخنزير ، والتهما الخبز القديم . وأخذ البراندى ينكمش بسرعة فى الزجاجة .. فقد استلقيا الى جوار النار بعد ان فرغا من الاكل ، واخذا يحتسيان من الزجاجة على مهل ورفق ، كنحلتين ترتشفان الرحيق .. بينما هبط عليهما الضباب فكسا سترتيهما بالندى . وتنهدت الريح بأسى بين أفنان أشجار الصنوبر التى كانت تحيط بهما ..

وبعد فترة ، اكتنف دانى وبيلون شعور من الوحدة الموحشة ، اذ أخذ دانى يفكر فيمن فقد من أصدقاء .. وما لبث ان راح يتحسس ذراعيه بكفيه ، وهو يتساءل : « اين ارثر مورالس ؟ » .. ثم أجاب بنفسه عن السؤال ، وهو يترك ذراعيه تتراخيان فى أسى : « لقد مات فى فرنسا .. مات فى سبيل الوطن .. مات فى بلد أجنبى ! .. ان الاغراب يسيرون على مقربة من مثواه ،

دون ان يعرفوا ان ارثر مورالس يرقد فى جوف الثرى هناك ! » .. ثم عاد يزحف براحتيه الى أعلى ذراعيه ، ويتساءل : « واين بابلو .. ذلك الرجل الطيب ؟ »

وجاءه الجواب من بيلون فى هذه المرة ، اذ قال : « فى السجن ! .. لقد سرق بابلو أوزة ، وأخفاها فى أحد الادغال .. ولكن الاوزة عضت بابلو ، فصرخ ، وفضح نفسه ! .. وهو الآن ملقى فى السجن لستة أشهر ! »

وتنهد دانى فى حزن ، ثم عدل عن الموضوع وتحول الى سواه ، اذ فطن الى انه قد تحدث عن الصديق الوحيد الذى يستطيع ان يستغل ذكراه ليعرض بلاغته فى الرثاء ! .. ولكن الوحشة عادت تمضه وتثقل عليه ، فأخذ يبحث عن مهرب منها . وما لبث ان قال أخيرا : « ها نحن نجلس ... » ، فقاطعه بيلون وهو يكمل العبارة باسلوب شاعرى : « كسيرى القلب ! »

ولكن دانى قال : « لسنا ننظم شعرا .. انما أردت أن أقول اننا نجلس هنا شريدين بلا مأوى .. لقد وهبنا أرواحنا للوطن ، وها نحن نعود فلا نجد سقفا يظلنا ! » .. فعقب بيلون مواسيا : « ولكننا لم نؤت فى حياتنا من قبل سقفا يعلو رؤوسنا ! »

***

• وأقبل دانى على الزجاجة يعب منها وهو غائب الوعى ، حتى مس بيلون ساعده ، وأخذ الزجاجة منه ، فقال دانى : « ان هذا يذكرنى بقصة رجل كان يملك بيتين ... » ، وأمسك فجأة عن الكلام ، وفغرفاه ، ثم صاح : « بيلون ! .. بيلون ، يا صديقى الطفل الشبيه بالبطة الصغيرة السمينة ! .. لقد نسيت ! .. نسيت اننى ورثت ! .. اننى أملك بيتين ! »

فتساءل بيلون ساخرا : « لعلهما بيتان للدعارة ؟ ! » ، ثم اردف قائلا : « يا لك من كذاب ثمل ! »

ـ لا يا بيلون .. انما أقول الحقيقة . لقد مات « الشيخ » وأصبحت وريثه .. فأنا أحب حفيد لديه !

فقال بيلون الذى كان يؤثر الواقعية : « انك الحفيد الوحيد له .. واين هذان البيتان ؟ »

ـ أتعرف بيتى الشيخ على هضبة تورتيلا يا بيلون ؟
ـ هنا .. فى مونتيرى ؟
ـ أجل ، هنا فى مونتيرى .. على هضبة تورتيلا
ـ وهل هما صالحان .. هذان البيتان ؟

فتهالك دانى على العشب ، وقد انهكه اصطخاب المشاعر فى نفســه ، ثم قال : ((لست أدرى .. لقد نسيت اننى أصبحت مالكهما !))

وظل بيلون فى مجلسه مستغرقا فى التفكير ، وقد ازداد تسلط الوجوم والأسى على أساريره .. ثم ألقى بحفنة من أقماع الصنوبر فى النار ، وراح يرقب اللهب وهو يذكو ويندلع حتى أتى عليها وعاد الى الخفوت . وتحول بعد ذلك يتفرس فى وجه دانى طويلا ، وقد تجلى عليه القلق ، ثم أرسل زفرة عالية . وزفر مرة أخرى ، قبل ان يقول فى صوت حزين : ((ها قد انتهى كل شىء .. ها قد انقضت الاوقات العــذبة الحافلة .. لسوف يحزن أصدقاؤك ، ولكن الحزن لن يجدى فتيلا !))

فوضع دانى الزجاجة على الارض .. والتقطها بيلون فوضعها فى حجره .. وما لبث دانى ان تساءل : ((ما هذا الذى انقضى ؟ .. ماذا تعنى ؟))

فأجاب بيلون وكأنه يستأنف حديثه السابق : ((انها ليست المــرة الاولى ! .. ان المرء يقول لنفسه اذا ما كان فقيرا : ((لو اننى أوتيت مالا ، لاقتسمته مع اصدقائى)) .. ولكن ، ما ان يواتيه المال ، حتى تتبخر روح الخير من نفسه . وهكذا الحال معك .. أنت يا من كنت صديقى يوما ! .. لقد ارتفعت فوق مستوى أصدقائك ! .. أصبحت من أصحاب العقــارات .. لسوف تنسى اصدقاءك الذين تقاسموا معك كل شىء .. حتى البراندى !))

وحركت كلماته أشجان دانى ، فهتف : ((لا .. اننى لست من هــذا النوع ! .. لن أنساك قط يا بيلون !)) .. ولكن بيلون قال فى فتور : ((هكذا يخيل اليك ، ولكنك لن تلبث ان ترى نقيض ذلك ، اذا ما أصبح لك بيتان تأوى اليهما ! .. لسوف يظل بيلون فلاحا فقيرا ، فى الوقت الذى تجلس انت فيه مع العمدة على مائدة واحدة !))

فهب دانى من مجلسه مترنحا ، ثم استند الى شجرة ريثما يتمــالك توازنه ، وقال : ((اننى أقسم لك يا بيلون ان مالى سيصبح مالك .. ولسوف

أكتفى ببيت ، ليكون لك أنت الآخر بيت ! .. ألا اعطنى رشفة من الشراب ! »
.. ولكن بيلون قال فى صوت متقاعس : « لن أصدق هذا حتى أراه رأى العين .. ولو صح لكان أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، ولسوف يتوافد الناس من آلاف الاميال ليشـــاهدوه ! .. والى جانب هذا أحب أن أقول لك ان الزجاجة قد فرغت ! »

(٢) بيلون

كيف ان الطمع فى استغلال الموقف أغــرى
بيلون على أن يســـــتمرىء كرم دانى !

• تركهما المحامى عند الباب الخارجى للبيت الثانى ، وصــعد الى سيارته « الفورد » ، وانحدر بها على السفح ميمما شطر (مونتيرى)

ووقف دانى وبيلون أمام السياج المجرد من الطلاء ، وراحا يتأملان المبنى فى اعجاب : كان بيتا منخفضا ، ملطخا بآثار قديمة لطلاء الجير ، وقد بدت نوافذه بلا ستائر ولا مصاريع خشبية . ولكن « السلاملك» كان مزدانا بشجرة ورد أحمر كبيرة ، كما كانت زهور « الجيرانيوم » ـ التى زرعها الجد ـ تنمو بين الاعشاب الطفيلية فى الساحة الامامية للدار !

وقال بيلون : « هذا أفضل البيتين .. فهو أكبر من الآخر ! »

وكان دانى يمسك فى يده مفتاحا كبيرا ، فسار على أطراف أصابع قدميه عبر « السلاملك » المهشم الارضية ، ثم فتح باب الدار ..

وكانت القاعة الرئيسية على حالها المألوفة أيام كان الشيخ يقيم فى البيت .. فهناك تقويم سنة ١٩٠٦ (نتيجة الحائط) الوردى اللون . وكان العلم الحريرى مثبتا الى الجدار ، وكذا لوحة تمثل بارجة ضخمة يطل من ثناياها المحاربون ، فى الايام الاولى لتعمير أمريكا . وكانت تتدلى من الجدار باقة من الورد المصنوع من الورق الاحمر ، وحبال محملة بالفلفل الاحمر والثوم ، وقد تراكم عليها الغبار .. وثمة مدفأة بالنفس (كوابور الغاز) ومقعدان هزازان متداعيان !

وأطل بيلون خلال الباب وقال وهو متهدج الانفاس :

ـ ثلاث غرف .. وسرير ومدفأة .. لسوف نعيش سعيدين هنا يا دانى !

وكان دانى طيلة الوقت يقف غارقا فى ذكريات أليمة تدور حول جده .

ولكنه لم يلبث ان شرع يجوس فى أرجاء البيت بحذر . ومرق بيلون من جانبه ليتقدمه ، ثم سار الاثنان الى المطبخ .. وهتف بيلون : « وهذا حوض ذو صنبور ! » ، ثم أدار مقبض الصنبور ، وعاد يقول : « لا ماء هنا يا دانى .. يجب أن تطلب الى الشركة ان توصل الماء ثانية ! »

ووقفا وجها لوجه ، ثم ابتسم كل منهما للآخر . ولاحظ بيلون ان هموم الملكية والثروة قد بدأت تثقل أسارير دانى ، فخفق قلبه رثاء : لن يخلو هذا الوجه من الاكدار طيلة العمر ! .. ولن يعود دانى الى تحطيم نوافذ الناس ، بعد أن صارت له نوافذ يمتلكها ! .. لقد صدق بيلون فى حدسه ، فقد ارتفع دانى فوق مستوى زملائه !

* * *

وشد دانى قامته ، وبسط كتفيه ، ليصمد لمتاعب الحياة . على أنه افلت صرخة متوجعة قبل ان يهجر حياته السابقة البسيطة ، ويتجرد منها ما بقى له من عمر .. وقال فى اكتئاب : « بيلون .. ليتك كنت انت صاحب الدار ، وكنت أنا الصديق الذى قدم ليعيش معك ! »

وبينما ذهب دانى الى (مونتيرى) ليخطر شركة المياه كى تعود الى امداد البيت بالماء ، أخذ بيلون يجوس خلال الساحة الخلفية التى انبثت فيهـا الاعشاب الفطرية . وكانت ثمة اشجار فاكهة معروفة ، هزيلة ســوداء ، لفرط قدمها ، وقد ذوت أوراقها وتكسرت افنانها لطول ما أهملت ! .. كذلك كانت ثمة عشش للدجاج ـ على شكل خيام ـ بين الاعشاب ، وكومة من أطواق البراميل التى تكاثف عليها الصدأ ، وكومة أخرى من الرماد وبقايا النار ، وحشية مهلهلة !

وألقى بيلون نظرة عبر السياج الى الساحة التى كانت مسز مورالس تربى فيها دجاجها ـ فى البيت المجاور ـ وبعد أن فكر لحظة ، فتح بضع ثغرات فى السياج ، ليستدرج خلالها الدجاج ، وهو يقول : « ان الدجاجات تحب أن تقيم اعشاشها بين الاعشاب العالية » .. وخفق قلبه عطفا عليها ، ثم تحول يفكر فى صنع فخ على شكل رقم « ٤ » بالانجليزية ، ليضلل الديكة اذا ما جاءت وحاولت ازعاج الدجاجات وشغلها عن ان تظل راقدة على بيضها فى الاعشاش .. وعاد يقول لنفسه : « لسوف نسعد بالاقامة هنا ! »

ورجع دانى من (مونتيرى) مستاءا ، فقال : « ان تلك الشركة تبغى ان نودع لديها تأمينا »

ـ تأمين ؟ !

ـ أجل .. انهم يريدون ثلاثة دولارات قبل ان يسمحوا للمياه بأن تجرى ثانية الى البيت !

فقال بيلون فى تفكير جدى : « ثلاثة دولارات .. أى ثلاثة جالونات من النبيذ ! فخير لنا أن نشرب النبيذ ، ثم نقترض ملء دلو من الماء من مسز مورالس ، صاحبة البيت المجاور »

ـ ولكنا لا نمتلك الدولارات الثلاثة التى نشترى بها النبيذ ؟ !

فقال بيلون : « اننى أعرف هذا ، ولكن بوسعنا ان نستعير قليـــلا من النبيذ من مسز مورالس ! »

***

• وانصرم الوقت ـ بعد الظهيرة ـ سريعا . وما لبث دانى ان قال : «لسوف نستقر فى معيشتنا غدا» .. ثم عاد يقول : «غدا نقوم بتنظيف البيت وازالة الاوساخ . وعليك انت يا بيلون ان تجتث الاعشـــاب ، وان تلقى القاذورات فى مقلب الفضلات ! »

فصاح بيلون فى جزع : « الاعشاب ؟ .. ما أظنك تقصد تلك الاعشاب ؟!» ..ثم طفق يشرح لصديقه نظريته فى استدراج دجاجات مسز مورالس ، فوافق دانى فى الحال ، وقال : « لشد ما أنا مغتبط لانك قدمت للاقامة معى هنا يا صديقى ! .. والآن ، عليك ان تدبر لنا ما نتعشى به ، بينما أجمع أنا بعض الخشب لاشعل نارا ! »

وتذكر بيلون البراندى الذى قدمه لدانى ، وقارن بينه وبين ما اتاحه له دانى من مشاطرته داره ، فخيل اليه ان الصفقة غير عادلة ، وقال لنفسه فى مرارة : « اننى أوشك أن أغدو مدينا له ، ومن ثم فلن ألبث أن أفقـــد حريتى .. وسرعان ما أصبح عبدا بسبب بيت اليهودى هذا ! » .. ومع ذلك فقد خرج ليدبر أمر العشاء !

واجتاز صفين من البنايات ، حتى اذا صار عند حافة غابة الصنوبر ، صادف ديكا فى أواسط العمر ، من سلالة « بلايموث روك » ، ينبش أرض

الطريق .. وكان قد أشرف على سن المراهقة .. السن التى يخشوشن فيها صوته ، وتتعرى فيها ساقاه ورقبته وصدره من الريش .. ولعل العطف الذى سرى فى قلب بيلون نحو ذلك الديك ، كان راجعا الى انه فكر طويلا فى دجاجات مسز مورالس ، وفى الطريقـــة التى يقصى بها الديوك عنهـا ، اشفاقا عليها من ان تنصرف عن احتضان بيضها .. ومن ثم سار فى تؤدة نحو أشجار الصنوبر المعتمة ، والديك يجرى أمامه !

وفكر بيلون فى نفسه : « ياللفرخ العارى المســكين !.. ماأقسى البرد عليك فى الصباح الباكر ، عندما يتساقط الطل ، وتشتد برودة الهواء مع مقدم الفجر .. ان الاله الرحيم لايستمر فى الاشفاق على الحيوان فى كل الاوقات ! » .. ورمق بيلون الديك ، وعاد يقول له فى خاطره : « هأنتذا تلعب فى الطريق أيها الفرخ .. من يدرى ؟ ربما دهمتك يوما سيارة فداستك وقتلتك .. بل ان القتل يكون خيرا لك ، ولكنها قد تكتفى بأن تكسر لك ساقا ، أو تقصف لك جناحا ، فتعيش طيلة عمرك عاجزا تتخبط فىالتعاسة.. ما أقسى الحياة عليك أيها الطائر الصغير ! »

وتحرك فى بطء وحذر . وكان الديك يحاول ـ بين آن وآخر ـ أن يرتد عائدا من حيث أتى ، ولكنه كان فى كل مرة يجد بيلون فى المكان الذى اختار أن ينفذ منه .. وما لبث فى النهاية أن غاص فى الغابة ، فسار بيلون فى أثره وئيدا وكأنه يتسكع على غير هدى !.. وقدر لهذا الديك الصغير ، الذى تنبأ له بيلون بأنه قد يعيش فى ألم وعذاب ، أن يموت فى دعة وسلام .. أو فى هدوء ، على الاقل !.. وليست هذه بالشهادة البسيطة لاساليب بيلون الفنية !

وما هى الا عشر دقائق ، حتى برز بيلون من الغابة ، واتجه عائدا الى دار دانى . وكان الديك الصغير قد جرد من ريشه ، ومن احشائه وأطرافه ، ووزع على جيوب بيلون !.. ذلك لانه اذا كان ثمة مبدأ من مبادىء السلوك مقدما على سواه لدى بيلون ، فهذا المبدأ هو : اياك أن تحمل الى البيت ـ مهما تكن الظروف ـ ريشا ، أو رأسا ، أو أقداما ، اذ أن من المستحيل التعرف على أى ديك اذا جرد من هذه المعالم ! !

***

• وفى المساء ، أشعل الصديقان النار فى أقماع الصنوبر التى كدساها فى الموقد ، فاخذت ألسنة اللهب تزمجر فى المدخنة . وكان دانى وبيلون قد أكلا حتى شبعا ، وسرى اليهما الدفء ، فشعرا بالسعادة ، وجلسا فى المقعدين الهزازين يتأرجحان فى رفق الى الامام والى الخلف !.. وكانا قد استخدما - خلال العشاء - قطعة من الشمع أمدتهما بشىء من الضوء ، ولكن ظلام الغرفة لم يتبدد الا عندما انبعث وهج النار خلال شقوق الموقد .. ولكى يكمل هناؤهما ، أخذ المطر يتساقط فيطرق السقف بقطراته .. ولم يتسرب خلال شقوق السقف سوى قدر ضئيل من الماء .. وحتى هذا القدر - على ضآلته - لم يهبط الا على أماكن لم تكن بالصديقين حاجة الى الجلوس فيها ، ومن ثم ظلا بمأمن من البلل !

وقال بيلون : « نعم الحال هذه !.. تصور الليالى التى كنا نضطر فيها الى النوم فى البرد !.. هذه هى الحياة حقا ! »

فقال دانى : « حقا ! .. وما أغرب الظروف !.. لقد ظللت أعواما بلا مأوى ، فاذا بى أحظى فجأة بدارين .. وليس بوسعى أن أنام فى بيتين فى آن واحد ! » .. وكان بيلون يكره الاسراف ، وقد رأى فى عدم استغلال البيت الثانى تبديدا واسرافا ، فقال : « لقد ظل هذا الموضوع بالذات يشغل بالى .. لماذا لا تؤجر البيت الآخر ؟ »

وانزلقت قدما دانى عن قاعدة المقعد ، فاصطكتا بالارض .. وصاح : « عجبا يابيلون !.. كيف لم تخطر لى هذه الفكرة من قبل ! » .. واذ ازداد اقتناعا بالفكرة ، تساءل : « ولكن ، منذا الذى يستأجر البيت ؟ » .. فقال بيلون : « أنا أستأجره .. سأدفع عشرة دولارات فى الشهر ! » .. ولكن دانى قال فى اصرار : « بل خمسة عشر !.. انه بيت جيد ، يستحق خمسة عشر دولارا »

ووافق بيلون على مضض ، بل انه كان مستعدا لان يوافق على مايزيد على هذه الاجرة ، اذ بدأ يشعر بما يصيب الانسان من سمو اذا ماعاش فى بيت خاص به .. وكان جد تواق الى هذا السمو ! .. وما لبث دانى أن قال : « اذن فقد اتفقنا .. لسوف تستأجر دارى .. أوه ، لسوف تجدنى مالكا

طيبا يابيلون ، فلن أضايقك قط ! »

ولم يكن بيلون قد امتلك فى حياته كلها ـ فيما عدا العام الذى قضاه في الجيش ـ خمسة عشر دولارا ، ولكن فكره أوحى اليه بأن الاجرة لن تغدو مستحقة لدانى قبل انقضاء شهر .. فمن يدرى ما قد يجرى خلال الشهر ؟

وهكذا أخذ الاثنان يسمران فى هناء الى جوار النار . وما لبث دانى أن غادر الغرفة بعد برهة ، فغاب بضع لحظات ، ثم عاد يحمل عـددا من ثمار التفاح ، وقال يبرر عمله : « كان المطر خليقا بأن يفسدها .. على أية حال ! »

ولم يشأ بيلون أن يكون أقل منه حيلة ، فما لبث أن نهض وأشعل الشمعة ، ثم سار الى غرفة النوم ، فغاب برهة ، وعاد يحمل وعاء للاغتسال (طستا) ، وآنيتين للزهور من الزجاج الاحمر ، ومروحة من ريش النعـــام .. وقال : « ليس من الخير أن نحتفظ بكثير من الاشياء القابلة للكسر أو التلف .. فانها اذا كسرت أو تلفت ، أورثت المرء حزنا . بل أن الخير كل الخير فى أن لانبقيها على الاطلاق ! » .. ثم انتزع باقة الورد الورقى الاحمر عن الجدار ، وقال مبررا عمله : « سأقدمها تحية للسنيورا توريللى » .. وانفلت مغادرا الدار

وما لبث أن عاد بعد قليل ، وقد ابتل بالمطر ، ولكنه كان بادى النصر ، اذ كان يحمل فى يده ابريقا به جالون من النبيذ الاحمر . واندمجا ـ فيما بعد ـ فى جدال حامى الوطيس ، ولكنهما لم يحفلا بتعرف من الذى انتصر منهما على صاحبه ، اذ كانا مكدودين ، بعد أن أرهقهما ما صادفهما أثناء النهار من انفعالات . كما أن النبيذ أثقل رأسيهما وأجفانهما ، فلم يلبثا أن انطرحا على الارض ، واستغرقا فى النوم !

وخبت النـــار ، فأخذت جوانب الموقـــد تطقطق وهى تزداد برودة .. وتضاءلت الشمعة ، ثم غاص الفتيل فى الشمع المذاب فانطفأ نوره ، وأرســل بضعة خيوط من دخان أزرق ..

وسيطر على البيت الظلام ، والهدوء والسكينة !

عبد زوجته!

(أو سرج الحصان)



THE HARNESS

• كان ((بيتر راندال)) من أكثر مزارعى مقاطعة (مونتيرى) حظوة باحترام القوم . وقد حدث عندما دعى يوما الى القاء خطبة قصيرة فى مجمع ماسونى ، أن وصفه ((الاخ)) الذى قدمه بأنه مثال يجب أن يقتدى به شباب الماسونيين فى كاليفورنيا . وكان يقترب من الخمسين من عمره ، ذا طبع مهيب متزن ، كما كان ذا لحية أنيقة ، ومن ثم كان يحظى من كل مجتمع بما لذوى اللحى من سلطان ! وكانت عيناه وقورتى النظرات كذلك .. كانتا زرقاوين ، وقورتين الى الحد الذى يكاد الوقار ينقلب عنده الى حزن !.. وكان الناس يدركون أن فى شخصيته قوة ، ولكنها قوة حبيسة !.. وفى بعض الاحيان ، كانت عيناه تتخذان مظهرا عنيدا ومهينا ، كعينى الكلب الشرير .. ولكن هذه النظرة كانت سرعان ماتزول،ليسترد وجهه رزانته واستقامته.وكان طويلا ، عريض الصدر، مستقيم المنكبين ، ضامر البطن ، كأنه جندى !.. ولما كان المزارعون عادة مترهلين ، مكرشين ، فان بيتر اكتسب مزيدا من الاحترام بسبب قامته !

أما ((ايما)) ، زوجة بيتر ، فقد أجمع الناس على أنه كان من العسير أن يعرف المرء كيف تظل امرأة كهذه ـ جلدا على عظام ! ـ على قيد الحياة ، لا سيما وانها كانت سقيمة معظم الوقت ، فقد كانت تزن سبعة وثمانين رطلا ، وكانت ـ وهى فى الخامسة والاربعين ـ ذات وجه مغضن ، أسمر ، كما لوكانت امرأة عجوزا .. بيد أن عينيها السوداوين كانتا تتقدان بالرغبة فى الحياة .. وكانت امرأة عزيزة النفس ، قل أن تشكو !

وكان بيتر يرحل مرة فى العام ، فيغيب أسبوعا ، تاركا زوجته وحيدة فى المزرعة . وكانت تقول للجارات اللاتى يزرنها ليؤنسنها : ((لقد رحل لبعض الاعمال !)) .. وكانت ايما ، كلما عاد بيتر من رحلة الاعمال هذه ، تستسلم للمرض شهرا أو اثنين . وكان هذا المرض يشق على بيتر ، لان ايما كانت تؤدى أعمال البيت بنفسها وتكره أن تستأجر فتاة لتؤديها عنها ، فاذا ما مرضت ، كان بيتر يضطر الى القيام بأعمال البيت ..

***

• وكانت مزرعة ((راندال))تمتد على ضفة نهر (ساليناس) ، ملاصقة

للتلال ، فكانت المزرعة خليطا مثاليا ، متوازنا ، من أراض منخفضة وأخرى عالية .. كانت تتألف من خمسة وأربعين فدانا من أرض مستوية على هضبة خصبة حمل اليها النهر الطمى من أخصب بقاع المقاطعة ـ فى العصور الغابرة ـ وثمانين فدانا من أرض بسيطة الارتفاع لزراعة البســاتين . أما الدار ، فكانت بيضاء ، فى نظافة صاحبيها ووقارهما .. وكانت الساحة الملاصــقة للبيت مباشرة ، محوطة بسياج . وقد زرع بيتر فى الحديقة بعض الزهور الجميلة بارشاد ايما !.. ومن الشرفة الامامية للدار ، كان المرء يرى الهضبة ، والنهر من ورائها ، بما يحف به من مروج وأشجار القطن الكثيفة .. وعلى الضفة الاخرى للنهر كانت حقــول البنجر تبدو من ورائهــا قبة محكمة (سالينـاس) . وكثيرا ما كانت ايما تجلس فى مقعد هزاز فى الشرفة الامامية ، حتى يضطرها النسيم الى دخول الدار . وكانت دائما تنهمك فى أشغال الابرة، وهى ترفع بصرها بين آن وآخر ، لترقب بيتر وهو يعمل على الهضبة ، أو فى البستان ، أو على السفح !

ولم تكن مزرعة ((راندال)) مثقلة بالديون أكثر من سواها من مزارع الوادى . وكانت المحصولات تنتقى بحكمة ، وتتلقى عناية طيبة ، فتكفى لسداد فوائد القروض ، وتكفل مستوى معقولا للمعيشة ، ثم يتبقى منها بضع مئات من الدولارات فى كل عام تدفع للوفاء بجزء من الدين الرئيسى . لذلك لم يكن من العجيب أن يحظى بيتر راندال باحترام جيرانه ، وأن تلقى الكلمات القلائل التى يقولها اهتماما منهم ، ولو كانت عن الجو أو عن غيره من الامور الجارية . فلو قال بيتر : ((سأذبح خنزيرا فى يوم السبت)) ، لذبح سامعوه جميعا ـ تقريبا ـ خنازير يوم السبت !.. وما كانوا يعلمون السبب ، بل كان يكفيهم أن يعرفوا أنبيتر راندال يعتزم ذبح خنزير .. فقد كان هذا يبدو لهم شيئا طيبا ، محمودا ، يتفق والاصول !

وكان بيتر وايما قد تزوجا منذ واحد وعشرين عاما،جمعا خلالها ملء بيتهما من الاثاث الجيد ، وعددا من الصور ذات الاطارات ،وأوانى للزهور من كافة الاشكال ، والكتب الوقورة . ولما لم تكن ايما قد أنجبت أطفالا ، فان البيت لم يصب بأى خدوش أو شقوق أو تشويهات . وكانت الحصائر المصنوعة من لحاء الكاكاو السميك مفروشة أمام البابين الامامى والخلفى ، لتمنع ما قديكون

عالقا بالاقدام عن التسرب الى داخل البيت !.. وكانت ايما في الفترات التى تتخلل مرات سقامها،تعنى بالبيت ، فكانت تحرص على تزييت مفصلات الابواب والصواوين ، وتتفادى ان يفقد أى مقبض أحد مساميره . أما الاثاث والاشياء الخشبية فكانت تطلى وتصقل مرة فى كل عام . وكانت الاصلاحات تجرى عادة بعد عودة بيتر من رحلات أعماله السنوية .

وكان الجيران يعترضون طريق الطبيب وهو منطلق فى الطريق المحاذى للنهر ، كلما ذاع فى المزارع أن ايما مريضة ، فيسألونه عنها .. وكان يجيب : « أظن أنها بخير ، وان كان عليها أن تلزم الفراش أسبوعين ! » .. فكانت الجارات يحملن الفطائر الى مزرعة راندال ، ويتسللن على أطراف أقدامهن الى غرفة المريضة ، حيث كانت ترقد المرأة الشبيهة بالعصفور الهزيل ، فى سرير كبير من خشب الجوز . وكانت ترمقهن بعينيها السوداوين البراقتين ، فيسألنها : « ألا تحبين أن نزيح الستائر عن النوافذ ؟ »

ـ لا ، شكرا .. ان الضوء يزعج عينى !

ـ أما من شىء نستطيع أن نؤديه لك ؟

ـ لا ، شكرا .. ان بيتر يؤدى كل شىء على مايرام !

وكانت ايما تصر على رفض كل خدمة ، فلم يكن أمامهن ما يفعلنه من أجلها ـ وهى مريضة ـ سوى أن يحملن الفطائر والكعك الى بيتر ، الذى كن يجدنه فى المطبخ ، وقد ارتدى مرولة أنيقة نظيفة !

❋ ❋ ❋

• وفى خريف أحد الاعوام ، سرى نبأ بأن ايما كانت مريضة ، فأعدت زوجات المزارعين الفطائر لبيتر ، وتأهبن للقيام بزياراتهن المألوفة . ووقفت مسز شابيل ـ ربة المزرعة المجاورة ـ فى طريق الدكتور وسألته : « كيف حال ايما راندال يادكتور ؟ »

ـ ما أظنها فى حال طيبة يامسز شابيل .. أرى أنها مريضة جدا !

وانتشر فى المزارع المجاورة أن ايما راندال توشك أن تموت ، فان الدكتور « مارن » كان يرى أن المريض « فى حال طيبة » طالما أنه لم يكن جثة هامدة !.. ولكن ايما راندال ظلت تغالب المرض زمنا طويلا . وكان بيتر يعنى بخدمتها بنفسه ، فلما اقترح الطبيب استخدام ممرضـــة ، قوبل اقتراحه بنظرات

غبيدة ، مصرة على الرفض ، انبعثت من عينى المريضة . ومع ما كانت عليه من مرض ، فان مطالبها كانت تقابل باحترام .. ومن ثم ظل بيتر يغذيها ، وينظفها ، ويسوى فراشها بنفسه !.. وظلت الستائر مسدلة على نوافذ غرفة النوم . وانقضى شهران قبل أن ترين على العينين الســوداوين الحادتين غشاوة ، ويستسلم العقل الحاد للغيبوبة . واذ ذاك فقط ، وفدت على الدار ممرضة .. وكان بيتر قد أصبح هو الآخر نحيلا ، سقيما ، توشك قواه أن تتداعى !.. وكانت الجارات يحملن اليه الفطائر والكعك ، فيجدن ما أحضرنه من قبل لا يزال فى المطبخ لم يمس !

وكانت مسز شابيل فى البيت مع بيتر ، فى ذلك الاصيل الذى ماتت فيه ايما ، وجرفت بيتر نوبة هيستيرية فى الحال ، فأسرعت مسز شابيــل الى الاتصال تليفونيا بالطبيب ، ثم بزوجها الذى سألته أن يخف لمعونتها ، اذ راح بيتر يعول كرجل مخبول ، ويضرب خديه الملتحيين بقبضتيه .. وأحس « ايد شابيل » باستنكار عندما رآه ، اذ كانت لحية بيتر مخضلة بالدموع ، وشهقاته العالية تسمع فى البيت كله .وحين وضع « ايد شابيل » يده على كتف بيتر وقال له : « كفى يا بيتر ، كفى ! » ، أزاح بيتر يد « شابيل »

ووقع الطبيب شهادة الوفاة .. وعندما أقبل اللحاد ، لقى الجميع عناء فى السيطرة على بيتر ، اذ غدا كالمجنون . وأخذ يصارعهم عندما هموا بحمل الجثة الى الخارج ، فلم يستطيعوا نقل جثة ايما الا بعد أن أمسك « ايد شابيل » واللحاد ببيتر ، بينما حقنه الطبيب بمادة مخدرة .. ولكن المخدر لم يسلم بيتر الى النوم ، بل جلس منطويا على نفسه فى أحد الاركان ، وأخذ يحملق فى الارض ، وأنفاسه تتتابع متهدجة . وسأل الطبيب الممرضة : « من الذى سيمكث معه ؟ » ، فأجابت : « اننى لا أقوى على السيطرة عليه وحدى » .. فدعا الطبيب شابيل الى البقاء معه ، وقال له : « هاك بعض أقراص البرومايد ، فاذا عاد الى هياجه ، اعطه قرصا منها .. واذا لم تفلح الاقراص ، فاعطه بعض « اميتال الصوديوم » .. ان قرصا من هذه كفيــل بتهدئته ! »

وقبل أن ينصرف القوم ، تعاونوا على نقل بيتر الى غرفــة الجلوس ، فأرقدوه فى رفق على أريكة ، بينما جلس « ايد شابيل » فى مقعد مريح ،

وأخذ يراقبه ، وقد وضع أقراص ((البرومايد)) وكوب ماء على منضدة بجواره .. وكانت الغرفة الصغيرة نظيفة .. فقد عنى بيتر فى صباح ذلك اليوم بالذات بمسح أرضها بورق مبتل . وأوقد ((ايد)) نارا فى المدفأة ، وغذاها بكتلتين من الخشب .. وما لبث الليل أن هبط ، وهطل مطر خفيف كان يطرق النوافذ كلما دفعته الريح . وسوى ((ايد)) فتيل المصباح ، ثم خفف الضوء .. وظل فترة طويلة يرقب بيتر وهو مخدر على الاريكة ، ثم مالبث النعاس أن غزا جفنى ((ايد))

* * *

وكانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء ، عندما استيقظ ((ايد)) ، فحملق فى الاريكة ، واذا ببيتر جالس يتأمله .. وامتدت يد ((ايد)) الى أقراص البرومايد ، ولكن بيتر هز رأسه قائلا : ((لا داعى لاى شىء ، اذ اعتقد أن الطبيب قد خدرنى بمخدر قوى .. على أننى أشعر بارتياح ، وان كنت لأزال تحت تأثير المخدر قليلا !))

ـ لو أنك أخذت واحدا من هذه الاقراص لنعمت بالنوم !

ـ ولكننى لا أريد أن أنام .. لسوف أغسل وجهى فأنتعش !

وان هى الا لحظة ، حتى عاد الى غرفة الجلوس ، وهو لا يزال يجفف وجهه بمنشفة .. وكانت على شفتيه ابتسامة غريبة ، توحى بتعبير لم يشهد ((ايد)) مثله من قبل .. ابتسامة غامضة ، تثير العجب ! وقال بيتر : ((أعتقد أن أعصابى أفلتت منى عندما ماتت ايما))

ـ آه .. أجل .. الى حدما !

ـ لقد لاح لى كأنما انقطع شىء فى جوفى .. شىء كان يشد أطراف كيانى .. فكأننى تفككت !.. على أننى الآن بخير !

وحملق ((ايد)) فى الارض ، فرأى عنكبوتا صغيرا ، أسمر ، يزحف ، واذ ذاك مد قدمه وسحقه . وسأله بيتر فجأة : ((هل تؤمن بأن ثمة حياة بعد الموت ؟)) .. فتردد ((ايد شابيل)) حائرا ، اذ أنه لم يكن يحب الحديث عن مثل هذه الامور ، لان الحديث عنها يقحمها على ذهنه ، فيظل يفكر فيها !. وما لبث أن قال : ((اذا شئت رأيى ، فأنا أعتقد بوجود حياة بعد الموت))

ـ هل تؤمن بأن أى امرىء يرحل عن الدنيا يستطيع أن يطل عليها

فيشهد ما نفعل ؟ !

ـ لست أدرى ، فانا لم أتعمق الى هذا الحد .. لست أدرى !

فاستطرد بيتر وكأنه يكلم نفسه : « حتى اذا كانت ترانى ، واذا أنا لم أفعل ما كانت تحب ، فخليق بها أن تشعر بارتياح ، لاننى لم أقدم على هـذا الذى لا تحبه الا بعد أن غابت عن هنا .. وخليق بها أن تسر لانها جعلت منى رجلا صالحا !.. اننى اذ أغدو غير صالح فى غيابها ، فسيقوم هذا دليلا على أنها هى التى كانت تصلحنى .. أليس كذلك ؟ .. اننى كنت رجلا صالحا ! ألا ترى ذلك يا ايد ؟ »

ـ ماذا تعنى بقولك « كنت » ؟

ـ أجل ، لقد كنت صالحا ، فيما عدا أسبوع واحد فى السنة ، ولست أدرى ما سوف أفعله الآن ..

واشتدت أمارات الحنق على وجهه ، وقال : « لست أدرى سوى شىء واحد ! » .. ونهض فخلع سترته وقميصه ، فبدا فوق ثيابه الداخلية حزام من القماش يشد كتفيه الى الوراء ـ كسرج الجواد ـ ففكه وألقاه بعيدا ، ثم خلع « بنطلونه » فكشف عن حزام عريض من المطاط حول بطنه . وخلع بيتر هذا الحزام أيضا ، وراح يحك بطنه فى استمتاع ، ثم ارتدى ثيابه من جديد ، وابتسم عين الابتسامة الغريبة ، الغامضة ، وقال : « لست أدرى كيف كانت تحملنى على تنفيذ رغباتها ؟ .. لم يكن يبدو انها تفرض سلطانها على ، ومع ذلك كانت تحملنى دائما على أن أفعل ما تبغى . أتصدق ؟ .. اننى لا أكاد أومن بوجود حياة أخرى !.. لقد كنت مضطرا ـ عندما كانت على قيـد الحياة ، بل وحتى فى أوقات مرضها ! ـ الى عمل ما كانت تبغى من أمور ، ولكن .. فى نفس الدقيقة التى ماتت فيها .. شعرت .. كأن سرجا قـد انزاح عنى ، وكأن العنان أطلق لى ! .. ولم أستطع أن أصدق ان كل شىء قد انتهى ، واننى مسوق الى أن أعتاد المضى بغير عنان !.. لسوف يبرز بطنى وينكرش ، وسأدعه يبرز .. اننى الآن فى الخمسين من عمرى ! »

ولم يرتح « ايد » الى هـــذا الحديث .. فقد بدا له غير لائق فى تلك الظروف ، ومن ثم قال فى استخفاء : «لو انك تناولت واحدا من هذه الاقراص، لنعمت بقسط من النوم ! » .. ولم يكن بيتر قد ارتدى سترته ، بل جلس

على الاريكة وصدر قميصه مفتوح .. فقال : « لست أريد أن أنام ، وانما أنا أهفو الى الكلام .. أحسبنى ساضع ذلك الحزام والعنان (اللجام) ليشدا كتفى وبطنى أثناء الجنازة ، ولكننى سأحرقهما بعد ذلك ! .. اسمع .. ان لدى زجاجة مليئة بالويسكى فى مخزن الفلال ، وسأذهب لاحضارها » .. فبادر « ايد » الى الاعتذار قائلا : « آه ، لا .. لست مستطيعا أن أشرب الآن .. فى وقت كهذا ! » .. ولكن بيتر انتصب واقفا وقال : « لا باس .. اننى أستطيع الشرب ، وفى وسعك أن تجلس وتشاهدنى ان شئت .. لقد انتهى كل شىء كما أكدت لك ! »

* * *

وغادر بيتر الغرفة ، تاركا « ايد شابيل » فريسة للشقاء والشعور بالاستنكار . ولم تنقض لحظة حتى عاد ، وشرع يتكلم وهو ينفذ خلال الباب حاملا الويسكى : « لم يكن لى من فرص فى حياتى سوى تلك الرحلات .. لقد كانت ايما امرأة لامعة الذكاء ، وقد أدركت اننى مسوق الى الجنون اذا لم ابتعد عنها مرة فى العام .. يا الهى ! لشد ما كانت تثير ضميرى اذا ما عدت ! » .. وخفض من صوته كمن يوشك أن يدلى بسر ما ، ثم قال : « أو تدرى ماذا كنت أفعل فى تلك الرحلات ؟ » .. واتسعت عينا « ايد » ذهولا ، اذ تبين أن الذى أمامه لم يكن بيتر المعهود ، وانما كان شخصا جديدا ! .. وتناول قدح الويسكى من بيتر وهو يجيب عن سؤاله : « لا .. ماذا كنت تفعل ؟ » .. فعب بيتر من الشراب ، وسعل ، ثم مسح فمه بيده وقال : « كنت أسكر ، وأذهب الى بيوت الهوى فى سان فرانسيسكو ! .. كنت أثمل طيلة أسبوع فى العام ، وأذهب الى بيوت الهوى كل ليلة ! » . وأترع قدحه بالشراب وهو يمضى قائلا : « وأحسب أن ايما كانت تعرف ، ولكنها لم تقل شيئا على الاطلاق .. كنت خليقا بأن أنفجر اذا لم تتح لى الفرصة للرحيل! »

وقال « ايد شابيل » وهو يرشف شرابه فى تردد : « لقد كانت تقول دائما انك تسافر لبعض الاعمال » . فنظر بيتر الى قدحه ، ثم أفرغه فى جوفه ، وملأه من جديد .. وبدأت عيناه تلمعان ، ثم قال : « اشرب قدحك يا ايد .. اننى أعرف انك لاترى فى تعاطى الشراب فى مثل هذه الظروف عملا لائقا .. ولكن أحدا سوانا لن يعرف بما يجرى الآن بيننا . حرك النار فى

المدفأة ، فلست حزينا ! » .. ونهض شابيل فحرك النار ، حتى تطاير الشرر في المدخنة كطيور لامعة براقة ، بينما ملأ بيتر القدحين ، واضطجع في الاريكة. وعندما عاد « ايد » الى مقعده ، رشف من قدحه وهو يتظاهر بأنه لم يفطن الى انه ملىء من جديد ! .. وبدأ خداه يتوردان ، وخيل اليه ان تعاطى الشراب في مثل تلك الظروف ليس بالامر المنكر .. بل ان فترة الاصيل ، وحادث الوفاة ، غابا عن ذهنه في جوف الماضي !

وقال بيتر : « تصور .. أعتقد انني لن أقرب الفطير والكعك مرةأخرى .. لقد ظل الناس عشر سنوات يواتونني بالكعك كلما مرضت ايما .. ولقد كان هذا كرما منهم ، ولكن الكعك أصبح يقترن في نظري بالمرض .. اشرب !» .. وطرأ اذ ذاك تغير على الغرفة ، فتطلع كل من الرجلين الى الآخر محاولا أن يعرف ماجرى .. كان ثمة تغير جعل الغرفة تختلف عما كانت عليه قبل لحظة .. وما لبث بيتر ان ابتسم في استخذاء وقال : « لقد وقفت الساعة التي على رف المدفأة . ما أظنني سأملأها من جديد .. سأحضر ساعة صغيرة ذات جرس ، وذات بندول سريع ، فان حركة بندول الساعة الكبيرة بطيئة ، توحي بالحزن ! » .. وتجرع الويسكي الذي كان في القدح ، ثم قال : « أحسبك ستقول للملأ انني مجنون ! » .. فرفع « ايد » رأسه عن قدحه ، وأومأ مبتسما ، ثم قال : « لا .. انني أقدر مدى شعورك ازاء الامور .. ما كنت أعلم انك ترتدي عنانا وحزاما ! »

فقال بيتر : « لقد كانت ترى أن الرجل يجب أن يكون مستوى القامة . ولكنني أميل الى الاحدوداب بطبيعتي ! » .. ثم انفجر في حنق : « بل انني أحمق بالسليقة ! لقد ظللت عشرين عاما أتظاهر بأنني حكيم ، طيب .. اللهم الا أسبوعا من كل عام ! .. كان كل شيء يملى على املاء ، بل كانت حياتي ترسم لي .. ألا دعني أملأ قدحك ! .. ان لدي زجاجة أخرى في مخزن الغلال ، مخبأة تحت الاكياس ! » .. فقدم « ايد » قدحه ليملأ ، بينما استطرد بيتر قائلا : « لقد خطر لي أن من البديع أن أزرع كل أرضي المستوية، الممتدة على ضفة النهر ، بالبازلاء .. تصور منظرها اذا جلس المرء في الشرفة الامامية ، وشاهد كل هذه المساحة وقد اكتست بزهور زرقاء ووردية .. فاذا هبت عليها الريح ، فاح منها عبير يسكرك ! »

– كثيرون من الناس أغرتهم البازلاء فأفلسوا ! .. صحيح انك تحصل على ثمن عال للمحصول ، ولكن هناك أخطارا كثيرة تهدد هذا المحصول !

فصاح بيتر : « لست أحفل البتة .. اننى أتوق الى أشياء كثيرة .. الى أربعين فدانا من الالوان الجميلة والعبير الشذى ! .. والى امرأة سمينة، ذات ثديين كأنهما وسادتان .. اننى جائع ! .. أؤكد لك اننى جائع الى كل شىء ! ! » .. وتجهم وجه « ايد » ازاء الصياح ، وقال : « لو انك أخذت واحدا من هذه الاقراص ، لنعمت بالنوم ! » .. وتبدى الخجل على بيتر ، وقال : « اننى بخير ، وما قصدت أن أصرخ هكذا .. اننى لا أفكر فى هذه الاشـياء للمرة الاولى ، بل لقد ظللت افكر فيها عشرين عاما ، كما يفكر الاطفـال فى العطلة المدرسية ! .. لقد كنت دائما فى خوف من أن أكتهل ، أو أن أموت قبل زوجتى ، فتفوتنى كل المتع ! .. على اننى لم أتجاوز الخمسين ، ولا يزال لدى كثير من القوة .. لقد حدثت ايما عن زراعة البازلاء ، ولكنها لم تدعنى أحقق رغبتى .. لست أدرى كيف كانت تحملنى على أن أرضخ لها ! .. لست أتذكر ، فقد كان لها أسلوب عجيب .. ولكنها رحلت ، وانى لاشـعر بأن عهدها انقضى كما انقضى عهد ذلك العنان ! .. لسوف أترهل يا ايد ، حتى املأ البيت بجسمى .. وسأحمل الاوساخ فى نعلى الى داخل البيت .. وسآتى بمدبرة ضخمة سمينة للبيت .. ضخمة سمينة .. من سـان فرانسيسكو ! .. وسأحرص على أن تكون على الرف زجاجة براندى دائما !»

ونهض « ايد شابيل » فتمطى قائلا : « أرى أن أعود الى دارى الآن اذا كنت تشعر بأنك بخير ، وسأنام قليلا .. يحسن بك أن تملأ الساعة يابيتر ، فليس من الخير للساعة أن تقف معطلة ! »

* * *

• وشرع بيتر يعمل فى مزرعته منذ اليوم التالى للجنازة ، فلمح آل شابيل – الذين يقيمون فى المزرعة المجاورة – نور المصباح فى مطبخه قبل طلوع النهار بوقت طويل ، ولمحوا مصباح اليد (الفانوس) يتحرك فى ساحته الى مخزن الغلال قبل ان يغادروا مضاجعهم بأكثر من نصف ساعة ! .. وقضى بيتر ثلاثة أيام فى تشذيب أشجار بستانه وتقليمها ، فكان يعمل منذ انبثاق ضوء النهار ، حتى تدلهم الظلمة . ثم شرح يفلح الارض الواسـعة الممتدة

الى جوار النهر ، فحرث وعزق . وما لبث أن أقبل غريبان على المزرعة ، وهما فى ملابس ركوب الخيل ، فتفقدا الارض ، وتحسسا التربة بين أصابعهما، ودقا ((خابورا)) فى جوفها ، حتى اذا رحلا ، حملا معهما أكياسا بها عينات من التربة

وكان من عادة المزارعـــين أن يكثروا من التزاور قبل موسم الزراعة ، فيجلسون القرفصاء ، ويغترفون تراب الارض ، ويفركون القطع المتماسكة منه بين أصابعهم ، وهم يتحدثون عن الاسواق ، ويتذاكرون الســـنوات التى ارتفعت فيها أسعار ((الفاصوليا)) ، والسنوات التى لم يكد محصول البازلاء يدر فيها ثمن التقاوى . وكان من المعتاد بعد مداولات عـــديدة من هذا النوع ، أن يزرع الفلاحون جميعا صنفا واحدا .. وكان لبعض الرجال آراء راجحة بينهم .. فلو أن ((بيتر راندال)) ـ أو ((كلارك دى ويت)) ـ رأى أن يزرع ((لوبياء)) حمراء وشــــوفانا ، لانقلبت معظم الزراعات الى ((لوبياء)) وشوفان فى ذلك العام ، اذ كان من المسلم به أنه ما دام مثـل هذين الرجلين محترمين وموفقين ، فلابد أن خططهما تبنى على شىء أكثر من مجرد المصادفة والحظ ! .. وكان مما يؤمن به القوم ـ وان لم يجهروا به ـ ان بيتر راندال وكلارك دى ويت قد أوتيا مقدرة عقلية أكثر مما أوتى غيرهما من الناس ، وموهبة خاصة تمكنهما من معرفة الغيب !

وعندما بدأ التزاور المعهود فى ذلك العام ، لوحظ ان هناك تغيرا طرأ على بيتر راندال .. اذ كان يعتلى محراثه ، ويتحدث فى مرح . ولقد قال انه لم يستقر بعد على ما يزرعه ، ولكنه قالها فى شىء من الارتباك ، أوحى بأنه لم يكن راغبا فى أن يصرح بالمحصول الذى اختاره ! حتى اذا صد بعض المتسائلين فى جفاء ، انقطعت الزيارات لمزرعته ، واتجه المزارعون بجمعهم الى كلارك دى ويت ، وكان كلارك قد قرر أن يزرع أرضه شوفانا ، فأملى قراره الرأى على أغلبية المزارعين فى المنطقة !

ولكن الاهتمام بما قرره بيتر لم يقف بتوقف الناس عن سؤاله . بل كان المارون بجوار أرضه يتأملون الحقل ، محاولين أن يتبينوا من طريقة حرثه نوع المحصول المقبل . وعندما شرع بيتر يسوق آلة البذر فى أرضه ، لم يعد أحد ينفذ اليها ، اذ جهر بيتر بأن نوع محصوله سر يجب أن يكتمه !

.. ولم يفش ((ايد شابيل)) ما كان يعرفه .. فقد كان يشعر باستحياء كلما تذكر تلك الليلة .. كان يستنكر انهيار بيتر ، ثم تحرره ، كما كان يستنكر من نفسه ان استمع له ! وكان يرقب بيتر خلسة ، ليرى ما اذا كان قد نفذ نواياه المرذولة ، أو ان كل ما سمعه كان نتيجة اختبال وانهيار عصبى اصاباه عندما ماتت زوجته ! .. ولاحظ ان كتفى بيتر لم تعودوا مستقيمتين ، وان بطنه قد برز قليلا . وذهب الى داربيتر ، فارتاحت نفسه حين لم ير أثرا للاوساخ على الارض ، وحين سمع الساعة التى تعلو المدفأة تدق ! .. وكثيرا ما كانت مسز شابيل تتحدث عن ذلك الاصيل الذى ماتت فيه ايما ، فتقول : ((كنت خليقا بان تظنه قد فقد عقله .. اذ راح يعول .. ومكث ((ايد)) معه شطرا من الليل ، حتى سكنت نفسه . وقد اضطر ((ايد)) الى أن يسقيه بعض الويسكى ليحمله على النوم .. ولكن العمل الدائب هو خير ما يقتل الحزن .. ان بيتر راندال يستيقظ فى الساعة الثالثة من كل صباح ، فانا ألمح من مخدعى النور فى نافذة مطبخه !))

وأصبحت مياه نهر (ساليناس) قاتمة ، وظل الفيضان شهرا ، ثم هبط مستوى المياه ، فخلف بحيرات خضراء صغيرة . وكان بيتر قد أحسن تخطيط أرضه وحرثها ، فلم تعد بها كتل من التراب المتماسك تزيد فى الحجم على البندقة .. وكانت ـ عندما تهبط الامطار ـ تبدو قرمزية غنية بالخصب . ثم نبتت السيقان الخضراء الواهنة ، فى صفوف عبر ارض الحقل السمراء . وتسلل أحد الجيران فى جنح الظلام ، ومد يده خلال السياج ، فقطع ساقا صغيرة ، ثم قال لاصدقائه : ((أحسبها بازلاء .. وفيم تكتمه أمرها ؟)) .. وسرى النبأ خلال المزارع : ((انها بازلاء .. لقد زرع الافدنة الخمسة والاربعين كلها بازلاء !)) .. و سعى الرجال الى كلارك دى ويت يسألونه رأيه ، فكان هذا الرأى : ((أن الناس يخالون ان بوسعهم ان يثروا من وراء زراعة البازلاء ، لانك تستطيع أن تبيع الرطل بثمن يتراوح بين عشرين‌وستين سنتا . ولكنها أكثر المحصولات فى العالم تعرضا للاخطار .. ان البازلاء قد تكون مربحة اذا لم تصبها الحشرات .. ولكن قد يشتد الحر يوما ، فيتلف المحصول كله ! .. أو قد يهبط بعض المطر بعد الاوان ، فيفسد المحصول كله ! .. ان من الصواب ان تزرع بضعة أفدنة ، ولو أن فى هذا مجازفة ،

ولكن من غير الحكمة أن تزرع أرضك كلها .. لقد أصيب بيتر بمس من الخبل منذ موت ايما ! »

وانتشر هذا الرأى ، وأصبح كل رجل يفضى به وكأنه رأيه الخاص ! .. وكثيرا ما كان أى جارين يقولانه ، فيفضى كل منهما بنصفه ! .. وعندما ردده الكثيرون لبيتر راندال ، استشاط غضبا فى أحد الايام وصاح : « ألا نبئونى.. أرض من هذه ؟ .. اذا كنت أريد الافلاس فهذا من حقى .. أليس كذلك ؟ » .. وبدل قوله هذا من الشعور العام ! فلقد تذكر الناس ان بيتر كان دائما مزارعا موفقا ، فلعله أوتى دراية خاصة .. ولا بد ان الغريبين اللذين زاراه قبيل الموسم كانا من الخبراء بالتربة ! .. وتمنى كثيرون من المزارعين لو أنهم زرعوا بضعة أفدنة بازلاء ! .. واشتد هذا الشعور لديهم عندما امتدت فروع البازلاء ، وتشابكت ، وغطت الارض السمراء .. وعندما بدأت البراعم تتكون وتوحى بأن المحصول وفير . ثم تفتحت الزهور ، فاذا الالوان تنتشر فى الافدنة الخمسة والاربعين ، واذا الشذى يفوح من الافدنة الخمسة والاربعين ، حتى لقد قيل انك كنت تستطيع أن تشم العبير فى (ساليناس) التى تبعد عن المزرعة بأربعة أميال !

وأخذ بيتر راندال يجلس فى مقعد هزاز فى الشرفة الامامية لداره بعد ظهر كل يوم ، فيسرح البصر فى الاحواض الواسعة التى انتشر فيها اللونان الوردى والازرق ، وفى الارض كلها التى اختلط فيها اللونان .. وعندما كان نسيم الاصيل يهب ، كان بيتر يستنشقه فى نهم ، وقد فتح صدر قميصه ، وكأنه كان يتوق الى أن ينفذ العبير خلال جلده !

و سعى الرجال الى كلارك دى ويت يسألونه رأيه ، فقال : « هناك عشرة افتراضات بشأن ماقد يحدث فيفسد المحصول . ولكن ، هنيئا له ببازلائه ! » .. وأدرك القوم من انفعال كلارك ان الحسد دب الى نفسه . وأصبحوا كلما تأملوا الحقول الملونة ، ومدوا أبصارهم الى بيتر وهو يجلس فى شرفة داره .. أصبحوا يشعرون باعجاب جديد ضاعف من احترامهم اياه ! .. وزاره « ايد شابيل » ذات أصيل ، وقال له : « لقد أوتيت محصولا طيبا ياسيد ! » . فأجابه بيتر : « الظاهر انه كذلك ! » .. ثم تنهد قائلا : « ولكن موسم الازهار أوشك على نهايته ، وكم أكره أن أشهد تساقط الزهور! »

– بل يسرنى أن أراها تسقط ، فلسوف يعود عليك المحصول بمال وفير ، اذا لم يحدث ما ليس فى الحسبان

وأخرج بيتر منديلا كبيرا ، فمسح أنفه ، وحك جانبيه ، ثم قال : ((سأشعر بالاسف حين يغيب الشذى)) .. وأشار ((ايد)) الى ليلة وفاة ايما ، ثم غض احدى عينيه ، وتساءل هامسا : ((هل عثرت على من تدبر لك شئون دارك ؟)) . فأجاب بيتر : ((لم أبحث .. لم أجد وقتا لذلك)) .. وكانت تحيط بعينيه تجعدات تنم عن قلق ، فقال ((ايد)) لنفسه : من ذا الذى لايقلق ، اذا كانت أتفه سحابة ممطرة كفيلة بأن تفسد عليه محصول عام بأسره ؟

ولكن ، لو أن الموسم والجو كانا قد أعدا خصيصا للبازلاء ، لما جاءالمحصول خيرا من ذاك الذى جناه بيتر !.. كان الضباب يهبط قريبا من الارض فى الصباح الباكر أيام الحصاد .. وعندما استلقت الفروع المثقلة على ((المشمع)) الذى نشر من أجلها على الارض ، أخذت الشمس تشرق حامية ، فتجفف قرون البازلاء . وأخذ الجيران يرقبون الاكياس الطويلة وهى تمتلىء بالحبات السوداء السمينة ، ثم يعودون الى دورهم ويحاولون أن يحسبوا مقدار المال الذى سيجنيه بيتر من محصوله الهائل !

* * *

. عندما يسافر أحد من أبناء وادى (ساليناس) الاعلى الى (سان فرانسيسكو) لعمل أو لنزهة ، فانه ينزل فى فندق ((رامونا)) ، لان بوسعه دائما أن يجد فى بهو الفندق فردا من موطنه ، فيجلس معه فى مقاعد البهو الوثيرة ، ويروح الاثنان يتكلمان عن وادى ساليناس .. ولقد قدر لايد شابيل أن يذهب الى سان فرانسيسكو ليقابل ابن عم زوجته ، الذى كان مقبلا من (أوهايو) فى رحلة للنزهة . ولما لم يكن القطار مرتقبا قبل صباح اليوم التالى ، فقد أخذ ((ايد)) يبحث فى بهو فندق ((رامونا)) عن أحد من وادى ساليناس ، ولكنه لم ير فى المقاعد الوثيرة سوى أغراب ! .. ومن ثم ذهب الى احدى دور السينما ، حتى اذا عاد ، أخذ يبحث من جديد عن شخص من موطنه ، ولكنه لم ير فى هذه المرة ايضا سوى أغراب ! .. وفكر فى أن يلقى نظرة على سجل نزلاء الفندق ، ولكن الوقت كان متأخرا ، فجلس فىالبهو

ريثما يفرغ من تدخين سيجارة قبل أن يأوى الى مخدعه !

وفجأة ، سمع جلبة ، ثم رأى كاتب الفندق يشير بيده ، فيهرع أحد الخدم الى الخارج .. واستدار « ايد » فى مقعده ليرى ما هناك ، فاذا سائق احدى سيارات الاجرة يساعد رجلا على مغادرة السيارة . ثم تقدم خادم الفندق فأخذ الرجل من السائق ، وراح يقوده الى الباب .. وكان ذلك الرجل بيتر راندال ، وقد زاغت عيناه ، وفغر فاه ، وسال لعابه . ولم تكن تعلو شعره المشوش قبعة ! .. وقفز « ايد » من مقعده ، وسار اليه ، وهتف : « بيتر ! » .. وكان بيتر يناضل الخادم فى ضعف ، وهو يقول : « دعنى .. انني بخير .. دعنى وسأمنحك دولارين ! » .. وعاد « ايد » يهتف : « بيتر ! »

وتحولت العينان الزائغتان الى « ايد » فى تؤدة ، ثم ألقى بيتر بنفسه بين ذراعيه وهو يصيح : « ياصديقى الحميم ! .. أيد شابيل ، ياصديقى الحميم الطيب ! .. ماذا تفعل هنا ؟ .. اصعد معى الى غرفتى ، وتناول كأسا ! » . وساعده ايد على أن يستوى على قدميه ، وهو يقول : « سأصعد بالتأكيد ، فانى أميل الى تناول كأس قبل النوم ! »

ـ كأس ! .. لسوف نخرج فنذهب الى احدى دور السينما ، أو الى شىء من هذا القبيل !

وأعانه ايد على الوصول الى المصعد ، وعلى بلوغ غرفته . وهناك ، ارتمى بيتر على السرير . ثم جاهد حتى استطاع أن يجلس ، وقال : « هناك زجاجة ويسكى فى الحمام ، فأحضر لى معك كأسا ! » .. وأحضر « ايد » الزجاجة وكأسين ، وهو يقول : « ما الذى تفعله يابيتر .. أتحتفل بمحصولك ؟ .. لابد انك كسبت مالا وفيرا » . فبسط بيتر راحته ، وأخذ يطرقها بسبابة اليد الاخرى ، وقال : « بالتأكيد .. ولكن الامر لم يكن أكثر من مقامرة . أجل ، كان أشبه بمقامرة صريحة ! »

ـ ولكنك كسبت ثروة

فزمجر بيتر مفكرا ، وقال : « كان من المحتمل أن أخسر ثيابى نفسها .. لقد ظللت فى قلق طيلة الوقت .. العام بأسره ! .. كانت مقامرة ! »

ـ ولكنك كسبت ثروة ، على أية حال !

وحول بيتر مجرى الحديث قائلا فى اعتذار : « لقد أصبت بقيىء ودوار

.. لقد تقايأت فى « التاكسى » .. اننى عائد لتوى من بيت للهوى فى طريق فان نيس ! لقد وصلت الليلة الى المدينة .. كنت أوشك أن أنفجر لو اننى لم آت وأنعم بشىء من التحول عن نظام حياتى ! »

وتطلع اليه ايد فى عجب ، فاذا رأسه يتأرجح بين كتفيه ، واذا لحيته مشعثة ، مهوشة .. وشرع ايد يقول : « بيتر .. ليلة وفاة ايما .. لقد قلت اذ ذاك انك تعتزم .. أن تغير مجرى حياتك ! »

فارتفع رأس بيتر المتأرجح فى بطء ، وتطلع الى ايد شابيل وجفناه يكادان ينطبقان على عينيه ، ثم قال فى تثاقل : « ولكن ايما لم تمت .. انها تأبى أن تدعنى أتصرف وفق هواى .. لقد أقضت راحتى طوال العام بشأن تلك البازلاء ! » .. وبدت الحيرة فى عينيه وهو يمضى قائلا : « لست أدرى كيف تتسلط على ! » .. ثم عبس ، وعاد يطرق احدى راحتيه بأصبع اليـــد الاخرى ، وهو يقول : « ولكن ، ثق يا ايد شابيل اننى أبيت أن ألبس ذلك العنان (اللجام) ثانية .. بل اننى لن ارتديه ماحييت .. فاذكر هذا العهد ! »

وعاد رأسه يميل الى الامام ، ولكنه مالبث أن عاد يتطلع الى « ايد » بعد لحظة ، وقال : « لقد سكرت ، ولقد ارتدت بيوت الهوى » .. ثم مال على « ايد » وقال هامسا وكأنه يفضى اليه بسر : « ولكن ، لابأس .. سأكفر عن ذلك ، عندما أعود الى المزرعة .. أفتدرى ما الذى سأفعله ؟ .. سأدخل الضوء الكهربائى فى البيت .. لقد كانت ايما ترغب دائما فى المصابيح الكهربائية ! »

واستلقى على السرير ، فسوى ايد شابيل من اضطجاعه ، وخلع عنه ثيابه ، قبل أن يغادر الغرفة ، وهو يعجب فى نفسه : لقد ماتت ايما ، ولكن العنان ما زال يشد بيتر ويسيطر على حركاته !

محتويات الكتاب

دار الهنا للطباعة والنشر ت : ٤١٧٠٥

قصة المقاومة الشعبية السلبية .. والإيجابية !

القصة التى بين يديك تعطيك صورة واقعية رائعة استوحاها المؤلف من مقاومة شعب صغير مسالم لجيش الاحتلال الألمانى ، وهى صورة توضح دور كل فرد من أفراد الشعب فى مكافحة قوات الاحتلال : دور الفدائى المقاتل .. والأرملة الحسناء التى أعدم زوجها .. والصبى الذى تهبط عليه أصابع الشيكولاتة المتفجرة من السماء .. والعامل الذى تفرض عليه المساهمة فى الإنتاج لصالح العدو .. والطبيب الذى يستخدم فنه فى مقاومة المحتل .. ومحافظ المدينة الذى يتنازعه الواجب الوطنى والطاعة لأوامر الغزاة .. والمرأة العزلاء التى يطرق بابها ضابط من الأعداء تحت جنح الظلام لينسى فى فراشها وحدته وحنينه إلى وطنه وأهله ! .. وبفضل تعاون هؤلاء جميعًا تصبح إقامة جنود الاحتلال فى البلد المحتل جحيمًا مقيمًا ، وجلاؤهم عنه أمرًا محتومًا !



شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩